بَخُورٌ عَدَنِي

علي المقري

رواية

دار الساقي

مكتبة الفكر الجديد

بخور عدني

مكتبة
الفكر
الجديد

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

مكتبة الفكر الجديد

عبير الربيعي

علي المقري

بخور عدني

دار الساقي

مكتبة الفكر الجديد

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2014

ISBN 978-6-14425-799-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033-6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

مكتبة
الفكر
الجديد

النفحة الأولى

بَنْدَر عَدَن

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

أيّ شيء

ما إن هبطتُ من السفينة إلى ميناء عَدَنْ، برجلين مثقلتين بالعرج، حتى رغبتُ في الجلوس على أقرب رصيف لأكتب إليكِ. أردتُ أن أخبركِ بأنّني نجوت، أو أنّ هذا ما شعرتُ به، بعد رحلة طويلة قادني فيها البحر إلى هذا المرفأ البعيد، حيث صار عليّ أن أطلب العذر منك، إذْ استجبتُ، فجاةً، للقلق المحرّض، ومضيت معه دون أن أودّعك.

أردتُ أن أكتب، لكنّني انتبهت، وأنا أمسك بالقلم والدفتر، إلى أنّني لا أستطيع أن أوجّه رسالة إليكِ، بل لا أستطيع أن أوجّه ما أكتبه إلى أيّ أحد ممن أعرفهم؛ فالشخص الذي تعرفينه لم أعد أنا هو، وأنتِ لستِ أنتِ، أو لم تعودي كذلك، أو أنّني لا أقدر أن أبقيك كما كنت عليه، باسمكِ وعنوانك وبما يمكن أن يدلّ عبرك إليّ؛ فإذْ صرتُ غير الذي كُنته، فقد صار كلّ الذين ارتبطوا بي غيرهم.

رغبتُ، وأنا أمضي خطواتي الأولى في عدن، في إخفاء الاسم والأوراق التي حملتها معي، كدليل هويّة. فكّرتُ باختيار اسم جديد لي، يكون مقطوعاً من شجرة، كما يقولون؛ لا عائلة تدل عليه ولا مكان يُنسب إليه. ما يهمّ إذا قلتُ إنّني جون من مارسيليا، أو جان

مكتبة الفكر الجديد

من روان، أو باتريك من لندن أو من نيويورك، وبدون أوراق. أي اسم ومن أي مكان.

انشغل ذهني في كيفية تحقيق ما أرغب فيه، وتاه في الأسئلة. هل أريد فعلاً أن أخفي الهويَّة التي أحملها؟ لم أعد، في الحقيقة، أقوى على تجميع ملامح هذه الهويّة أو تشخيصها، بما في ذلك ثُقل العرج المصاحب لي. أسأل نفسي: فرانسوا أم ميشيل؟ لقد صرتُ أصدّق نفسي، حيناً أنّني من لندن، وحيناً آخر من نيويورك، أو من فلورنسا، أو من مارسيليا.

مع هذا، أقول مع هذا، لم أستطع أن أجد لكِ اسماً آخر غير شانتال، فهذا هو اسمكِ الحقيقي، أو أنّني أظنّه هكذا. ليكن اسمكِ شانتال؛ ما المشكلة؟ أمّا أنا فليكن اسمي لا أحد، I am nobody، ولكن حتى هذا اللا أحد يعتبر شيئاً موجوداً وأنا لستُ أكثر من شيء. لأُدْعَى: أيّ شيء.

"أنا أيّ شيء" قلتُ مجيباً على سؤال موظف فندق كريسنت بالتواهي عن هويُتي؛ لكن هذا الاسم لم يُقبل، وأمضيت ما يقرب من ساعة أحاول تثبيته، أو على الأقل قبوله للتسجيل في دفتر الفندق لأنام فيه، بدون أن يصحب هذا الاسم بطاقة هويَّة أو جواز سفر أو أيّة ورقة.

في السفينة سمعتُ حديثاً عن الفندق. اكتفيت بحفظ اسمه ولم أصغ إليهم جيّداً وهم يتحدّثون عن طرازه المعماري.

قلت لعمّال الاستقبال الذين تحلّقوا ليعرفوا مشكلتي: اسمي أيّ شيء، أنا أيّ شيء وكفى. لكنّهم لم يتفهموا. أحدهم، بدا من ملابسه أنّه هنديّ، ابتسم وطلب مني جواز سفر؛ كان يظن، ربّما، أنّني ثمل.

مكتبة
الفكر
الجديد

بقي واثنان آخران، بملامح أوروبية وأفريقية، يوجّهون لي الكثير من الأسئلة ويتناقشون فيما بينهم، وفي الأخير تدخلت الفتاة، التي كانت قد وصلت لحظتها، بإلحاح أشعرني أنني قُبلت. بالتحديد، ليس الفندق هو من قبلني، وإنّما عميلته الصغيرة التي أخذت بيدي إلى المكان الذي صرتُ فيه.

انتبهتْ إليّ فور مجيئها وانا أقول لعمّال الاستقبال إنّ اسمي أيّ شيء. أقبلت نحوي وهي تمدّ يدها لمصافحتي وتقول: Salut, bien sûr, vous êtes Français. تحيّتها لي بالفرنسية، وقولها بأنّني فرنسي، مع عبارة بدت عربيّة، لم تحفّزني على إضافة أي كلمات أخرى سوى: أيّ شيء. نطقتْ بكلمات عربيّة لم أفهمها، قبل أن تضع يدها اليمنى على صدرها وتضيف بالفرنسيّة: je m'appelle Mama. بدت متفهمة، إلاّ أنّ إدارة الاستقبال لم تستجب لمسعاها ووساطتها لأن يقبلوني بدون أوراق هويّة، ولو في غرفة على السطوح بجوار المطبخ، كما اقترحت عليهم.

"Suivez-moi ..." قالت مشيرةً إلي أن اتبعها. أخذت حقيبتي الصغيرة من يدي لتساعدني في حملها، بعد أن لمحتني أعرج.

ظننتُ، وربّما ظنّتْ إدارة الفندق أيضاً، أنّها ستأخذني إلى فندق آخر، لكنّها ما إن فارقت المكان قليلاً حتى نادت رجلاً أسمر وطويلاً، كان يقف بجوار سيّارة مرتفعة، وحدّثته بلغة لم أفهمها. ربّما طلبت منه أن ينقلنا إلى مكان آخر. حملنا الحقيبة إلى فوق السيّارة، وطلبت مني أن أصعد إلى جوارها خلف السائق الذي أوصلنا إلى حيث استلقي الآن وأنا أكتب.

مكتبة الفكر الجديد

كنتُ حلماً

"بونسوار مسيو أَيِشيْ" قالت ماما، حين عادت إلي وهي تحمل بيدها مصباحاً زجاجياً مضاءً، اخفى نور القمر توهّجه. استغربتُ من اللقب الذي نادتني به، فراحت تفهمني أنّها تنطق ما اعتبرتُه اسمي: أيّ شيء، بلهجة عربية خفيفة.

كان الوقت مازال في أوّل الليل حين وصلنا إلى سطح المنزل، لكنّني كنتُ متعباً من السفر وفي حاجة للنوم.

لم نجد أحداً في البيت. شربت ماءً فقط، واعتذرت عن تناول ما قدّمته ماما من كيك وشاي. قلت لها: هل يمكن أن أنام؟ فهيّأت لي فراشاً وأخبرتني أنّها ستذهب وستعود حين استيقظ. "إذا رغبتَ في الخروج، ولم تعرف ترجع، قل لهم حافة صومالي بورا وسيدلونك إليها. هنا يسمّون الحيّ حافة" قالت.

لا أظن أنّني كنت سأنسى اسم الحي واشكال أكواخه الكثيرة المبنية من خشب وصفائح، باستثناء بيوت قليلة بُنيت من الحجارة، بطريقة غير مرتّبة، ولا تزيد على غرفة أو غرفتين، كحال البيت الذي وصلت إليه.

مكتبة الفكر الجديد

كنتُ مرهقاً وحسبتُ أنني سأنام ساعات طويلة، إلاّ أن ذلك لم يحصل واستيقظتُ بعد أقل من ساعة. أكلتُ الكيك اللذيذ مع الشاي البارد، وبقيتُ أحاول أن أكتب. كان القمر مكتملاً، والحَرّ أيضاً. حَرّ يزيد، طبعاً، عن الحَرّ الذي فوجئت به فوق السفينة، في البحر، قبل وصولي إلى عدن. ظننتُ ساعتها أنّني عرفت معنى آخر للظهيرة والصّيف والحَرّ. لم أدرك أنّني على موعد مع المعنى الأكبر للحَرّ، أو ما فوق الحَرّ ومعناه.

ظننتُ أنَّ ماما كانت تقصد وقت الصباح بقولها إنّها ستأتي إليّ حين أستيقظ، وليس أيّ وقت آخر.

"خرجتُ من المنزل وعدتُ سريعاً حين احسستُ انّك قد تستيقظ" قالت.

"استيقظتُ بسرعة".

"لم ترتح في النوم بسبب تغيّر الجو".

"لا، أشعر براحة".

دلّتني لأنزل عن السطح، على الدرَج الخشبية، إلى الحمّام. أرشدتني إلى كيفية استخدامه بوجود تنك مليء بالماء، ومغرفة بدت أنّها من بقايا عُلبة جبن أو سمن، كتلك العُلب التي في فرنسا، إضافةً إلى قطعة صابون رمادية مُختَلِطة بسمرة، تشبه لون بشرة ماما، احتواها شقّ في الجدار.

لم يكن هناك ما يسدّ باب الحمّام سوى ستارة بالية، خُيّطت من رقع قماش ملوّنة؛ رُبطت بعودين صغيرين في أعلى فتحة الدخول وأُسدلت إلى الأسفل، دون أن تحجب كل الزوايا الجانبية. حين

مكتبة الفكر الجديد

هممتُ بإزاحة الستارة، بعد أن أكملتُ الاغتسال، مدّت ماما يدها وناولتني بنطلوناً وقميصاً. "هذه ثياب خفيفة تناسب حرّ عدن".

أعدتُ ترتيب حقيبتي على السطح وأغلقتها، ثم نزلتُ ملبّياً دعوة ماما للخروج إلى كازينو البندر في كريتر. "أشهر كازينو في بَنْدَرْ عدن" قالت.

قبل الخروج، وفي الصالة المكشوفة السقف، ألبستني عباءة فضفاضة، رأيت مثلها على رجل أسمر في السفينة، وطلبت مني الانتظار. أخذتْ إناء خزفي مزخرف من جوار الباب، والتقطت إليه جمرات من موقد الفحم الذي كان يشتعل. قرّبتْ الإناء إليّ، وأخذتْ قطعة بُنّية يابسة من كيس حريري ووضعتها فيه، على الجمر. "باعد بين رجليك واستقم على المبخرة" قالت، وأبقتني على هذا الحال بضع دقائق، ثم ساعدتني على خلع العباءة.

شعرتُ، وأنا أخرج من عتبة الباب أنّني صرت برائحة مختلفة. بالأصح، صرتُ برائحة لأوّل مرّة. ألم أكن في يوم من الأيّام برائحة؟ كيف كان ذلك؟ لم أشمّ، ربّما، حتى رائحة البلوغ، أو عرَق الشباب، الذي سمعت عنه.

"هذي رائحة البخور العدني" قالت لي.

شغلتني الرائحة طوال الطريق إلى الكازينو. أحسستُ وأنا أتحدّث إلى ماما أنّني لم أعد ذلك الشخص الذي كُنته قبل ساعة النوم. لقد صرتُ برائحة، بل شعرتُ أنّ كلماتي، أيضاً، صار لها رائحة، وأنّ البخور يقاسمني إيّاها، أو أنّها صارت كلمات مُبخّرَة.

ستقول شانتال إنّني كتبت شعراً، ولم أسرد حالاً عشته.

مكتبة الفكر الجديد

بدا الطريق طويلاً إلى كازينو البندر، لكنّني استمتعت وأنا أمضي فيه مستمعاً إلى ماما. حدّثتني عن الشوارع والحافات التي نعبرها وأشهر البيوت والشركات التجارية فيها. بدت مخزناً من المعلومات مع أن عمرها لا يتجاوز السادسة عشرة. بين لحظة وأخرى كانت تشير إلى عرجي: "تعبَتْ رجلك".

أضافت: "علينا أن نتوقف". أكّدتُ لها أنْ لا شيء مؤلم بسبب عرجي. "سنختصر الطريق من مكان أقرب" قالت.

"تراءى لي شابٌّ في المنام قبل ستِّ ليالٍ من مجيئك. كان يركض وسط طلقات من الرصاص، فمددت إليه يدي، واحتضنته وبخّرته، ثم مشيت معه هنا في هذا الشارع".

"هل كان فرنسيّاً؟".

"لم أتحقق من ذلك. لم يكن هناك أيُّ كلام أو صوت سوى صوت الرصاص. فجأةً رأيتني، بعد أن بخّرتك، أمشي معك أمام محلّات البِس، ويدك ممسكة بيدي، هكذا مثل الآن". استغربتُ. "حين رأيتكَ أوّل مرّة، قلتُ لنفسي إنّك الشاب الذي تراءى لي، وإنّا مشينا، في المنام، أمام محلّات أنتونين بس Antonin Besse. يعني أنّك فرنسي" أضافت.

"لهذا كانت تحيّتكِ الأولى لي بالفرنسية...".

التفتت إلي وهي تبتسم، كأنّها تتحقق مما قالته، أو تؤكّد أنّني الشخص نفسه الذي كان حلماً.

أمام الكازينو توقفتْ لتصلح هندامها. أدخلت يدها إلى قميصها، وأخرجت علبة صغيرة وفتحتها. مرّرت شفتاها على حافة العلبة

مكتبة الفكر الجديد

لِيُصبّغا باللون الأحمر، ثم مدّت يدها إلى الأسفل لترفع طرف تنورتها. أغمضتْ عينيها ومسحت ببطانة التنورة الداخلية جوانب شفتيها، ضابطةً اتّساق خطوط اللون. بدت خبيرةً في ذلك، أو أنَّها مع إغماض عينيها قد جلبت مرآةً أو عيناً ثالثة غير مرئية ترى فيها ما لا يمكن رؤيته.

أعرف ماذا ستقول شانتال عن السطرين السابقين.

"لن يسمحوا لي بدخول الكازينو لو بدوت كطفلة. أنا الآن امرأة كبيرة، أليس كذلك؟" قالت ماما مفخّمةً صوتها وهي تضحك، فيما مضينا نحو الداخل بعد أن عرّفتني إلى من نادته أباها، عبد الله حارس الكازينو، الذي كان يبتسم وهو يراها تصبغ شفتيها. رفعت يدها ملوّحةً بتحيّات إلى كلّ مَن في الكازينو: "هالو، أهلاً، نَمَسْتي، شالوم، سالو"، فيما ردّ معظمهم عليها بعبارات إنجليزية. بدت تعرفهم، جميعاً، وهي تقدّمني إليهم، باستثناء امرأة صامتة بملامح أوروبية، كانت غير مبالية بمن حولها، تجلس في زاوية وحدها، وأمامها على الطاولة كأس غامق اللون لا يعرف، ربّما، سوى النادل وهي ما في داخله. تصف ماما مَن تقدّمهم إلي بآبائها وأمهاتها وإخوانها وأخواتها، أمّا معظمهم فهم بنو عمّتها وخالتها، دون أن تكون هناك من تدعوها عمّة أو خالة. كانت تبدو حميمية في علاقتها معهم، حتى اعتقدت أنّهم أقرباؤها فعلاً؛ بمن فيهم أولئك الذين لا تطلق عليهم أي صفة قرابة معها. بل بدا هؤلاء، مع رفعها عنهم هذه الصفات، أكثر قرباً إليها.

طلب كثيرون أن نجلس إلى طاولاتهم، لكن فرانسيسكو كان

مكتبة الفكر الجديد

أكثر إلحاحاً بطلبه، فما إن قالت له ماما إنّني قدمت للتو من فرنسا، حتى هيّأ لي مقعداً إلى جوار الطاولة التي يجلس أمامها اثنان آخران. راح، بسرعة، يسألني عن الحرب وأجواء الحرب وآراء الناس حولها. لم يكن ينتظر أن أقوم بالإجابة على كل سؤال، بل يبادر هو نفسه بالإجابة، مع لعنات لا تحصى، يتبعها أي اسم يذكره: هتلر اللعنة عليه، ماسوليني اللعنة عليه، روزفلت اللعنة عليه، ديغول اللعنة عليه، بيتان اللعنة عليه، تشرشل اللعنة عليه، ستالين اللعنة عليه، روميل اللعنة عليه، نابليون اللعنة عليه. نبّهته إلى أنّ نابليون قد شبع موتاً ولم يعد هو مَن يقود جيش فرنسا. "إذن اللعنة عليكَ أنتَ" قال ضاحكاً وهو يرفع كأسه ويوجّهه نحوي: "في صحّتك". وإذْ اكتشف عدم وجود كأس أمامي، لأرفعه مقابله، أدار يده المرفوعة إلى الخلف، حيث لا أحد غير الجدار، وقال بنبرةٍ غاضبة هذه المرّة: "في صحّة الحرب البعيدة".

كانت لعناته على بعضهم لأنّهم لا يعجبونه، وعلى بعضهم الآخر لأنّهم لا يؤدّون أدوارهم في الحرب ضد من لا يعجبونه. وقد اختلطت المسألة عندي ولم أعد أعرف مع مَن يقف وضد مَن.

بقيت ماما تتنقل بين الطاولات، لترجع بين لحظة وأخرى ومعها بعض روّاد الكازينو، من الذين وصلوا بعدنا، لتعرّفني إليهم. كانت تشير إلي لأبقى جالساً ولا أتعبَ عرجي بذهابي إلى حيث يجلسون. صبغها لشفتيها قبل دخول الكازينو لتظهر بعمر أكبر من عمرها كان احتراماً، ربّما، لتقاليد وقوانين المكان، ليس إلاّ. فقد بدت بتحركاتها في الداخل، وبمحاوراتها مع عمال الكازينو، كأنّها سيّدة المكان بلا

مكتبة الفكر الجديد

منازع. وقد عادت إليّ مع عاملة الكازينو التي كانت تحمل كأساً زجاجية طويلة فيها عصير. "شراب الزعفران البلدي. اخترته أنا لك. بعضهم يسمّونه حشيشة القلب أو خمرة الشيطان" قالت وجلست بجواري.

لم يتح لي فرانسيسكو التعرف أكثر إلى الشخصين الآخرين الجالسين بجواري. لم أنتبه إلى ما قالته ماما عنهما أثناء وصولنا. بقيا يتحاوران بصوتٍ خفيض، غير مباليَين بحديث فرانسيسكو إليّ.

قالت ماما: "هل سمعتم آخر خبر؟"، فالتفتنا إليها جميعاً، ومع التفاتنا بدأت مرحلة أخرى من السهرة، كفّ فيها فرانسيسكو عن ثرثرته، وبدا غير مبالٍ حتى بآخر خبر وصل، وكان عن الحرب التي بقي يحدّثني عنها منذ جلوسي إلى جواره.

لم أكن قد ألفت الاسم الذي تقدّمني به ماما إلى الآخرين. استذكرته حين طلب منها أحد الجالسين بجوارنا أن تعرّفني إليه أكثر. قالت له: "أيثيْ من فرنسا"؛ فمدّ يده ليصافحني بحميمية هذه المرّة. "أبو الفضل من لَحْج. نسمّيه نحن الأمير" قالت. "ولا أمير ولا شيء. هذا من لطفك فقط" ردّ عليها. "وهذا وليم، من بريطانيا. لن أقول ماذا نسمّيه نحن، لكي لا ينكر كأبي الفضل" أضافت وهي تشير إلى الجالس بجواره. "أمّا فرانسيسكو فهو رجل أعمال شهير شهير، من إيطاليا" قالت ضاحكةً وهي تشير إلى من كنتُ قد عرفته.

مع سماعي أحاديثهم، بقيتُ أتفحّص ملابس أبي الفضل، بعمامته ومئزره الملونين وقميصه الأبيض المُخطّط. رغبتُ في

مكتبة الفكر الجديد

السؤال عن لَحْج التي يلبسون فيها مثل هذه الملابس المضاءة بالوانها الفاتحة وخطوطها اللامعة، والمحاكة بأشكال فنّية، تتناغم مع طريقة لبسها. لكنّي لم أفعل. كنتُ أتهيّب الأسئلة عن أيّ شيء. لا أدري لماذا هذا الإحساس بالغربة الذي ينتابني بين وقتٍ وآخر، مع أنّني ما إن وصلت عدن، ورأيت ماما، حتى شعرت أنّني قد تركتها هناك في فرنسا، أو رميت بها إلى البحر من على السفينة التي قادتني إلى هنا. هذا الشعور بالرغبة في التخلص من الغربة، أو من سطوتها الكثيفة، على الأقل، وقد استعدته لحظتها، حفّزني لأسأل: "أين لَحْج؟"؛ ليبدأ أبو الفضل حديثه عن السلطنة القريبة من عدن، عن مزارعها الواسعة ومنتوجاتها من الفواكه والفُل والكاذي، عن أزيائها ورقصاتها وغنائها، ثم عن سلاطينها. حاول، أثناء حديثه، أن يتهرّب من إشارات ماما إلى وجود علاقة تربطه بأمراء سلطنة لحج، لكنّه لم ينكر هذه العلاقة. وإذ تعالت أصوات صاخبة مرحّبة بقادمين جدد إلى الكازينو، اكتفى بدعوتي لزيارة لحج في الوقت الذي يناسبني. بدا أنّ الكثيرين يعرفون من القادم في السيّارة التي سمعنا هدير ماكينتها أثناء وصولها وتوقفها أمام الكازينو.

التفت الجميع إلى الباب مترقّبين، فيما كان أبو الفضل مهتماً بتحريك إبريق خزفي أمامه. قام بوضع فنجان أمام فتحته بعد أن انحاه، وسكب بعضاً مما فيه دون أن يظهر لي ما الذي سكبه. انتبهتْ ماما إلى نظراتي نحوه، فغمزت بعينها وهي تبتسم. طلبتْ مني بإشارتها أن أحوّل عيني إلى مدخل الكازينو، حيث كانت امرأة شابّة قد وصلت وبجوارها أربعة أشخاص. "هذه شمعة... المغنّية

مكتبة الفكر الجديد

شمعة... المشهورة بشمعة اليهوديّة... أنت محظوظ... اليوم هو يومها الأسبوعي للغناء" قالت، وراحت تستقبلها وتسلّم عليها.

بدت شمعة في الثامنة والعشرين من عمرها، أو أقل. تلبس زيّاً شفّافاً له ألوان قرمزيّة وبرتقالية، وزّعت عليه رسوم هندسيّة، شُكلت بخيوط فضّية، فيما تتنوع أزياء الأشخاص الأربعة بين الألوان الهادئة واللامعة.

أشارت إليّ ماما بيدها، وهي تتحدّث مع الفنّانة، ثمّ سرعان ما قدمت معها باتجاهي. لم أتردّد في الخطو نحوهما، متحمّلاً العرج المُحرِّك بالحذاء الخشبي.

صافحتني شمعة مع ابتسامة حميمة؛ وفيما كادت ماما أن تنطق بتعريفي المعتاد، قلتُ: "ميشيل من فرنسا". التفتت ماما إليّ مندهشةً وهي تقول: "أهلاً... أهلاً"، وكأنّها تعرّفت إلي للتو، قبل أن تضيف، مشيرةً إلى القادمة: "وهذه الشمعة الشهيرة، التي لا يحتاج ضوءُها إلى تعريف". والتفتت إلى القادمين الأربعة الآخرين. عرّفتني إليهم واحداً واحداً، بصفتهم مغنّيين، مشهور كل واحد منهم بأداء لون أو لونين من الغناء، ثم رحنا لنجلس.

"ها أنا عدتُ إليكم مع ميشيل. عدتُ مع ميشيل" قالت ماما حين رجعنا إلى طاولتنا، في اللحظة التي مضت فيها شمعة ومعها الفنّانون إلى دكّة، مرتفعة قليلاً، في زاوية من الكازينو. أعادوا الثلاثة ترحيبهم بي للمرّة الثالثة، وكأنَّ الاسم الذي سمعوه من قبل كان لقباً، أو أنّهم، ربّما، ظنّوا أنَّ آذانهم لم تسمع جيّداً الاسم الغريب.

مكتبة الفكر الجديد

"كانت شمعة قد بدأت تغنّي هنا أربع ليالٍ في الشهر. كلّ ليلة تخصّصها إدارة الكازينو لأتباع قومية أو ديانة من الديانات" قالت ماما. "لكنّها لم تستمر ورفضت هذا التقسيم. الآن صارت تغنّي للجميع كلّ ليلة خميس" أضافت.

"التقسيم عُمل به بعد حفلة حدث فيها صخب وعراك بين الحاضرين. طلب عدد منهم من شمعة أن تغنّي أغاني عبرية، فاعترض آخرون وطلبوا منها أن تغنّي بالعربية"، قال وليم ولم يكمل، إذْ رأى فرانسيسكو يفتح فمه ويرفع يده ليقول: "كلّ ليلة كان لها طابع أغاني معيّنة، حسب ديانات أزواجها الأربعة". انتبهتُ لعبارته. حرّكتُ راسي وأشرتُ بيدي مستفهماً. "أعني، ثلاثة منهم كانوا أزواجها. الآن هي بلا زوج" أوضح، واشار إلى واحد منهم، كان يجلس على مقعد خشبي، أمامه تنك ملوّن وفوق فخذه آلة موسيقية وترية: "يقال إنّها ستتزوّج هذا، لكن اليهود لن يقبلوا به لأنّه مسلم". انتبهتْ ماما، لتضيف: "اسمه وَلْدْ تَقِيّة ويدعونه هاي هتلر. صوته جميل ورائع. كان يجلس دائماً في ميدان كريتر يغنّي أغاني شعبية أو قصائد من الشعر العربي القديم، مع معزوفات على التنك والصحن. فاستقطبته شمعة ليغنّي في فرقتها وطلبت من الفنّان الكوكباني أن يعلّمه العزف على العود".

لم تقل لي لماذا يدعونه هاي هتلر، وأرادت أن تحدّثني عن المغنّي خان، الذي كان لحظتها، هو الآخر، يضبط آلته الموسيقية، لكن الوقت لم يتح لها، إذْ سرعان ما بدأ صوت شمعة يتلو ما يشبه صلاة، دون مصاحبة من الآلات الموسيقية، تنتهي عباراتها بكلمة

مكتبة الفكر الجديد

"كَادِيشْ". تلتها لحظة صمت مطبقة، لم يُسمع فيها أيّ حركة، عادت بعدها لتغني:

صور منوثي وحمدات
هيلاجي صور منوثي
صور منوثي وحمدات
هيلاجي.

أحسستُ برعشة في جسدي وأنا أسمعها تغنّي لأوّل مرّة؛ بالأصح، بدا لي أنّ كلّ ما حولي يرتعش: الجدران، الطاولات، الكراسي والناس، بما فيهم المرأة الصامتة. مع هذا لم أشعر أنّني منفعل، إذْ سرعان ما أخذتني الرعشة إلى حال من التمايل، صرتُ معه أرى الجميع يرقصون، مع أنّهم كانوا جالسين؛ كأنّها رقصة غير مرئية؛ كأنّهم يحلّقون بعيداً مع الأغنية، وما يُرى منهم مجرّد رموز لأجساد كانت. **ماذا ستقولين يا شانتال؟**

لم أعرف معاني الكلمات، ومع هذا حفظتُ ما كانت تكرّره من عبارات، بشجن وتأثر ظاهرين على وجهها؛ بلغا أوجهما حين أخذتْ، بحركة سريعة، التنك من أمام هاي هتلر وراحت تعزف بإيقاع خفيف منسجم مع أنغام صوتها.

يا لهذه اللحظة في حياتي. تمنّيت أن تأخذني ماما إثرها فوراً وتعود بي إلى الهواء الطلق، لنمشي، صامتين، في الشوارع التي جئنا عبرها إلى الكازينو. آه، لو أحتفظ بهذه اللحظة وإلى الأبد. لكن ماما

مكتبة الفكر الجديد

لم تبادر بطلب المغادرة، ووجدتُني فجأةً أمام شمعة، أنحني لصوتها وأقبّل يديها بشغف. لا أعرف كيف تجاوزت ثقل العرج ومضيت إليها. قبّلت جبهتها وخدّيها، ثمّ قبّلت الهواء الذي يفصلني عنها، كأنّني كنتُ أرسل قُبلةً لكلّ جسدها، للمواضع التي لم أقبّلها فيها. كأنّني كنتُ أقبّل صوتها الذي هو كلّ جسدها، الذي هو كلّها.

هل أربكتُ غناءها وقطعتُ سياقه؟ تنبّهتُ إلى ذلك وأنا أرى ابتسامات الحاضرين والموسيقيين وهم ينظرون إليّ. لكنّ ماما أشعرتني بغير ذلك، إذ بدت، حين عدت إلى جوارها، بابتسامة أكثر حميميةً وأكثر قرباً وتوحّداً بي، حتى شعرتُ أنّني بين أغنيتين، لا مثيل لهما، شمعة وماما؛ بين أغانٍ كثيرة أخرى، موزّعة على قاعة الكازينو، بما فيها تلك الأغنية المكتومة التي احسستُ أنّني صرتُ اسمعها من المرأة الصامتة في الزاوية.

بعد هذه التراتيل، التي انفرد صوت شمعة بأدائها، اندمج الفنّانون الأربعة معها لأداء أغنية مرحة وراقصة، فيها عبارات وكلمات عربية، هندية، عبرية وإنجليزية. ومع تفاعل الحضور بتصفيقهم وضحكاتهم، بقي العازفون يتسابقون من أجل حفظ هذا التناغم اللغوي على المستوى اللحني. فيما بقيتُ أحاول أن أبرهن لنفسي أنّني لستُ في حال يشبه الحلم، بل في حلم يشبه الحقيقة. ألستُ حلماً من أحلام ماما؟ كنتُ حلماً، فتراءتني لأصير حقيقة، وها هي حقيقتي تتكشّف كحلم.

"هذا هو الحلم الذي رأيته في المنام قبل أسبوع"، هكذا قدّمتني ماما إلى أسرتها، حين عدنا من كازينو البندر إلى سطح المنزل، حيث

مكتبة الفكر الجديد

كانوا قد سبقونا إليه، وصاروا على وشك النوم، بعد أن وزّعوا فُرَشهم على المساحة المنعطفة من فوق الغرفتين إلى سطح الحمّام.

عبر درجات خشبية، عريضة وسميكة، يُصعد إلى السطح، من إحدى الزوايا الأربع الداخلية، حيث الجدار المستطيل، المقدّر ارتفاعه بسبعة أمتار، يحيط بمساحة الصالة المكشوفة السقف والغرفتين المتجاورتين، محتوياً في الجانب الآخر منه حمّاماً صغيراً، تقابله فتحة الباب، وفي القرب منها موقد وتنّور ترابي وصحون للطبخ رُصّت على الأرض بجوار أكياس صغيرة، تخرج منها روائح بهارات، وأخرى تنافرت بجوارها حبوب غبراء صغيرة.

الأب، واسمه فارح، بدا في الأربعين. أمّا الأم، الجالسة على فراش بجواره وتدعى حوّاء، فبدت أقل منه عمراً بسنوات. ابنهما جامع وبنتهما حلاها يبدوان ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة.

لم يعد جواب ماما على سؤالي عن علاقتها بهذه الأسرة مجهولاً لي، فإذا كانت قد أطلقت صفات القرابة على كلّ من في الكازينو، فإنّ هؤلاء سيكونون الأكثر قرباً إليها، بمن فيهم ابن أخت الأم، الجالس على فرش، في طرف آخر من السطح. "هذا ميجي، ابن خالتي، لاعب كرة القدم الشهير" قدّمته ماما، وكان في عمر يتجاوز العشرين بقليل.

"أيْشِيْ من فرنسا" قالت لهم وهي تنظر إلي وتضحك، لكنّها سرعان ما أضافت: "ميشيل، ميشيل من فرنسا".

جميعهم قاموا ورحّبوا بي كأنّني فرد من الأسرة كان في غربة وعاد. عجّلت البنت حلاها بإضاءة ما أسموه النوّار. كان القمر كافياً

مكتبة الفكر الجديد

ليظهر لي سحناتهم السوداء وأجسادهم النحيلة.

ملامحهم تكاد تشبه ملامح منليك الأثيوبي، عامل المقهى القديم في شارعنا بباريس. هم مثله، أنوفهم مستقيمة ووجوههم مستطيلة، ولكنّهم يبتعدون عن سمرته بسواد له بريق لامع. لقد صار من المؤكد عندي أنّهم ذوو أصول صومالية، وقد قادني اسم الحي الذي يسكنونه إلى هذا الاستنتاج مع أول خطوة لي فيه. ماما، وحدها، بدت بعيدة عن السواد، إذ تكسو ملامحها سُمْرَةٌ لافتة.

يتحدّث ميجي، وقد بدا مرحاً، بالإنجليزية بشكل جيّد، فيما لم أستطع ان أستمع إلى حلاها وجامع بوضوح. الأب والأم ظهرا أنّهما يجيدان خلق حوار مفهوم، إلى حدٍّ ما، بعبارات قليلة يحفظونها من هذه اللغة. وقد قامت ماما بترجمة بعض العبارات التي لم يفهماها إلى الصومالية. لكنّها لم تستمر كثيراً، فسرعان ما راح الأب والأم، ومعهما جامع وحلاها، في نوم عميق ليتركا لنا، نحن البقيّة، فرصة التكلّم بلغة واحدة، في حديث متبادل، عن كلّ شيء، لم يوقفه سوى صوت رجل حزين وواهن وصل إلينا من مكان في الجوار، قالا إنّه أذان صلاة الصُبح.

مكتبة الفكر الجديد

خيار الآخر

لم يكن أمام فرانسوا من خيار آخر سوى ما قام به. لقد صار شاباً في نظر الجميع، وعليه أن يلتحق بقوات المقاومة ليؤدّي واجبه نحو الوطن. الجميع رأوا ذلك ولا مجال للنقاش. كان يمكن أن يقتنع واحد أو اثنان بكلامه عن كرهه للحرب، عن عدم قدرته على أن يحمل سلاحاً، لمجرّد الحمل، أو أن يساعد أناساً يحملون أسلحة ويقتلون [هو يقول: يقتلون، وهي كلمة يجدها أوضح في تعبيرها من: يقاتلون]؛ لكنّه لم يجد من يساند تذمّره تجاه كلّ ما له علاقة بالوطن.

هل كان عليه أن يتخيّل نفسه وهو يوجّه الطلقات إلى جنود في الوجهة الأخرى، جبهة العدو المحتل، كما يصفونها، ليقتل العديد منهم بتمكّن مُدرّب استوعب جيّداً دروس فرق المقاومة المسلحة وتدريباتها قبل أن يُرسل إلى الجبهة؟ ليس بالضرورة أن يقوم بهذه المهمّة ليشعر بهذا القرف. فإذا كان لا بدّ أن يتبع خيار الحرب فإنّهم قد يكلّفونه بمهمّة أخرى. ربّما سيحسّون بتقاعسه عن المشاركة في القتال، وسيختارون له مجالاً آخر، كالتمريض. مع أنّ الفتيات

مكتبة الفكر الجديد

المتطوعات كثيرات في هذا المجال، ومنهن أخته. ربّما سيحتاجونه في الطبخ، أو في سواقة السيارات، أو أي خدمات حربية أخرى غير القتال، أو القتل، حسب قوله.

لقد بدا واضحاً، مع كلّ هذه الاحتمالات، أنّه لن يَقبل، في أي حال من الأحوال، أن يكون مشاركاً في الحرب، كما أنُه لن يؤدّي خدمات مساعِدة، عن بعد أو عن قرب، في سبيل ذلك. لكن كيف أجاز لنفسه أن يقول إنّه لن يقبل ولن يؤدّي؛ كيف أجاز أن يقرّ برفضه هذا، وإن كان رفضاً لم يعلنه سوى لأصدقائه. ألم يسمع الجميع يردّدون حوله: إنّه الوطن؟

لا صوت يعلو فوق صوت الوطن؛ هو الشعار الجامع للجميع، والجميع ينصتون جيّداً لصوت الوطن، والوطن يوجّه الجميع: إلى الجبهة سِرْ.

لم يقل الوطن غير ذلك. الجميع يؤكدون. لكنّه هو لم يشعر بهذا القول، وإن سمعه من الجميع، أو أنَّ الوطن، الذي في داخله قال له غير ما قال للآخرين. أليس لكل واحد وطنه المختلف؟ هو لم يشعر بأنَّ الوطن قد طلب منه أيّ شيء، كما طلب من الآخرين، وكأنَّ لم يعد هناك ما يجمع بينهما. كأنَّه لم يعد وطنه، أو لم يعد هو ابن الوطن الذي كان يردّد نشيده كلّ صباح في ساحة المدرسة.

بالنسبة لميشيل، فإنَّ المسألة عنده لم تكن تتقبّل أيّ نقاش: وطن أو لا وطن، وفاء أو خيانة، وطنيون او عملاء، حياة أو موت. لهذا ذهب، وهو الأعرج، الزائدة رِجله اليمنى بطول سبابته عن الأخرى، إلى النجار ليركّب له كعباً خشبية في باطن الفردة اليسرى

مكتبة الفكر الجديد

لجزمته الجديدة، لتبدوا رجلاه متساويتين، وجاهزتين للانخراط في المقاومة. للقتال بشراسة، إلى جانب صفوف الوطنيين؛ من أجل تحرير تراب بلده الطّاهر من دنس الغزاة الأعداء؛ من أجل هوائه وسمائه وشعبه، ومن أجل حفظ حدوده المقدّسة، مقدّماً في سبيل ذلك أي ثمن، ولو كان حياته.

استصدرت أمّه وثيقة طبّية عن عاهته الجسدية لتحول دون مشاركته في أي عمل خدمي شاق أو عسكري، إلاّ أنّه رفضها، وأعتبر تأكيد الوثيقة على عجزه إهانةً مضاعفة له، يحرمه من أداء الواجب، وأيّ واجب أكبر من واجب الوطن؟

تحدّث ميشيل إلى فرانسوا، زميله في الطفولة والدراسة، عن ماذا يعني الواجب وماذا يعني الوطن، وكأنّه لم يُلقَّن معه الكلمات نفسها في فصول الدراسة التي جمعتهما.

كانت أمه قد وسّطت فرانسوا، صديقه الأقرب إليه، ليقنعه بأن يلبّي أحد الخيارات الأخرى التي قدمتها إليه، ومنها السفر إلى عدن، حيث يعمل زوج خالته موظفاً في شركة أنتونين بِس، لكنّه بدا أنّه لن يتراجع عن ما صمّم عليه، وإذ وضع الوثيقة الطبية وأوراق السفر الجاهزة في الخانة السفلى لدولاب ملابسه، إلى جوار جواربه القديمة، تمنّى فرانسوا أن يكون هو، أن يكون ميشيل ولديه مثل تلك الأوراق التي تعفيه من الذهاب إلى جبهة الحرب، بل وتمنحه أيضاً فرصة السفر إلى هناك، إلى عدن، بعيداً عن الحرب.

صار موقف ميشيل مثاراً بأسئلة مقلقة لدى فرانسوا، فكيف لصاحب جسم معاق أن يصمّم على المشاركة في واجب تحرير

مكتبة الفكر الجديد

الوطن، مهما كانت دوافعه، فيما هو صحيح الجسم والمعافى لا يشعر بهذا المسمّى: الواجب الوطني؛ أليس هناك من طريق آخر، من معنى آخر للواجب والوطن؟

لم يفكّر فرانسوا بإيجاد المعنى الآخر، أو في البحث عن طريق آخر، غير ذلك الطريق الذي بدا وكأنّ لا طريق أمامه سواه: تسلّق سور منزل أسرة ميشيل، الذي لا يفصل بينه وبين منزل أسرته سوى أربع بيوت ومنعطف صغير، والحصول على ما أراد أخذه من هناك.

وكما خطّط من قبل، وجد نفسه، أثناء تناول الأسرة العشاء، يتسلّق الجدار المؤدّي إلى نافذة غرفة ميشيل في الطابق الثاني، مستعيناً بماسورة المياه الممتدة في جانب من الجدار.

بعد أن انحنى وفتح الدُّرْج السفلي لدولاب الملابس، في وسط الغرفة، وأخذ منها الأوراق التي يعرف أهميتها جيّداً، انتبه، وهو يرفع جسمه، إلى صورة ميشيل المرسومة بألوان زيتية، معلّقة فوق رأس السرير. هزّ رأسه وفتح عينيه على اتّساعهما، وكأنّه اكتشف في الصورة شيئاً لم يتوقّعه. وإذْ همّ بأن يخطو نحو النافذة ليعود من حيث جاء، فُتح باب الغرفة فجأةً ورأى نفسه مع ميشيل وجهاً لوجه. ارتبك ولم يعرف ماذا يعمل: أيهرب أم يستسلم؟ لم يتح ميشيل فرصةً له غير الاستسلام لكلماته: أعرف لماذا جئت وماذا أخذت؛ توقّعت منك ذلك؛ ولكن هل توقّعت أنت ما أريده أنا؟.

نعم، توقّعت. قال له بعد لحظة ارتباك، وأخرج من جيبه بطاقة السنة الدراسية الأخيرة التي بدت كافية لميشيل ليتقدم بها إلى فرقة

مكتبة الفكر الجديد

المقاومة المسلّحة بصفته فرانسوا الصحيح لا ميشيل المعتل الحاصل على وثيقة تعفيه من المقاومة. هو يعرف أنّهم، مع الحرب، لا يدققون في الوثائق، ويهمهم إيجاد رقم، فقط.

هل كان فرانسوا يقصد حين حمل بطاقته الدراسية أن يبادلها كدليل هويّة بأوراق ميشيل أم أنّه كان يحملها كشيء اعتاد عليه في الأيّام الأخيرة، لعلّه يجد مخرجاً لا يعود بعده إلى المنزل فيسمع أباه يزجره ويحثه على الذهاب إلى الجبهة لأداء الواجب الوطني؟

لقد فكّر مرّةً أن يلتحق بالمقاومة، ليس اقتناعاً بالواجب وإنّما هروباً من توجيهات أبيه وثرثرته طوال اليوم مع مرتادي مقهاه، عن الحرب ومساراتها.

الحرب، عند أبيه، لم تكن حدثاً عابراً، او حدثاً مهمّاً باقياً ومؤثراً، كما هي عند الآخرين. لقد كانت الحرب، بالنسبة إليه، هواية، وإن كان يمارسها من بعيد، مثل الهواة الآخرين، غير المحترفين ما يهوونه، كهواة الغناء والرقص أو عشّاق مشاهدة المصارعة الحرّة. كان حثّه على أداء الواجب الوطني يبدو ذريعةً ليشارك ابنه في الحرب؛ مع هذا فرغبته لا تنتهي عند هذا. فالحرب ربّما تكون ذريعةً، هي الأخرى، ليتخلّص عبرها من هذا الابن، فرانسوا. هل هو فعلاً يريد التخلّص منه؟ لم يعد يطيق التعامل معه، منذ أن بلغ سن المراهقة. مع أنّ فرانسوا لم يكن فوضوياً كالآخرين الذين بلغوا السن نفسها، لكنّه، أيضاً، لم يكن طيّعاً في المستوى المطلوب. كان أبوه يريده كالدمية الصامتة، يحرّكه في أي اتجّاه، فيما الابن بدأ، أحياناً، يغفل إرادة أبيه، فيتأخر عند أصدقائه إلى وقت متأخر من الليل، يشرب

مكتبة الفكر الجديد

معهم النبيذ ويشاركهم التسكع عندما يخرجون من الحانات مع الفتيات. كان هذا بالنسبة لأبيه معصيةً لا تطاق، أو جحيماً يشعر به كلّما ادرك أنّ ابنه قد افلتَ منه ولم يعد بوسعه أن يتدارك الأمر. هل صار من المؤكد لفرانسوا أنّ الواجب الوطني ذريعة إلى الحرب، والحرب ذريعة لخلاص أبيه منه باعتباره جحيماً؟ أكان جحيماً بالفعل؟

وماذا عن ميشيل، أي ذريعة تقوده؟ هل كان صادقاً وهو يتحدّث عن الوطن والمبادئ الوطنية، أم أنّ ذلك كان ذريعةً ليبرّر رغبته في الذهاب إلى جبهة القتال؟

ما بدا لفرانسوا، وهو يستمع إليه، أنّه كان يريد أن يذهب إلى الحرب سواء بسبب أو بدون سبب. ربّما أراد أن يخون عرجه، أو ان يتخلّص من حياته العرجاء. ألم يقل له: لو أنّي صحيح الجسم لما كنت سأتحمس للذهاب إلى الحرب؟ هل كان صادقاً وهو يقول ذلك أم أنّه كان يريد أن يخدع فرانسوا، صحيح الجسم، بقوله هذا ليسلّم له بطاقته الدراسية فيستخدمها هويّةً بديلة تؤكد أنّه صالح للحرب، وغير عاطل عن الحياة؟ إذ بدت الحرب عنده هي الحياة، أو دليلها، أمّا الوطن فواجب، أو أنّه واجب الواجبات التي يقوم بها الوطنيّون في كلّ حياتهم.

أخرج ميشيل شهادة ميلاده من حقيبة مدرسية قديمة كان قد وضعها تحت سريره، وراكم فيها شهادات التقدير الحائز عليها في نهاية كل فصل دراسي، إلى جانب شهادات التحصيل والنجاح التي يعيدها إلى أرشيف المدرسة مع بداية كلّ عام جديد؛ لكنّه، قبل أن

مكتبة الفكر الجديد

يناول صديقه الشهادة، طلب منه أن يجلس إلى جواره على حافة السرير، ليتناقشا حول موقفيهما.

أعاد ميشيل حديثه عن أهمّية التضحية في سبيل الوطن، بكلّ شيء ولو بالروح، إلاّ أنّه، بين لحظة وأخرى، كان يتنبه إلى ما يقوله خشية أن يؤثّر كلامه على صديقه، فيذهب إلى الحرب ويتركه هو المعتل مع إحباطه. لهذا حرص أن يضيف: هذا قرارك في الأخير، في عدم المشاركة في الواجب الوطني، وأنت حرّ فيه.

مكتبة الفكر الجديد

عمر هارب

كانت فرصة بالنسبة لي أن أجد عملاً. قالت ماما إنَّ شركة أنتونين بس A.Besse-co. Aden Ltd نشرت إعلاناً عن الحاجة إلى موظف يعمل مشرفاً على العمّال، شرط أن يجيد اللغة الإنجليزية نطقاً وكتابة، وأن يكون لديه إلمام باللغة العربية.

طلبتُ من ماما أن تبحث لي عن مدرّس يعطيني دروساً مكثفة باللغة العربية، مع أنّي أعرف أنّني لن أستطيع تحصيل المطلوب فيها خلال الشهر المحدد لاستقبال طلبات التوظيف. "موجود، أبي العارف، ولكنّه بعيد، في العيدروس، بكريتر" قالت، ولم تجد بديلاً منه، إذ قرّرتْ أن تأخذني إليه، في ذلك الوقت الحار من الظهيرة. "إذا لم يتح لك الوقت للحاق بوظيفة شركة البِس فدراستك للعربية ستنفعك في وظائف قادمة" قالت، ونادت شخصاً اسمه نوح في البيت المجاور. "أين جاري خيل خذنا إلى أبي العارف" قالت للشاب الأسود النحيل. مشينا معه قليلاً إلى جوار أخشاب رُبط خيل إلى إحداها. فكّ الحبل وربط عربة خشبية بعجلات إلى الخيل. أشارت إلي أن أصعد إلى جوارها خلف السائق الذي وجّه بعصاه

مكتبة الفكر الجديد

الخيل ليتحرّك. لا أدري لماذا لم تختر إحدى سيّارات الأجرة الواقفة في طرف الشارع المقابل بدلاً من وسيلة النقل القديمة هذه، مع هذا شعرتُ بمتعة وأنا أركب ما أسمته جاري خيل، المشابهة لتلك التي قرأت عنها في القصص ورأيتها في الرسوم.

"شرط الإلمام باللغة العربية صار معمولاً به في بعض وظائف الشركات التي تتعامل مع العمّال العرب. إجادة الإنجليزية شرط أساس لدى الكل" قالت ونحن نجتاز بوّابة عدن. رأينا منارة بدون مسجد. "ربّما كان فناراً للسفن قبل أن تزحف اليابسة في اتجاه البحر" قالت. "هذا بيت باردي، التاجر الفرنسي. اشتغل عنده البِس قبل أن يصبح تاجراً كبيراً. فيه سكن رامبو. أتعرف رامبو؟" أضافت وأشارت إلى بيت بالقرب من طريقنا. "سمعتُ عن رامبو. شاعر أليس كذلك؟" قلتُ. "قالوا إنّه هرب من أداء الخدمة العسكرية إلى عدن" قالت مبتسمةً، قبل أن تشير إلى أنّ التاجر مناحيم ميسا كان يملك هذا البيت من قبل.

كان جاري خيل يركض، وماما تذكر لي بعض أسماء الشوارع والحارات، أو ما تسمّيها "الحافات"، والتي نمرّ منها أو بمحاذاتها: حافة الدناكل، حافة حسين، حافة الهنود، سوق البُهرَة، حافة اليهود، وشارع الزعفران، المشابه اسمه لاسم المشروب المفضّل لديها. "وهنا يسكن بِس عدن، أنتونين بِس. في هذا البيت مكاتب لشركته. لديه مكاتب في أماكن أخرى كالتي رأيتها" قالت.

يعرف نوح الاسم وعنوانه جيّداً، إذ أوصلنا، في ربع ساعة أو أقل، إلى العارف. وجدناه جالساً فوق بساط خزفي عليه فرش قطني

مكتبة الفكر الجديد

مغطى بملاءة بيضاء، أمام منزل حجري من طابقين، له فناء صغير وشجرة وحيدة. يجلس بجواره شاب بملامح أوروبية وبيديه دفتر وقلم. تحدَّثت ماما إلى العارف عن سبب مجيئنا، فازدادت ابتسامته، التي استقبلنا بها، اتساعاً. سكب ماءً، معتدل البرودة، من جرّة أمامه لنشرب وقال: "تفضَّل سيدي... تفضَّلي سيدتي"، ولم ينسَ نوح، سائق عربة جاري خيل، المنتظِر، "سيدي..."، كما ناداه هو الآخر، لينزل ويجلس في الظل ويشرب كوب ماء، من الجرّة نفسها التي سقى منها الخيل، أيضاً، بصحن عريض.

بدا العارف في حال ابتسام دائم، ليس من شفتيه فقط، وإنَّما من كل أعضاء جسمه، مع مصافحة يديه الحميمة، ونظراته الخاطفة، مع حركة عينيه، أثناء حديثه أو صمته، أو عند تنكيسهما خجلاً على الأرجح. حتى إنَّ لحيته المشذَّبة وشاربه الناعم ظهرا في حال اطمئنان، اطمئنان يظهره أيضاً القميص الأبيض الخفيف، والفوطة البيضاء المحبوكة أطرافها بخيوط فضِّية لامعة.

وافق الشيخ الأربعيني أن يعطيني دروساً مكثفة، في فترتين صباحية ومسائية. "يبدو أنَّك شغوف باللغة العربية كصاحبنا أحمد البريطاني. ألا تكون ترغب في دخول الإسلام مثله؟" قال بلغة إنجليزية متأنية الوضوح، وهو يشير إلى الشاب الجالس بجواره. أوضحت أنَّني ما زلتُ في حال هرب ولا أعرف إلى أين.

"صدقت، ابقَ هارباً طول عمرك، هذا أحسن لك" قال العارف، أمام استغراب تلميذه البريطاني المسلم، وابتسامة ماما التي بدت أنَّها تعرفه كثيراً.

مكتبة الفكر الجديد

أخضر على أخضر

شغل تعلّم اللغة العربية، وحفظ كلماتها ومعانيها، كلّ وقتي، مع هذا طلبتُ من ماما أن تعود مبكرة في إحدى ليالي الخميس لتأخذني إلى كازينو البندر. رحّبت بطلبي وحدّثتني، وهي تضع المَبْخَرَة أسفل قدمي، عن خيارات أخرى في التواهي أو كريتر: كازينو نايت، مسرح الحكايا، منتزه وسط قلبي، بار الخيّام، سينما هريكن. ذكرت أسماء أفلام غربية وهندية وعربية في خمس دور سينمائية، لكنّ بالي كان قد اتجه نحو كازينو البندر. قلتُ لها: "بالإمكان أن نذهب إلى الأمكنة الأخرى في مرّات قادمة".

"أَخْضَرْ على أَخْضَرْ شبيه المِسْك والعَنْبَرْ"، حاولتُ أن ألطّف مزاجها بتذكيرها بهذه الكلمات، التي سمعتها في سهرة الكازينو السابقة، لكي تتحمّس أكثر للذهاب إلى ما اخترته.

"أوووه" صرختْ مندهشةً مع ابتسامةٍ فرِحة.

حفظتُ هذه الكلمات بعربيّة مكسّرة لسماعها كثيراً من شمعة والفنّانين، في أغنية جماعية بدت مرحة، كانوا أثناء تأديتها يلتفتون إلى ماما، بل إنّ جميع من في الكازينو من السهارى، باستثناء المرأة

مكتبة الفكر الجديد

الصامتة، كانوا خلالها يلتفتون ويشيرون إليها، حتى ظننت أنَّ "أَخْضَرْ على أَخْضَرْ شبيه المِسْك والعَنْبَرْ" هو اسم آخر طويل لماما، أو صفة لها على الأقل.

لم نمشِ سوى خطوات قليلة حتى راحت تشرح لي معاني الكلمات التي تشير إلى لونها القريب من السُّمرة، المشبّه بالأخضر وبلوني المسك والعنبر، وربّما برائحتيهما. لم أعرف رائحتي المسك والعنبر، لكنّني صرتُ أعرف رائحة ماما التي لا تشبه أي رائحة. لا أظن أنَّ هناك عطراً أو بخوراً يشبه رائحتها؛ كما أنَّ لونها بدا لي لا يقترب من السُّمرة فقط، بل يقترب، أيضاً، من الصُفرة، يقترب من الحُمرة، من البنّي والكُحلي والبنفسجي وكل الألوان، أخضر على أخضر. هكذا يا شانتال.

فوجئتُ أثناء جلوسنا، في الليلة الأولى، على سطح المنزل، بحديث جامع، ابن العائلة الصغير. قال إنَّ ماما ليست أخته، ولكنّها تُعتبر ابنة العائلة. "لا تُعتبر ابنة العائلة، بل هي ابنة العائلة" ردّت عليه حلاها مع التفاتة غضب، ووضعت يدها على كتفي ماما، التي كانت تجلس إلى جوارها، وضمّتها إليها. هزّ الأب رأسه موافقاً فيما لم تحرّك الأم ساكناً وكأنَّ الأمر لا يعنيها.

لم يبدُ كلام جامع مُزعجاً لماما. "الموضوع وراءه قصّة طويلة" قالت مبتسمةً. فهمتُ من قولها إنَّ هذه القصّة، التي توضح علاقتها بالعائلة الصومالية أو تجيب على سؤال: من هي، ليست مهمّة لننشغل بها، أو أنَّ الوقت لا يكفي لسردها.

هل هي قصّة طويلة فعلاً؟

مكتبة الفكر الجديد

تبدأ ماما يومها بالاستحمام والأغاني. تظل تردّد أغاني بلغات مختلفة، وهي في الحمّام، كأنّها تستحم بها. كان صوتها، الذي يصحو عادةً قبل الجميع، يتسلل إلى سطح البيت كزقزقة عصافير تدعونا إلى الصحو. "صباح الفُل" تقول بالعربيّة، حين تمدّ خطوتها عائدةً من الحمّام عبر الدَرَج إلى السطح. "صباح الفُل يا فُل" تضيف مخاطبةً من تراه قد صحا، وتظل تقول التحيّة نفسها لكلّ من يصحو.

في الطريق إلى الكازينو سألتها عن عملها اليومي. "أذهب في الصباح إلى فندق كريسنت، لأرى إذا كان هناك من يطلب مرافقتي من القادمين الجدد إلى عدن، أدلّهم على الأماكن وأترجم لهم إذا ما أرادوا التخاطب مع أهالي المدينة" أجابت، لتضيف: "بعضهم يكونون قد سمعوا عني من أناس سابقين قدموا إلى عدن وتعرّفوا إلي".

"كيف اكتسبتِ هذا المخزون اللغوي؟" سألتها. "وراء تحدّثي بالإنجليزية والصومالية والعبرية والعربية قصّة طويلة" قالت. كنتُ سأسألها إذا كانت ضمن قصّة علاقتها بالعائلة الصومالية، لكنّها أضافت سريعاً: "سأخبرك بها في يوم ما، أمّا اللغات الأخرى فأفهمها ولا أجيدها".

"هل تحصلين على مبالغ جيّدة مقابل هذا العمل؟".

"هم ضيوف على عدن، ضيوف عندي، والمضيّف لا يأخذ من ضيفه شيئاً، لكن..." قالت والتفتت إلي. "في البداية كنتُ أرفض أي مبلغ وأعتبر ما أعمله واجب ضيافة، لكنّ جميع من رافقتهم كانوا يلحّون على إعطائي بعض المال، فأضطر لأخذه واعتبره

مكتبة
الفكر
الجديد

بمثابة هديّة. بعدها شعرتُ أنّ ضيافتي تحوّلت إلى عبء على البعض. كانوا يحاولون أن يردّوا الجميل بتكلفة كبيرة، قد تفوق إمكانيتهم" أوضحتْ. "لهذا اتفقت مع إدارة الفندق على أخذ ثلاث روبيات مقابل أي مرافقة في اليوم، أو بحسب الساعات، على أن يكون لهم ثلث المبلغ والباقي لي" أضافت.

"عارف رفض أن يحدّد المطلوب منّي مقابل تعليمي العربيّة".

"العارف وليس عارف. انتبه إلى الفرق. لقبه يعني أنّه العارف، صاحب المعرفة، وليس مجرّد شخص واحد يعرف". هززتُ رأسي متفهماً. "اسمه الشيخ محسن بن صالح. هو صادق بضيافته، لا يطلب من الضيف الذي يقدّم له خدمة أيّ شيء، وإذا أعطاه شيئاً ردّ عليه بأفضل ممّا أخذ" أوضحتْ.

"كيف يعيش إذاً؟"

"لديه مزرعة في لحج، هي ملك أحد أمراء لحج، تعهّد بزراعتها عبر العمّال، مقابل الحصول على مخصص محدّد من العائد السنوي".

"لكنّه يعيش هنا، في عدن".

"هناك أخ له يقوم بالعمل نيابةً عنه ويشرف على العمّال".

"وعائلته؟".

"في لحج. له زوجة وابنة، كما سمعت. يذهب لزيارتهما، مع تفقده للمزرعة، مرّة كل شهر. يمضي معهما، عادةً، ليلتين". بعد صمت أضافت: "قَبْوَة، أشهر بائعة فُل وكاذي في عدن، هي من تبيع له إنتاج المزرعة".

مكتبة الفكر الجديد

لم تقم ماما بصبغ شفتيها بالأحمر هذه المرّة أمام الكازينو. رأيتها تفعل ذلك قبل أن تخرج من البيت. لكنّها ظلّت تحاول، في الطريق، إخفاء شفتيها بطرف من مصرّها الحريري الملوّن الخفيف المربوط بشكل دائري على جوانب رأسها، من فوق الجبهة إلى أعلى رقبتها من الخلف.

تلفتتْ ماما كثيراً وهي تحيّي الجالسين، الذين بدا على بعضهم أنّهم تذكّروني، قبل أن تختار طاولةً تجاور طاولة المرأة الصامتة، في زاويتها المعتادة. كانت طاولة بكرسي واحد ممّا أدّى بماما إلى مدّ يدها لتأخذ الكرسي الثاني من أمام المرأة الصامتة. ما أدهشني هو طريقة أخذ ماما للكرسي. انتصبت أمام المرأة، ثم انحنت أمامها راكعةً وأخرجت لسانها: "وللّلو لو لولو"، بزغرودة خافتة عكّرت مزاجي إذْ ظننتها ساخرة من المرأة، التي لا تعمل شيئاً غير الصمت وشرب الكأس ذي اللون الغامق. لكنّ ماما التي صرت أعرفها، وكأنّ حياةً طويلة تجمعنا، لا يمكنها أن تسخر، أو بالأصح تقوم بسخرية جارحة ضد أحد. ربّما هناك سرّ؛ لم تتح أغاني خان، التي بدأت تعلو في المكان، التفكير فيه.

عرفت أنّ حفلة الليلة خُصّصت لهذا الفنان بعد أن اعتذرت شمعة عن المجيء. أغلب الحضور بدا عليهم الزي الهندي التقليدي، ولهذا، ربّما، بدت الأغاني الهندية طاغية في الحفل. مع هذا اجتهد الفنّان بتقديم أغانٍ فيها مفردات وعبارات إنجليزية وعربيّة وهندية وصومالية، أضحكَت الحضور، كما في الحفلة السابقة:

مكتبة الفكر الجديد

كمون دير

يس سِر
أهلاً وسهلاً

بيتودوس

فريسوولال.

شخصان لم أرهما من قبل، كانا يجلسان بجوار الفنّان بثيابهما الهندية المعروفة، يعزف أحدهما على آلة وترية والآخر على آلة أسمتها ماما: طَبْلَة.

رأيتُ ماما، فجأةً، وقد أخذت كرسي من أمام طاولة صغيرة، ظلّت فارغة، ووضعته أمام المرأة الصامتة. تبادلتا النظرات. بدا لي وكأن هناك ابتسامةً خفيّة بينهما.

"رأيت فرانسيسكو يهتم بها. أعني المرأة الصامتة" قلتُ لها. ابتسمتْ ماما ووضعت سبّابتي يديها بجوار بعض، في إشارة عرفتُ أنّها تريد أن تقول بها إنّهما شيء واحد.

جئت من أجل شمعة، ولم أدرِ أنّها ستعتذر. شراب الزعفران البلدي الذي وصفته ماما في المرّة السابقة بأنّه حشيشة القلب لم يعد بالطعم نفسه. فرانسيسكو ووليم وابو الفضل كانوا، أيضاً، غائبين.

"أنا سعيدة لأنّني صرت أراك أكثر" قالت ماما وهي ترسل نظرات خاطفة وخجولة إلى وجهي.

"أنا آسف. أثقلتُ عليكِ بالسكن وبالمرافقة، حتى إنّني لم أدفع كالآخرين".

مكتبة الفكر الجديد

"حين رأيتكَ أول مرّة قلتُ لكَ: أهلاً، وهي كلمة تعني أنّك صرتَ من الأهل".

"لكنّكِ رحّبتِ بي بالفرنسيّة".

"نعم، وبالعربيّة أيضاً، قلتُ: سهلاً وأهلاً".

"لم أنتبه" قلتُ، وبدأت أدرّب سمعي على كلمات وأنغام جديدة، لم أسمعها من قبل، بل أدرّب، أيضاً، لساني ويديّ وعينيّ وأنفي على مذاق وملمس وألوان وروائح أخرى، لأشياء كانت بمثابة الحلم، أو أنّها لم تخطر في بالي، حتى في الحلم.

هل كان لشانتال رائحة ولون؟ كيف يمكنني أن أتذكّر؟ من الصعب أن أستعيد هذه التفاصيل. بالتأكيد كان لشانتال لون، لكنّه كلون الجميع: زملاء وزميلات المدرسة، العائلة، الأصدقاء. الآيس كريم، أيضاً، كان يحمل اللون نفسه، إلاّ حين يصبّغ بألوان فاقعة أخرى، كتلك الصباغات التي كان يحضرها الرجال، كبار السن، لزوجاتهم، ويطلبون منهن طلي وجوههن وشفاههن وأظافرهن بها، وهو ما لم يكن يخفى على شباب الحي، بعد سماع أكثر من واحدة تداري خجلها أمام عيونهم المتلصصة بالقول: "ماذا أعمل؟ فَرَض عليّ هذا. قلتُ له اتركني، روح تزوّج ممثلة مُتنكّرة بالماكياج، تغالط معها بقيّة عمرك".

لا أستطيع تذكّر روائح العطور الموسميّة التي كانت تجلب لأمّي من السوق، كما لا أستطيع القول إنّ شانتال كانت لها رائحة.

مرّةً مازحت أختي الصغيرة وهي ترضع، بإبعادها ووضع فمي على حلمة أمّي. يومها شممتُ رائحة عبقة، شعرتُ أنّها ليست غريبة

مكتبة
الفكر
الجديد

عن أنفي. بقيتُ أكرّر المزاح، كلّما تسنّى لي ذلك، حتى أستنشق هذه الرائحة، التي ظلّت العلامة الوحيدة في ذاكرتي الشمّية كدليل أقنع به نفسي أنّني كنتُ قد عرفت الرائحة قبل مجيئي إلى عدن.

هل لشمعة رائحتها أيضاً؟

استعدتُ مذاق الشراب المميّز وأنا أستمع إلى أحاديث ماما. هل كانت تحدّثني أم تتحدّث إلى نفسها؟

وأنا، إلى من كنتُ أتحدّث؟

إلى نفسي؟

مكتبة الفكر الجديد

حروب هاربة

خيوط ضوء الفجر الأولى، البادية أمام طريق الركّاب الصاعدين إلى السفينة التي التحقوا بها في عُرْض البحر، كانت تكفي لتؤكّد له أنَّ الذي أمامه هو فرانك، زميل الدراسة المشاغب وفتى الحارة المشهور بحبّه لكرة القدم والتمثيل والبنات.

كان الطريق شاقاً، وهو يمضي من باريس المحتلَّة من قبل النازيين إلى الجنوب المحكوم من أعوانهم في فيشي. إلاّ أنَّ تعبه تخفَّف وهو يلقى تسهيلات للسفر، ممن وصل إليهم. إذْ أتاحت له التوصية التي حملها إلى القبطان مارسيل، ضمن توصيات وأوراق أخرى، أن يصعد بسهولة إلى السفينة، حيث صار أمام فرانك وجهاً لوجه، بعد أن بقي يتراءى له من بعيد، طوال الليل، على هيئة شبح له قبّعة في الظلام، يجلس حيناً ويستلقي حيناً آخر، على دكّة حجرية، أمام مبنى خشبي بُنيَ بالقرب من مرفأ موقت لتسيير نقل الركّاب بقوارب صغيرة إلى سفن تعبُر في طرق حذرة من نيران الحرب.

لا يُعرف أين كانت تعيش أسرة فرانك بعد مجيئها من الجزائر وقبل أن تأتي إلى الحي الممتد بين شارعين في جنوب باريس، عُرفا

مكتبة الفكر الجديد

باسمين رسميين، لم يكن أحد من سكّان الحي يذكرهما إلاّ إذا اضطر لتحديد عنوانه في المكاتبات البريدية.

ما يُلاحظ، أنّ القادم إلى عدن لا يذكر أسماء الأشخاص والأمكنة في باريس إلاّ تلميحاً. ربّما يريد أن يقنع الآخرين، أو يقتنع هو نفسه، بأنّه لم يعد الشخص الذي كانه، سواء فرانسوا أو ميشيل. ربّما هي محاولة من قبله، أيضاً، يُراد فيها من الذاكرة أن تتخلّص من ثقلها أو، على الأقل، تتخفّف من عبئها الذي كان.

أبو فرانك، عُرف بأنّه موظف متقاعد، عمل كمراقب مالي في الإدارة الاستعمارية بالجزائر، ومن هناك تعرّف إلى زوجته، قبل أن يطلب عودته إلى باريس ونقله من العمل، الذي لم يكن يطيقه. كان ميشيل يسأل فرانك كثيراً عن أمّه التي اشتهرت عند نساء الحي بصفة الفلاّحة البطلة، مقاومة الاحتلال الفرنسي لبلدها الجزائر. ليظل ينصت إليه بانبهار وهو يردّد بدون مبالاة الكلام الذي يقوله في كلّ مرّة يسمع فيها السؤال نفسه. وقد يمضي في تفاصيل كثيرة إذا انتبه فرانسوا وآخرون إلى كلامه، فالفلاّحة البطلة لم تتردد عن تلبية نداء الوطن **للقتال بشراسة، إلى جانب صفوف الوطنيين؛ من أجل تحرير تراب بلدها الطّاهر من دنس الغزاة الأعداء؛ من أجل هوائه وسمائه وشعبه، ومن أجل حفظ حدوده المقدّسة، مقدّمةً في سبيل ذلك أي ثمن، ولو كان حياتها.**

بهذه الصفة، الوطنية الكفاحية والمتمرّدة، عشقها أبوه، فيما هي رفضت من الأساس فكرة أن يحبّها فرنسي يعمل في الإدارة الاستعمارية لبلدها. كان الزواج منه، بالنسبة إليها، خيانةً لا تغتفر.

مكتبة الفكر الجديد

لكنّها بعد فترة، اختبرت خلالها الحياة والمقاومة المسلّحة، وأكثر من ذلك رفاق دربها، وجدت أنَّ أبا فرانك هو الأقرب إليها من الجميع، بل ومن كلّ شيء، فاستسلمت له وتزوّجته، بدون أي شرط، بل إنّها قامت، في سلوك فلاّحي أصيل، بالإعلان عن عشقها المتبادل مع من طلب الزواج منها، واستعدادها الذهاب معه إلى أي وجهة أو مكان.

لم تكن أم فرانك تعمل خارج البيت، ومهمّتها اليومية تقتصر على تربية فرانك وأخته وتجهيز الأشياء المنزلية من تنظيف وطبخ وغسل ملابس.

أم فرانسوا، معلّمة اللغة والنصوص الأدبية، لم تكن تبدو متعالية حين تتحدّث عن الفلاّحة الجزائرية التي لم تجد أرضاً في باريس لتزرعها، فحوّلت حوش منزلها إلى مزرعة صغيرة للنباتات والأزهار وتربية الدجاج.

كانت أم فرانسوا أقرب إلى ابنها من أبيه، ومنها تعلّم فنون الكتابة الأدبيّة. حفّزته على ممارستها قبل دخوله المدرسة، إلاّ أنّه لم يحبّذ في يوم من الأيّام أن تكون أمّه إحدى مدرّساته في المدرسة. حين اختارت أن يدرُس في مدرسة أخرى، اعتبرت مستوى التدريس فيها أفضل من المدرسة التي تعمل فيها، أعلن فرانسوا لزملائه أنّه نجا من مضاعفة زجرها التلقيني اليومي له، وبالذات تلك الكلمة المملّة: فهمت؟ التي تقولها بعد كلّ جملة. وقد صار ينتبه لتكرار قولها أكثر من انتباهه للدرس. فهمت؟ تقولها عند حديثها عن أي شيء، بمناسبة أو بغير مناسبة. حتى إذا أشادت بإنجاز دراسي، أو

مكتبة الفكر الجديد

شكرته على تنفيذ طلب لها، تنتهي إشادتها بـ فهمت؟ طبعاً تكون قد قالت: أنت تميّزت واستطعت أن تحقّق ما حقّقته لأنّك اتّبعت الطريقة الجيّدة السليمة وهي... وتروح تشرح هذه الطريقة قبل أن تتبعها بـ فهمت؟ مع أنّه هو الذي ابتكر الطريقة وحقّقها. وقد بدا له أنّ أخته، التي تليه بالعمر، لم تترك المدرسة وتذهب للتطوع في التمريض، لإسعاف جرحى الحرب، إلاّ هرباً من زجر أمّها التي كانت إحدى ملقّنات الدروس لها في المدرسة، ولتخفّف ضجرها المتفشي من مناكفة الوالد الليلية.

كان الأب يريد من فرانسوا، دائماً، أن يترك دراسته ويحلّ محل منليك، العامل الأثيوبي العجوز، في المقهى الذي يملكه في طرف الحي، إلاّ أن إرادته هذه عادةً ما تتحوّل إلى صراخ وعراك بينه وبين الأم التي لولا راتبها من المدرسة لما استطاعوا أن يعيشوا، ولما قدر على التفاخر أمام الندماء الليليين بقوارير النبيذ المجلوبة له من الجنوب، من بوردو. إذ لم تشكّ العائلة بأنّ المحصول الأسبوعي من المقهى يذهب في سبيل آخر غير جلب هذه القوارير. منليك هو من كان يُقدّم الشاي والقهوة والعصائر والسندويشات السريعة إلى روّاد المقهى، أمّا مهمة أبي فرانسوا الوحيدة فقد كانت تحويل المقهى، في أوّل الليل، إلى بار مُصغّر، يلتقي فيه المولّعون بشرب النبيذ من سكّان الحيّ.

"إمّا أن تعمل معي في المقهى أو تلتحق بفرقة مقاومة الاحتلال" صارت هذه جملته المعتادة، يقولها لفرانسوا في أي وقت، في البيت أو في المقهى، إذا ما مرّ ليوصل إليه الغداء المنزلي؛ حتى إنّ كثيرين

مكتبة الفكر الجديد

من روّاد المقهى، بل ومن المارّين أمامه، سمعوا منه، مرّات عديدة، هذه العبارة.

لم يكن قد أنهى الفصل الأخير من الدراسة ليلبّي نداء الواجب الوطني، ومع هذا بدت أمّه قليلة الحيلة، ممّا كانت عليه من قبل، لمواجهة إرادة الوالد.

ميشيل وشانتال هما الزميلان الآخران، اللذان تزاملا كثيراً في المدرسة وتجاوروا في الحي مع فرانك وفرانسوا.

على مدى سنوات الدراسة عُرف ميشيل بين زملائه ومدرّسيه بذكائه اللافت. كان كثير الارتباط بالكتب، وبدا أنّه يتلمّس، في القراءة لساعات طويلة، التعويض عن عدم مقدرته اللعب مع زملائه بسبب عاهته في رجله اليسرى. لقد تركه قصرها عن الرّجل الأخرى دائم العرج منذ طفولته، حتى إنَّ أخته التي تليه فطنت لوضعه مبكراً ورأت أنَّ عليها ملازمته معظم الوقت لكي لا يشعر بالوحدة.

عُرفت أم ميشيل، لدى سكّان الحي، بالرخاء المالي، سواء ممّا تردّد عن الثروة التي ورثتها عن أبيها أو ممّا اكتسبته من نشاطاتها التجارية. كانت، في سلوكها، تبدو متواضعةً مع الجميع. دليل هذا التواضع، كما يقولون، هو بقاؤها في بيت متواضع ورثه زوجها عن عائلته، أثناء ما كان عاملاً بسيطاً في شركة أبيها.

بدا أنَّ أبوي ميشيل كانا يفصلان بين أعمالهما وعلاقاتهما التجارية وبين حياتهما الخاصّة في المنزل، مع الأهل والأصدقاء والجيران، حيث الهدوء والترتيب في المواعيد هما السمتان الباديتان على تصرّف أفراد العائلة الصغيرة.

مكتبة الفكر الجديد

هذه السَكينة لم تكن معاشة في منزل أسرة شانتال، فأمّها المُمثّلة في مسرح أضواء النجوم الباريسي لا وقت محدّد لذهابها إلى العمل أو قدومها منه، وإن كان الذهاب غالباً ما يكون مع أوّل الليل والإياب في نهايته.

تبدو شانتال بدون أب، وإن قيل إنَّ أباها ممثل هو الآخر، طلّقته أمّها [هكذا يقولون] بعد أن فشل في أداء دور "العاشق المجرم" أمامها على خشبة المسرح.

ما لا ينساه فرانسوا وميشيل أنّهما سمعا أم شانتال تقول لوالدتيهما أثناء زيارة مشتركة لها: "طلّقته لأنّه ضرط على خشبة المسرح، أمام الجمهور". لم يرق لشانتال كلامها، وبدت للزائرين يومها كأنّها بدون أم، أيضاً. ليس لها سوى المربّية الإسبانية الجالسة معها طوال الوقت في البيت، تقوم بعمل كلّ شيء لها، بما في ذلك مراجعة الدروس.

شانتال هو الاسم الجامع بين الثلاثة، ميشيل وفرانسوا وفرانك، وهو الاسم نفسه الذي يفرّقهم ويشعل أحقادهم ضد بعضهم البعض. فرانك، بمشاكسته مع البنات وتألقه في لعبة كرة القدم والتمثيل الكوميدي على مسرح المدرسة وعتبات بيوت الحي، كان هو الأكثر إثارةً لتصرفات فرانسوا التنافسية من أجل أن يحظى باهتمام شانتال وحده. إذ حاول أن يقدّم بدائل أخرى يتميّز فيها عنه، ولهذا لقيت أمّه استجابةً عنده لدروسها الأدبية لتحقيق طموحها بأن يصبح شاعراً أو مؤلفاً مسرحياً عظيماً، هكذا كانت تقول.

كتب فرانسوا قصائد شعرية، وألّف ثلاث مسرحيات قصيرة مثّلت

مكتبة الفكر الجديد

على مسرح المدرسة، جميعها لم تثر اهتمام شانتال. لكنّه حين مثّل دور لص وقاتل في مسرحية رابعة أصبح صديقها وأكثر قرباً إليها من ذي قبل. وصار بإمكانه، من يومها، أن يتباهى ويقول إنّه الوحيد الذي ينافس فرانك على حبّها.

لم يكن فرانسوا يأبه باهتمامها بميشيل. يقول لأصدقائه إنّ قربها وأحاديثها معه باعثه شفقتها عليه كمعاق، ليس أكثر. فيما كان فرانك يعمل الكثير من الحسابات كلّما رآها تتقرّب لميشيل أو فرانسوا، ولا يتردّد في إعلان انزعاجه، مع تأكيده بأنّه الأكثر حظوةً عندها.

"أخيراً تركنا الحرب" قال فرانك وهو يصافحه ويجلس إلى جواره في السفينة.

"هل طلبوا منك المشاركة في المقاومة المسلحة؟" سأله.

ابتسم فرانك. "أعني الحرب التي بيني وبينك. الحرب الأخرى لا تعنيني" قال.

لم يكن فرانك، وهو المولّع بترديد قصّة أمّه وأبيه، لديه المبرّرات الوطنية نفسها التي كانت لدى ميشيل، أو مشاعر المقت للحرب كتلك التي كانت لدى فرانسوا. إنّه، كما كان يبدو، خالٍ من القضايا وبلا تصوّر أو أفكار.

"حرب شانتال، الحرب حول شانتال" أوضح فرانك.

مكتبة الفكر الجديد

ثقل الرائحة

"ساعلّمكما لغةً اخرى، هيّا معي" قال العارف، بعد أن أكمل درسيه لي وللبريطاني الذي سمّى نفسه أحمد. طريقته، السلسة، في التدريس كانت تخفّف الكثير من وطأة الحرّ الخامد لجلودنا ونفوسنا، وهي طريقة تتجمّل أكثر عند الظهيرة، لتغوينا عن الإحساس بأنّ الشمس استوت واكتملت، بعد أن جفّفت ظلال أضوائها المائلة.

قُبيل أذان صلاة الظهر، كان يدخل البيت، فيما نبقى نحن أمامها. يظل في الداخل بضع لحظات، ثمّ يعود بعد أن يغيّر ملابسه ويشذّب لحيته وشاربه. ويبدو أنّه، في كلّ مرّة، كان يقوم بغسل جسمه بالماء ليزيل العرَق عنه، أو ليهدّئ فيضانه الطافح منه.

هل يدخل ليصلّي؟ لا أعرف. يطلب منّا، حين يعود، أن ندخل البيت ونغسل وجهينا ورأسينا وأيدينا وأقدامنا بالماء لننتعش، كما يقول. نظل بعدها قليلاً من الوقت لنراجع درسينا، ثمّ نذهب، على ان أعود أنا وحدي في العصر، عندما تهدأ حرارة الشمس ويتلطّف الجو.

المسافة لم تكن بعيدة، ففي القرب من ميدان كريتر، حيث

مكتبة الفكر الجديد

تتشعّب الطرق إلى عدد من الأسواق والحارات، أشار العارف إلى امرأة تجلس على مخدّة طويلة مترهّلة تغطّي الكثير من جوانب طاولة خشبيّة منخفضة، وُضعت تحتها على الأرض. قامت حين رأتنا. مدّت يدها اليمنى في الوقت الذي مدّ العارف يمناه، فتصافحا بحركة خاطفة، إذ أمسك كلّ واحد منهما يد الأخر ورفعها إلى قبالة فمه ليقبّل ظهرها.

هل هي من سيعلّمنا عندها اللغة الأخرى؟ قلتُ لنفسي وتفحصتُ الزنابيل الثلاثة الكبار، الموضوعة أمامها. "في هذا عقود الفل، وفي هذا كاذي، وفي هذا مشاقر من رياحين ووزّاب وشذاب، وهذه هي قَبْوَة، قبوة الكاذي، معلّمة لغة الفُل" قال العارف، وهو يشير إلى الزنابيل والمرأة، في الوقت الذي راحت فيه قبوة، التي كانت ماما قد حدّثتني عنها، تضع المشاقر في جيوبه. بإشارةٍ منه، كما بدا لي، ملأت جيوبنا بالمثل. وإذْ زادت وأعطتنا عقود فل بأكياس خاصّة، شعرتُ أنّنا صرنا مثقلين بروائح البهجة، بل بالبهجة كلّها.

هل للرائحة، أيضاً، ثقلها؟

يصل الفُل والكاذي والمشاقر إلى قبوة، كما أخبرتني ماما، من المزرعة المتعهد بها العارف في لحج، كلّ يوم، فوق ثلاثة جِمال، أحدها يبقى في منطقة الشيخ عُثمان والثاني يذهب إلى التواهي والثالث يجيء إلى كريتر. وفي هذه المدن العدنية المتقاربة هناك ثلاثِ نساء يستقبلن الأحمال ويقمن بالبيع، فيما يعود الجمّالون بالجِمال إلى لحج.

ظلّ العارف يتحدّث مع قبوة، التي تبدو في الثلاثين من عمرها،

مكتبة الفكر الجديد

فيما بقينا واقفين ننتظر. لا أعرف ما يقولانه، باللهجة المحلّية، سوى بعض المفردات.

رايتُ أنَّ من الأحسن أن نستأذن بالانصراف، إذْ كانا منهمكين في الحديث. التفتا إلينا بابتسامة وكأنّهما يعتذران. "إذن لنلتقي، ما زالت الأيّام بيننا" قال مبتسماً وهو يمدّ يده لمصافحتنا، ومثله ابتسمتْ قبوة وهي تصافحنا وتهزّ رأسها بدون كلام.

مكتبة الفكر الجديد

اللذة

ازدحمت المواعيد والأعمال في يوم خميس آخر، فبعد الدراسة الصباحية كان عليّ أن أبقى مع أحمد البريطاني لتناول الغداء، في منزل العارف، ثمّ عليّ بعدها أن أختار ما بين العودة لأخذ الدرس في العصر أو الاستئذان من العارف للذهاب إلى ملعب كرة القدم لتشجيع ميجي. وفي كلّ حال من المهم أن أستعد لحفلة شمعة التي ستقيمها في الليل.

جاءت قَبْوَة إلى منزل العارف حين كنّا قد أمضينا بعض الوقت المخصص لدراستنا صباحاً. حيّتنا من بعيد وهي تحاول أن توازن بيدها اليمنى القُفّة المحمولة على رأسها. قام العارف وأخذ بعض الحاجيات المحمولة في يدها الأخرى، ودخل معها إلى البيت.

"اليوم ستطعمون لذّة من لذائد عدن" قال العارف حين عاد ليواصل درسه. شممنا بعدها رائحة دخّان تنبعث من سطح البيت، لتتبعها روائح مختلفة، لا يمكن إلاّ أن تكون روائح طبخ ماكولات لم أكن قد شممتها من قبل.

بعد أن اغتسل العارف، وغسلنا بدورنا وجهينا وأيدينا وقدمينا في حمّام الطابق السفلي، صعدنا معه إلى الطابق العلوي ليدخلنا

مكتبة الفكر الجديد

إلى إحدى الغرف. جلسنا على فرش مغطّى بالسجاد، عليه وسائد ملوّنة، مرتّبة بنظام ملفت. رائحة البخور كانت تنتشر في أجواء الغرفة، ولكن بشكل هادئ غير مكتوم، فالشبابيك الخشبية الثلاثة مفتوحة، والستائر البيضاء ملفوفة فوق دَرَفاتها.

صافحتنا قَبوة وهي تبتسم. بدت، هذه المرّة، في زيّ سماوي شفّاف، يكاد كلّ جسمها يظهر من تحته. كانت تذكر اسم أي أكلة تأتي بها، فيما يقوم العارف بشرح مكوّناتها بجمل إنجليزية مخلوطة بعبارات عربيّة: فَتّة دُخْن بالعسل والسمن، سَمك صَالُونَة، رُز زُرْبِيان، لحم مَنْدِي، وحلاوة الهندي.

أحمد البريطاني، الذي يعمل في بنك هندي بريطاني وبدت ميوله الإسلامية واضحة من خلال أداء الصلوات، استأذن بعد الغداء، لينصرف، ولم تمضِ سوى لحظة حتى قال العارف: "سأجلس مع قَبوة الكاذي، بيني وبينها حساب، وسنلتقي غداً في الصباح لنواصل الدرس".

في طريقنا إلى حفلة شمعة، ضحكتْ ماما حين أخبرتها أنَّ العارف لم يعطني درس العصر لأنّه مشغول في جلسة حساب مع قَبوة. "هي تقوم بمحاسبة بائعات الفُل والكاذي والمشاقر في الشيخ عثمان والتواهي وكريتر، كلّ أسبوع، ثمّ تلتقي العارف لتعطيه ما جمعته، فيقوم بإعطائها أجورهن الأسبوعيّة" قالت لتضيف بعد لحظة: "البائعة في كريتر هي أختها زَهْرَة، لكنّها لا تبيع وقت الظهر، لأنَّ زوجها لا يرضى أن يتناول غداءه إلاّ من طبخها. فتجلس قَبوة تبيع بدلاً منها في هذا الوقت".

مكتبة الفكر الجديد

"إذن بينهما حساب أموال وتجارة".
"نعم..." أجابت والتفتت إليّ بضحكة مكتومة.

لم أجد، حين عدت بعد غداء العارف وقبوة إلى البيت، سوى ميجي. كان يقوم بحركات رياضية استعداداً للمباراة التي سيلعب خلالها مع فريق الموج العدني في مواجهة فريق سلاح المشاة البريطاني.

أخذني معه ليعرّفني بمكان اللعب في المجمع البلدي. أشار إليه، حين صار مرئياً لي، ليدعني أواصل الطريق بمفردي. قال إنّه سيذهب إلى مقر النادي ليأتي مع أعضاء الفريق.

كان الملعب عبارة عن ساحة ترابية، في جانبين منها، يشبهان حرف (L) الإنجليزي أو عكس (ل) العربي، رُصّت أحجار كثيرة على شكل مدرّجات في ثلاثة صفوف، وبقي جانب من عرض الساحة، مع جانب آخر من طولها، بدون جدران أو أحجار. كثيرون، بسحنات أوروبيّة وعربيّة وهندية وصومالية، جاؤوا مثلي مبكراً لمشاهدة المباراة. هناك اهتمام واضح ببعض الحضور من البريطانيين الذين وصلوا مع بدء المباراة وخُصّصت لهم أماكن بدت أكثر راحة. لم ألحظ أي شخص ممن أعرفهم، كما لا توجد أي امرأة.

"ميجي، ميجي، ميجي، ميجي" كانوا يهتفون، إذ بدا لاعباً مشهوراً، كما قالت ماما في أوّل ليلة تعارف. كان هناك لاعبان آخران، في فريق الموج، يهتفون بلقبيهما: زبّاط وأحتَرْ، ولاعب في فريق سلاح المشاة يلقبونه: روميه. لكن اسم ميجي بقي الأكثر

مكتبة الفكر الجديد

ترديداً في الهتافات، وقد سجّل ثلاثة أهداف لوحده لصالح فريقه، فيما سجّل روميه هدفاً واحداً للفريق المقابل.

اندفعت لأعانقه بعد انتهاء المباراة. شعرتُ أنّني صرتُ قريباً منه. هل لأنه مشهور صار كذلك، أم لأنّه أدخل ثلاثة أهداف بحركات مدهشة على الفريق الخصم؛ خصمه هو بالتأكيد؟ ربّما بسبب ذلك، زيادةً على أنّه من العائلة التي آوتني. بدا لي أنَّ شعوره وسلوكه نحوي تغيّرا أيضاً. ألستُ أنا الوحيد الذي جئت لأشجّعه من العائلة، من البيت التي يسكن فيها؟

ماما لم تحدّثني كثيراً، وأنا أمضي معها إلى حفلة شمعة. أحسّتْ، ربّما، بيومي الحافل، الذي لم أتخفّف من أعباء جولاته سوى بدفقات الماء التي اغتسلت بها بعد عودتي من الملعب.

طلبتُ منها أن تطلب لي الشراب نفسه الذي شربته في المرّات السابقة. رأيتُ أنَّ عليّ ان أتهيأ لمجيء شمعة، وان لا انشغل بأي شيء مع أغانيها، حتى ولو بشرب نبيذ الزعفران الذي يصبح له مذاقه الخاص أثناء سماعها. لا أريد لذّةً أخرى، لذّةً طعميّة، تزاحم لذّة مشاهدة شمعة، ولذّة الإنصات إليها. هما ليستا لذّتين، فقط، بل لذّات في لذّة واحدة اسمها شمعة، لذّة شمعة.

بدت شمعة وكأنّها كانت تسمع، من بُعد، هواجسي الصامتة حولها، إذْ اتجهت إليّ حين دخلت الكازينو لتصافحني بحميمية. كأنّها على موعد معي، جاءت إلي وحدي، أنا الذي كنتُ أنتظرها وحدها.

مكتبة الفكر الجديد

هو الآخر

فرانسوا أم ميشيل؟ من منهما أقنع الآخر؟ هل كلّ واحد ذهب إلى قناعته، ولو بهويّة أخرى؟ هل فرانسوا صار هو ميشيل، ولم يستطع مفارقة شخصيته الجديدة حتى في عرجها؟ أم أنّ فرانسوا اقتنع بكلام ميشيل، عن ضرورة المشاركة في حرب تحرير الوطن، فذهب إلى جبهة الحرب، فيما اقتنع ميشيل بكلام فرانسوا، فوجد نفسه يعرج في عدن؟

صار من الممكن القول إنّ الشخص الذي نقله قارب صغير من مرفأ موقت إلى سفينة في عرض البحر، ومضى في رحلته الطويلة إلى عدن، قد حمل اسم ميشيل، في أوراق رسميّة. لكن، لماذا لم تُقدَّم هذه الأوراق، التي تحمل اسم ميشيل وتُبيِّن عرجه، إلى زوج الخالة المكلَّف باستقبال طلبات الوظائف. أليس السيد آلبِر، الموظف في شركة فرنسية في عدن، هو نفسه الذي لم يرَ ابن أخت زوجته منذ أن كان في الخامسة من عمره؟

ربّما يكون القادم هو فرانسوا، الذي لم يعبأ بتقديم هذه الأوراق لزوج الخالة، لأنّه لم يعد بحاجة إلى ثقل آخر في هويّته الجديدة،

مكتبة الفكر الجديد

وربّما يكون هو ميشيل المتخفي بهويّته نفسها التي لا يريدها أن تُكتشف وبالتالي يظهر كجبان هارب من المقاومة والحرب، بعد ان كرّس صورته كمتحمّس لأداء الواجب الوطني بأي ثمن. إذا كان هو فيعني هذا أنّه قد تحوّل إلى شخص آخر غير ذلك المتحمّس لكلّ ما يرتبط بالوطن، من بعيد أو قريب، وسيكون من المخزي بالنسبة إليه أن يظهر، وقد اقتنع بلا جدوى الحرب، بدون حماس وطني، بل وبدون حماس لأي شيء؛ ربّما بدون شعور بوجود وطن أو إحساس بجدواه. هل صار فعلاً كذلك؟ ألا يبدو القادم إلى عدن على هذه الحالة؟ لماذا يخاف من تغيّر صورته المبدئية القديمة؟ ألم يصبح، في هذه الحالة، له مبدأ جديد، أيضاً؟ ألم يغيّر مبدأه، فقط؟ أم أنّه صار بدون مبدأ؟ ألا يمكن القول ذلك، وهو الذي كان ينظر إلى كلّ من لا يشاركه مبادئه الوطنية باعتباره بلا مبادئ، بل وبلا أخلاق وقيم وشرف؟ هل صار يخجل، أو يخاف، من أن تقال النعوت نفسها عليه؟ لماذا يهرب من حال اقتنع به؟

في جبهة الحرب، ربّما، لا يدققون بالهويّات. يهمّهم وجود رقم مقاتل، ليس أكثر. لكنّ الذي جاء إلى عدن ليس رقماً، وإن كان بهويّة غامضة، أو بلا هويّة. لقد اختار الطريق المختلف عن الطريق المؤدي إلى الحرب، ولم يدرج كرقم في الكتيبة الملبّية لنداء الوطن.

مع هذا، يبدو أنّ الحذاء القديم هو الذي جاء إلى عدن. فميشيل إذا قرّر أن يأتي إلى عدن، فلن يلبس سواه لأنّه لم يكن ينتعل حذاءه الجديد، ويظهر به سويّاً دون عرج، إلاّ ليقبلوه في جبهة الحرب.

الحذاء القديم يخفّف عن ميشيل عرجه، إلاّ أنّه يبقيه على ما ظهر

مكتبة الفكر الجديد

فيه. أمّا فرانسوا فيكفيه أن ينتعل هذا الحذاء ليظهر عليه العرج نفسه، فيما الحذاء الجديد سيكون عبئاً ثقيلاً لا يطيقه.

في كلّ الأحوال هناك حذاء جاء إلى عدن لمعاق جسدي، أو لديه **إعاقة وطنية**، كما كان يقول ميشيل، من قبل، عن الشباب الهاربين من الحرب.

ماذا يعني الوطن، حتى يكون كل من لا يذهب إلى جبهة الحرب لديه **إعاقة وطنيّة**؟ كان الوطن بالنسبة لميشيل هو كلّ شيء، فيما هو، لدى فرانسوا، لا شيء.

كان يمكن أن نسمع من أصبح في عدن يقول: لستُ فرانسوا المتخاذل اللاوطني؛ أو يقول، ربما: لستُ ميشيل المُغفّل. لكنّ هذا التبسيط لم يعد ممكناً، وقد صارت الهويّة، على ما تبدو فيه، غير طيّعة التحقّق، لأي أحد منهما.

هكذا، إذا سُئل أو سَأل: ماذا لو بحث زوج الخالة عنه، باسمه الذي يحمله، سواء كان هو نفسه ميشيل أم فرانسوا؟ فإنّه سيبدو وكأنّه هرب من خوف إلى خوف.

لقد صار يحمل عبء هويّتين، أو شخصيتين في هويّة واحدة، غير محقّقة، لا تريد أن يعرفها أحد.

مكتبة الفكر الجديد

رقصة الزّار

لم أعد أذهب إلى كازينو البندر إلاّ لأرى شمعة. لا أعرف كم من المرّات حضرتُ حفلات لها. في كلّ مرّة كانت تجلس إلى جواري لتتحدّث معي قبل الحفلة أو بعدها، بحضور ماما طبعاً. وعدتها أن ألبّي دعوةً مفتوحة إلى وجبة عشاء في منزلها، أو في مطعم الحمراء اللبناني الذي تتناول فيه وجبة غداء كلّ أسبوع، لكنّني خجلتُ أن أذكر لها الموعد الذي تركت لي تحديده.

ماما، مثل شمعة، تضع أمامي خيارات كثيرة ولا تطلب منّي أن أعمل شيئاً بعينه. هكذا بدت وهي تقترح عليّ أن نذهب معاً إلى حفل راقص في كازينو نايت، الذي لا يبعد كثيراً عن كازينو البندر.

دخلنا إلى نايت في وقت كان قد بدأ فيه الحفل، مع انتشار كثيف لدخّان البخور ورائحته. "هذا بخور عدني أصلي" همستْ ماما.

على دكّة مرتفعة قليلاً عن القاعة، كان هناك خمس نساء ورجل واحد، تجمع السحنة السوداء بينهم بملامح يكاد يخفيها البخور: ثلاث بدأن يعزفن على آلتي دفّ، كما أسمتهما ماما، وطبلة؛ لملابسهن ألوان بنّية، تغطيهن من أكتافهن وحتى أسفل أقدامهن،

مكتبة الفكر الجديد

مع رقع، محبوكة على صدورهن، مذهّبة بخطوط صفراء وبرتقالية، وقد بدت الحبكات متداخلة في إطارات مُخيّطة بألوان داكنة حمراء وخضراء، تشبه لون الحنّاء المكسو شعر رؤوسهن المصفوف في ضفائر صغيرة السُمك.

المرأة التي تقابلهن، أمام رجل يجلس على كرسي مرتفع، وتتلوّى بتوجّع وتأوه، كأنها تمثّل دور مريضة، لها مثل ملبسهن إلاّ أنّ شعرها بدا غير مسرّح. راح الرجل المكسو بملابس بيضاء مزيّنة بخطوط صفراء وبرتقالية وأرجوانية يضع يده اليمنى على رأسها المنكوش الشعر ويتمتم بكلمات غير مسموعة، فيما هي تتلوّى مضطربة. ظل معها على هذه الحال لحظات متناغمة مع آلات الايقاع، ثم نهض عن الكرسي مع اشتداد حركتها، ليبان طوله. تتبّع بيده الموضوعة على رأسها حركتها الملوّعة، ثم أضاف يده الأخرى، لتبدو، بعد لحظة، في حال أقل انفعالاً. أبقى يديه على رأسها، مع تمتماته العجلى غير الواضحة، وحين عاود الجلوس على الكرسي مرّرهما إلى كتفيها، كأنّه يطرد أو يسحب منها أشياء غير مرئية، وهو في حال رعشة وانفعال مشابه لحالها. أثناء ذلك، كانت المرأة الخامسة تطوف بمبخرة على النساء الأربع والرجل، ثم تمضي، بحركات متمايلة، إلى الحاضرين في قاع الكازينو، حيث صار الدخان يغطيهم جميعاً.

بقيت النساء الثلاث يعزفن في إيقاع متداخل، مع رعشات أجسادهن المنفعلة، في حركات شبه راقصة. وبدا لي، بالرغم من الدخان الكثيف، أنّ كل من في الكازينو صار يرقص ويتلوّى، يتأوه ويصرخ، بمن فيهم ماما وعرجي الذي تحوّل إلى خِفّة. كانت

مكتبة الفكر الجديد

الأجساد، في البداية، تؤدّي حركات راقصة متزنة، لكنَّ أداءها سرعان ما تحوّل إلى انفعال غير منتظم، فيما يشبه الرعشة، أو الشهقة اللامتناهية؛ بدت كأنّها تنخلع ممن حولها، تتخلّع من نظامها، من نفسها، تتعرَّق روائحَ سائلةً وأصواتاً غير مفهومة.

كنتُ اشعر أنني معهم، في كلّ حركاتهم، اتلوّى وارتعش، اتعرّق، اتخلّع واشهق. احسستُ بأنّني اتخلّى عنّي، عن نفسي، أصيرُ شخصاً آخر.

انبسطتُ، إذْ صرتُ هكذا، بعد أن انتهى العرض. بدا جميع من في الكازينو منبسطين. ربّما تخلّوا عن أنفسهم، هم أيضاً، مثلي.

"هذه رقصة الزّار. عَبْدِي هو من أسماها. ذلك الذي كان يرقص معهن ويمسح على رأس المرأة" قالت ماما وقد صار الجوّ هادئاً، بعد صخبٍ لا مثيل له. "أم عبدي كانت العَلَقة التي تدير جلسة زار لمعالجة النساء. كنَّ يأتين إليها لاعتقادهن أنّها تُخرج الجن من أجسادهن. غضب رجال دين وضغطوا لتسفيرها، مع شيخات زار اخريات، إلى بلدانهن. عبدي كان حينها طفلاً. رجع إلى عدن، بعد ان ماتت أمّه، ويقوم الآن بدور العَلَقة، ولكن كرقصة فنية" أضافت، بينما التفّ حولنا عدد من الأشخاص، كانوا يعرفونها. سلّموا علينا بحميمية وببساطة غير متكلّفة، وبادروا بالجلوس إلى جوارنا.

ازدحمت الكراسي حول طاولتنا، فقاموا بضم طاولة ثانية طويلة مع الشخصين اللذين يجلسان إليها. في البداية لم يكن باستطاعتي ان اتعرّف بشكل دقيق على بعضهم، مع أنَّ ماما ذكرت أسماءهم جميعاً. كان إلى جواري شخص في الثلاثينات من عمره، قال إنّ

مكتبة الفكر الجديد

اسمه يعقوب من عدن، وهناك، كما بدا لي، هندي وثلاثة صوماليين، منهم عبدي مصمم رقصة الزّار.

بقيت أتحدّث مع يعقوب الذي عرفت أنّه دَرَس الأدب في الجامعة الأميركية ببيروت ويعمل مدرّساً للغة الإنجليزية، فيما ماما بدت أمامي مهتمّةً بأحاديث شاب يمني نحيل، في العشرين من عمره أو يزيد، جلس إلى جوارها.

في جوار هذا اليمني جلس شاب آخر، في العمر نفسه، إلاّ أنّه ممتلئ الجسم وقصير، دعته ماما أحمد الوهطي، وقد بدا بإنصاته في البداية مهتماً بأحاديثهما، لكنّه سرعان ما فتح فمه ليتحدّث إليهما بشكل متواصل لم يوقفه سوى صوت عبدي وهو يرتفع، بعد أن ظل صامتاً بين الجميع: "وَحّدووووه". ضحك الجميع وهم يردّون عليه: لا إله إلاّ الله. سأل الوهطي: "نوحّد الله أم حديثنا؟". فأجاب عبدي: "الاثنين".

لم ننصت إلى بعضنا سوى لحظة قليلة، بعد شهادة التوحيد، إذ سرعان ما عدنا إلى الأحاديث الجانبيّة. لاحظتُ أنَّ حديث ماما مع اليمني والوهطي يشبه حديثي مع يعقوب، من خلال تلك الكلمات العربية التي تصلني منهم عن هويّة عدن وسكّانها، والإدارة البريطانية فيها.

كنتُ منتبهاً إلى عبدي ولم أستطع أن أعبّر له عن مدى إعجابي برقصته. ينظر بصمت إلى الصوماليين الآخرين اللذين يتبادلان، كما يبدو، نكاتاً ساخرة مع مَن كانوا ينادونه: شنكر. بدا عبدي غير مهتم بثرثرتهم، ولا بتلك الأغاني الهزلية المسموعة، بين وقت وآخر، من

مكتبة الفكر الجديد

شنكر، بعبارات هندية قصيرة، يؤدِّيها مع حركات ساخرة من يديه وعينيه وشفتيه.

انتبهت إلى اختفاء عبدي من بينهم، لكنَّني سرعان ما لمحته مقبلاً وفي يديه كرسي جديد، أضافه إلى رأس الطاولة بجوار شنكر، لتتبعته امرأة وتجلس عليه. لقد استقطبها من طاولة أخرى، بعد أن باءت محاولته في توحيد أحاديثنا بالفشل. جاء معها شخص آخر وبيده كرسي ليجلس إلى جوارنا. "ميجي، ابن خالتي" صرختْ ماما مرحِّبةً به، متفاجئةً، مثلي، بوجوده. صار واضحاً أنَّ دخان البخور لم يعد كثيفاً ليخفي ملامح وجهه، كما كان طوال الحفل. رفع الجميع أصواتهم مرحِّبين بالعَلَقة ، كما ردَّدوا اسمها وميجي، النجم الرياضي. اكتفيت بالابتسام وهزِّ رأسي. كانت العَلَقة تعزف الدف في الرقصة بشكل ملفت. لا أدري لماذا يدعونها العَلَقة، مع أنَّ عبدي هو من يقوم بهذا الدور؟ حاولتْ أن تظهر انبهارها بتجمّعنا، من خلال عبارات استُقبلت بالضحك وبالتعليق من قبل شنكر، وقد انفرد بمشاكستها قليلاً، لتبدأ إثرها بالغناء بطريقة هندية، جمعت فيها كلمات هندية وصومالية وعربية وإنجليزية، وسط ضحكات صاخبة من الجميع. لم أفهم المقاصد المضحكة للعبارات، مع أنَّني عرفتُ معاني الكثير من المفردات التي كنت قد سمعتها في أغانٍ مشابهة.

بدت السهرة تصطخب أكثر مع تبادل الأغاني والنكات الساخرة، مع أنَّ عبدي ظل شبه صامت، سوى كلمات قليلة كان يقولها عن أشياء تستثيره من المتحدِّثين. هل يقول كلَّ شيء في الرقصة؟

"سياد لاجئ سياسي صومالي؛ طردته السلطات البريطانية من

مكتبة الفكر الجديد

السودان، بسبب نشاطه السياسي. كان يعيش هناك فجاء إلى عدن. وهذا نور، تاجر مواش وجلود. تعرف بالتأكيد الفنّانة العَلَقة والفنّان عبدي" قال ميجي مُذكّراً بأسماء من كانت ماما قد عرّفتني بهم قبل مجيئه، وأشار إلى "فنّان ونجم مسرح الحكايا"، شنكر الذي كان لحظتها قد عاد يغنّي بصوت جذّاب وأداء استعراضي مَرِح.

انزعجت ماما من عدم حصولنا على شراب الزعفران، كما في كازينو البندر. لكنّ انزعاجها لم يطل بعد أن تناولتُ معها ما سهل من عصير. وقد بدت في نهاية السهرة منتشيةً جدّاً، كأنّ روائح الأشربة التي تناولها المشاركون في السهرة قد بثّت محفّزات النشوة إلى الجميع. قبل أن يصلوا إلى هذه اللحظة كان ميجي قد وضع يده اليسرى على كتفي العَلَقَة وغادر معها دون وداع.

اتفقت مع العدني، الذي وصفته ماما بـ"المعلّم"، وكأنّه اسمه، مع أنّه قال لي إنّ اسمه يعقوب، على أن نلتقي مرّةً أخرى، ولم اعرف أين، كما هو حال اتفاقي مع البقيّة، باستثناء أحمد الوهطي. كان قد بدا سكراناً، فدعت ماما بوّاب الكازينو للاهتمام به وأخذه لينام على السطح. أمّا الشاب اليمني فقد أمسكتْ بيده ليمضي معنا في طريقنا.

"هذا سعيد، ابن عمّتي" قالت، معيدةً التعريف به، ولم تضف شيئاً، إلاّ أنّ طريقة تقديمه إلي كانت توحي بأنّها تقول: هذا سعيد العزيز جدّاً، سعيد القريب جدّاً، فلتتذكّر هذا الاسم.

"ابن عمّتي، ابن خالتي، أمّي، أبي. كل سكّان عدن عائلتك؟" قلتُ لها. نظرتْ إلي بابتسامة كأنّها ضحكة مكتومة. صرتُ أعرف طريقتها في الحياة مع الناس، لكنّني مع هذا اغتظت من تعاملها مع

مكتبة الفكر الجديد

سعيد. بدت، وهي تنظر إليه، قريبةً منه جداً؛ هل تحبّه؟ شعرتُ بما يشبه الحسد، بغيرة. كنتُ وطّنت نفسي أن أبتعد عن هذه المشاعر. ظننتُ أنّها لم تعد في الشخص الذي صرته.

أعرفُ أنّه، مثلي، لا يملكها، ولكن ما موقعه عندها؟

فكّرتُ أن أقبّلها، أثناء عودتي، لأختبر مشاعرها نحوي. هل يُعقل أنني لم أقبّلها حتى الآن؟ صحيح أنّني رغبت كثيراً بذلك، لكنّني لم أبح لها. كانت تشبعني بحنان أكبر من القُبل، تعانقني بضمّة يدها، بعينيها، بضحكتها، بكلامها. مع هذا، فقد صرتُ لا أريد سوى قُبلة كمثل القُبل، لا ما يشبهها. "حلمتُ أنّكِ تقبّلينني وتعانقينني، وأنا صامت لا أعمل شيئا" قلتُ مبتكراً حيلة. "كيف؟ هل يُعقل هذا؟ لقد تراءى لي الحلم نفسه" قالت ضاحكةً ومدّت يديها إليّ.

مكتبة الفكر الجديد

رسالة منه إلى شانتال

رغب في الكتابة إلى شانتال، ليقول لها إنّه صار في مكانٍ بعيد، بعيد جدّاً عن فرنسا. كان قد قابل موظفاً فرنسياً في عدن، عرف منه أنّه سيذهب إلى باريس، بعد أن أخرجوا الألمان منها، ليقضي إجازة لمدة شهر، مع أسرته. لا يدري كيف تسرّع وقال له إنّه سيرسل معه رسالة إلى باريس؟ كانت في باله شانتال، وحدها. فكّر أن يرسل معه رسالة إليها، يطلب منها أن تتذكّره أولاً، ثمّ يقول لها إنّه حلم بها كثيراً، ويرجو منها الذهاب إلى أمّه لتأخذ منها معونةً مالية له، ترسلها مع الشخص الحامل رسالته، والذي سيعود إليها ليأخذ منها الجواب. يأمل لو تخبر أمّه أنّه في مكانٍ ما، ما زال يبحث عن عمل منذ خمسة أشهر. لن يرسل الرسالة إلى أمّه مباشرةً خوفاً من أن تصرّ على معرفة عنوانه من خلال هذا الشخص الذي لا يعرفه جيداً. لكن، بأي اسم سيكتب إلى شانتال: ميشيل أم فرانسوا؟

لو كتب لها باسم ميشيل فستسأل الأم: اين هو، ألم يذهب إلى زوج خالته في عدن؟ هل سيكتب إلى شانتال، مستبقاً حديث الأم، أنّ هذا الخال قاسٍ جدّاً، ويطالب الفرنسيين الشباب بعدن أن يعودوا

مكتبة الفكر الجديد

إلى فرنسا لأداء الواجب الوطني مع المقاومة المسلَحة؛ هو لم يقل له إنّه ابن أخت زوجته، ولم يسلّم له التوصية، التي حملها بين أوراق كثيرة لفّت بخيط حريري. لكنّه صار يدرك، وقد قابله للاستفهام عن الوظائف، أنّ هذا الخال سينكره، ولن يصدّقه، إذا قدّم إليه التوصية، على اعتبار أنّ ابن أخت زوجته يفترض أن يكون رُبّي تربيةً وطنية حسنة، وبالتالي سيكون في الجبهة، وليس أمامه يستعطفه بعرجه، من أجل إيجاد وظيفة مكتبية.

أم فرانسوا ستكون، ربّما، أكثر تفهماً. لكن على شانتال، في هذه الحال، أن لا تخبرها بمكان الابن. فقد تسهو يوماً وتخبر الأب عن مكانه، فيقوم، وهو **الوطني جداً**، بإعطاء العنوان موظفي مكتب الخدمة العسكرية الذين سيلاحقونه ولو كان يحمل اسماً آخر، أو صار بدون اسم.

لكن كيف ستتفهم أم فرانسوا حديث شانتال، وابنها كان قد قال لها إنّه سيلتحق بفرقة المقاومة المسلّحة؟

قبل هذا كلّه، كيف ستعرفه شانتال، وقد خطرت له فكرة أن لا يكتب أيّ اسم على الرسالة؟

سيكتفي، فقط، بتذكيرها بعلامات حدثت بينهما، وآخرها ذلك الوعد من قبله بأنّه سيهديها أجمل هدية في فرنسا، بعد أن يتسلّم أجره الوظيفي. تحديداً قال لها: أجور الثلاثة أشهر الأولى من الوظيفة ستكون قيمة هديّتك. سيحدّثها عن استجابتها لقبلته الخاطفة، أثناء ترصّده لها، وهي تخرج من حمّام الطالبات في المدرسة، عن جلبه الآيس كريم لها مرّات عديدة. ألا يكفي هذا لتفرّق بينه وبين أيّ زميل

مكتبة الفكر الجديد

آخر لهما؛ على وجه الخصوص للتفريق بينه وبين منافسَيه الآخرَين في حبّها؟

شروحه هذه بدت له كافية لتتفهم شانتال إخفاء اسمه من الرسالة، وكذلك إخفاء شكل خطّه بطباعة الرسالة على آلة كاتبة. أعطى العنوان حامل الرسالة وقال له: لا تقل لها أين أنا، ولا تذكر لها اسمي، ليكن ذلك مفاجأة.

في ما بعد تذكّر أنّ حامل الرسالة نفسه لم يكن قد عرف اسمه، إذ إنّهما لم يتبادلا الأسماء حين تعارفا، واكتفيا بالقول إنّهما سيلتقيان بعد عودته في كازينو البندر.

مكتبة الفكر الجديد

شراء الحرب

مشيتُ من صومالي بورا في المعلا إلى ساحل التواهي، وحيداً سوى من العرج المصاحب لي أينما اتجهت. أردتُ أن أمضي إلى البحر وأتحسس موجاته، علّني أتكشّف معها حالي الذي أنا فيه، أو أهدّئ قليلاً من هواجسي عمّا حلمتُ به: جاؤوا إلي وألبسوني البدلة العسكرية لأقاتل في جبهة الحرب. كنتُ شرساً وأنا أبيد صفّاً كاملاً من الجنود في الجبهة المقابلة؛ ثم أبَدْتُ صفّاً ثانياً، ورحتُ بعدها أقتل جنوداً نياماً، واحداً واحداً. أسقطتُ طائرةً ببندقيتي، لكنّها حطّت على رأسي فصحوت من النوم.

في طريقي إلى البحر بدت الأجواء غير هادئة. الجميع متوترون. يتحدّثون عن الحرب بانفعال، إذ أُشيع أنّ الايطاليين سيهاجمون عدن من الجو.

استذكر أبو الفضل، في كازينو البندر أمس، تحليق الطائرات الحربية الإيطالية فوق منطقة الشيخ عثمان: "قبل أربع سنوات سقطت طائرة إيطالية من نوع قاذفات القنابل في حصن بلعيد. أسرها الدفاع العدني وقبض على ملاّحيها الخمسة. أيّامها هرب السكّان إلى لحج

مكتبة الفكر الجديد

وقرى اليمن تخوفاً من الغارات الجوية".

إلى أين سأذهب إذا امتدت هذه الغارات؟ سألتُ نفسي، وأنا أسمع فرانسيسكو يتحدّث عن توقعات مغرضة وغير مؤكدة باستهداف أسواق كريتر، ميناء التواهي، المعلا، وخور مكسر من قبل الطائرات الإيطالية. وقد وافقه وليم بالقول إنّها مجرّد شائعات. "أنت عسكري وتعرف" قال له فرانسيسكو. كنتُ قد عرفت أنَّ وليم كان ضابطاً في سلاح الطيران الملكي البريطاني وتحوّل، أخيراً، إلى العمل في الأمن الداخلي. "لن تكون هناك أي غارت جديدة على عدن في ظل ما توصّلت إليه الحرب من تطوّرات" قال وليم. "ولو حدث القصف الجوي من إحدى دول المحور المتحالفة مع هتلر، مع أنَّ هذا مستبعد، فسيتركّز على خور مكسر، حيث المعسكرات" أوضح.

صارت أخبار الحرب تختلط بالأغاني في الكازينو. أبو الفضل رآني كثير الأسئلة. "لا تقلق، تعال معي إلى لحج، بعيداً عن ضجيج الحرب" قال.

أعطاني المعلّم، حين وصل وجلس إلى جوار أبي الفضل، منشوراً ضد النازية، وجّهت عباراته إلى العرب المناصرين لموقف هتلر ضد اليهود: كيف تطلقون عليه اسم الحاج محمد هتلر، وتصدّقون أنه أسلم وحج إلى مكّة، وهو ملحد كافر بالله ومدعي ربوبيّة؟

حين مررتُ صباح أمس من شارع الملك سليمان وأنا في طريقي إلى العارف، لم أرغب كعادتي في دخول المعهد البريطاني لأعرف أنشطته، بعد أن أدركت، في زيارتي الأخيرة، أنَّ المعهد

مكتبة الفكر الجديد

قلّص المحاضرات العامة التي يقيمها، وصار همّه الرئيس هو الدعاية للحلفاء في جبهة الحرب، كحال المطابع التي لا تزال أوراق مؤسسة الوقاية من الغارات الإيطالية متناثرة حول مكائنها.

أخبرتُ العارف أنَّ صوت الخطيب في المسجد القريب من حافة حسين كان مؤثراً حين دعا إلى الجهاد ومحاربة المعتدين. "سمعتُ معظم الخارجين من المسجد يتحدّثون عن دعوته المصلين إلى التبرع لشراء طائرة حربية جديدة تحمي عدن" قلتُ له، فضحك. "يشترون الحرب، مع أنَّ في داخلهم منها ما يكفي للبيع والتصدير" قال، وبعد لحظة صمت أضاف: "لا تخف من الحرب، عدن صارت بعيدة عنها".

في ساحل البحر حاولتُ أن استعيد بعض اطمئناني، مع أنَّ الحرب احاطت بكل شيء، حتى بأولئك غير المباليين، أو الذين يحاولون ان لا يبالوا ويبدون كأنّهم كائنات مختلفة، عمارات أو أشجار أو امواج أو صلاة. حتى إنّني لم أرَ كنيسة القديس أنطونيو الكاثوليكية في التواهي وادعةً كحالها في اليوم الذي جئت فيه إلى عدن، كأنَّ المصلّين استبدلوا أنفاسهم بادخنة حروب، أو انّهم منحوني نظارة غير مرئية، صرت أرى فيها الأشياء على هذا النحو. لماذا لا أحمل، في نفسي، سلام العارف؛ أتخلّص من الشخص القلق في داخلي، الذي يبحث دائماً عن حال يختلف عمّا هو عليه؟ لأكن آخر، ولو لمرّة واحدة. لكن متى قبلت أناي التي أنا عليها لأقول إنّني هي ولستُ آخر؟

هناك شباب يسبَحون، يتسابقون ويتضاحكون، نساء في ملابس البحر يلاعبن أطفالهن بالماء. فيما كنتُ أسبح بهواجسي إلى البعيد،

مكتبة الفكر الجديد

إلى هناك، حيث تركت نداء المقاومة والتطوع للدفاع عن الوطن، لأجد النداء نفسه وقد لاحقني إلى هنا. ربّما كان قد سبقني، أو حملته معي؛ اختفى في أذني، وها هو يُسمعني صوته من جديد.

"ياسين عليك يا عدن من قَرْحة المدفع" يغنّي الرجل العجوز على الشاطئ. أحلتُ سمعي إليه محاولاً التخلص من نداءات صاخبة في أذني وكلّ رأسي. كان يجلس، غير مبالٍ بمن يسمعه أو يراه، متكئاً على صخرةٍ صغيرة، وعيناه شبه مغمضتين.

مكتبة الفكر الجديد

العَدَني

ربّما كان هو الفضول الذي دفعني للذهاب إلى مقهى زَكّوْ في ميدان كريتر. سمعتُ عن المقهى كثيراً ولم أستطع أن ألبّي الدعوات المفتوحة إليه من سعيد وميجي ويعقوب المعلّم. قالوا لي إنّ جلساتهم فيه تبدأ قبل المغرب ولا تنتهي إلاّ في ساعة متأخرة من الليل، إذا لم تكن هناك التزامات لديهم، أو سهرات في أماكن أخرى.

كنتُ قد وصلتُ إلى باب المقهى، حين رأيتُ العارف يمشي بخطوات سريعة، بالقرب مني، وبجانبه اثنان. سارعتُ للاستفهام منه. أخبرني أنّ اعتداءً قد تمّ على فرانسيسكو، بعدما تردّد عن عزم الطائرات الايطالية استهداف عدن. "ساروح أزوره. فرانسيسكو ليس له علاقة بطائرات إيطالية الحربية. الايطاليون، أصحاب شركة الملح، اعتقلوهم قبل سنوات ونفوهم من عدن، لأنّ بلادهم تساند ألمانية" قال. "فرانسيسكو موظف، فقط، في مصنع الملح. يعتقد النّاس أنه يملك المصنع. حتى لو كان ملكه، فسيتاجر بالملح، لا في الحرب" أوضح ورأى ألاّ أذهب معه بسبب الأجواء المعكّرة.

صرتُ أكثر قرباً من فرانسيسكو الذي بدا لي، وأنا أنصت إليه

مكتبة الفكر الجديد

في جلسات الكازينو، أنّه لن يغادر إلى أي مكان آخر، وسيبقى في عدن رغم كل الحملات الدعائية ضد إيطالية والإيطاليين. كان كثير اللهو، مع أنّ ذكريات الحرب تُخرسه في كثيرٍ من الأوقات، إذ تركت نظرته إلى العالم متوحشةً، بعد أن فقد أباه فيها، وإثر ذلك جنّت أمّه وتاهت، ولم يعثر، قبل أن يجيء إلى عدن، على أي أثر لها.

"عمّن تبحث؟" قال العامل وهو يراني أتلفّت إلى زوايا المقهى. احترتُ، عمّن أسأل. "سعيد اليمني" قلتُ، وكنتُ قد لمحت شخصاً يشبهه. "تقصد سعيد الحُجَري، هو هناك" وأشار إلى متجمّعين يجلسون على كراتين في جانب من الساحة، ويلعبون الورق (البطّة). رأيته. هو نفسه سعيد اليمني، أو سعيد الحُجَري، حسب وصف العامل.

"سلام مُربّع" هكذا قال سعيد وهو يصافحني. دعا عامل المقهى وطلب منه أن يأتي بكرسيين وطاولة و"اثنين شاهي مُلبَّن على كيفك". أصْرَرْتُ على أن أجلس على الأرض، على الكراتين بجوارهم، لكنّه أقنعني بأنّه يريد أن يجلس على كرسي لنتحدّث وحدنا، فيما زملاؤه الجالسون، وعددهم أربعة، سيواصلون اللعب. أتى العامل بكرسي خشبي طويل يستوعب ثلاثة أو أربعة أشخاص، وبطاولة خشبية صغيرة مربّعة ليضع فنجاني الشاي عليها.

بدا المقهى صغيراً مقارنةً بشهرته. رُصّت في داخله وأمامه بضعة كراسٍ وطاولات خشبية. لكن المساحة المفتوحة أمامه وبجانبه، والتي يفرش روّاد المقهى عليها الكراتين ويجلسون، بدت كفيلةً

مكتبة الفكر الجديد

ينشر كلّ هذه السمعة عن المقهى. كانوا يجلسون للعب الورق (البطّة) على شكل حلقات دائرية، كلّ حلقة فيها ما بين الثلاثة والسبعة أشخاص، على كراتين تحمل علامات تجارية لبضائع من كلّ مكان في العالم، وبالأصح من أيّ مكان فيه بضائع ويصدّر؛ مع انّ أغلبها، كما لوحظ، هندية وبريطانية.

هناك زاوية في المقهى، فيها حزمتان طويلتان من الكراتين. كلّما قدم أحد، أو جماعة، أخذوا منها ما يكفيهم للجلوس. بعضهم يقون رابطين ظهورهم إلى ركبهم بشالٍ ملون من الحرير، أثناء الجلوس للعب، أو للتفرّج على اللاعبين.

"سمعتُ عن محاكمة جرت لمتشرّد سرق فنجاني شاي من هذا المقهى" قلتُ.

ضحك سعيد وكأنّني قلتُ نكتة. "كان ذلك قبل فترة" قال، وراح، بلغة إنجليزية متقطّعة وركيكة، يهاجم الرأسمالية وإداراتها الاستعمارية: "السارق الكبير يحاكم السارق الصغير. يسرقون أوطاناً بحالها، ثمّ يقومون بمحاكمة فقير، لأنّه أخذ فنجانين، ويسجنونه ثلاثة أشهر".

لم يتفق معه يعقوب، المعلّم، وكان قد وصل لحظتها، وجلس إلى جوارنا. "القانون يجب أن يطبّق على كل صغير وكبير. أنا مستغرب منك" قال. "أليس هذا هو حُكم الإسلام؟" أضاف.

"علينا أولاً أن نتحرّر من الاستعمار، ثمّ نختار قوانيننا، بناءً على ثقافتنا وهويّتنا العربيّة. نقرّر بأنفسنا الطريقة التي ندير بها بلادنا".

"بلادكم هناك في اليمن".

مكتبة الفكر الجديد

”كلّ أرض عربيّة هي بلادنا، وعدن يمنيّة عربيّة؛ لا مكان فيها لغير العرب“ رد سعيد.

مضيا في نقاش، بقيتُ خلاله أحاول أن ألوّح بيدي إلى ميجي الذي يلعب ورق البطّة مع ثلاثة آخرين في الجهة الأخرى من الساحة. ذهبتُ لأسلّم عليه فأصرّ على أن يترك اللعب ويأتي ليجلس معنا.

هدأ جو النقاش بعد مجيء ميجي وإنصات الجميع إلى نكاته التي بدأها بدون مقدّمات: ”إليكم نشرة الأخبار من البي بي سي: وصلنا أنّ التاجر الشهير في عدن مناحيم ميسا حلم بفأر ضخم أفزعه من النوم، فاستورد مصائد للفئران، لكنّه مُني بخسارةٍ مالية كبيرة ولم يكسب لأنّ عدن مليئة بالقطط“. ضحك الجميع. ”من جانبه قرّر قهوجي شافاكشا دنشاو إضافة صفة 'عدن وَالاَ' إلى اسم شركته. بينما السكّان العرب يعتبرون العبارة تهديداً ووعيداً منه، إذ هم ينطقونها: عدن وإلاّ“. وتواصلت الضحكات مع وقوف قادمين جدد إلى المقهى ليسمعوه.

ما أوقف هذا الجو المضحك، بأخباره المؤلفة عن تجّار عدن ومعظمهم صاروا ميّتين، هو قدوم شخص يلبس قميصاً أبيض وغطاء على رأسه، عرّفوا به لي بالقول إنّه الشيخ عبد الجبّار، إمام مسجد، ولم يذكروا لي اسم المسجد.

سألني، بعد أن جاؤوا بكرسي ليجلس عليه، عن بلدي وسبب مجيئي وما عملي. كان يتحدّث بلغة عربيّة فصيحة، سهّل لي فهم بعض مفرداتها، ومعاني جملها بمساعدة ميجي والمعلّم.

”ها، وأنت ما رأيك بمحاكمة سارق الفناجين؟“.

مكتبة الفكر الجديد

انتبه الشيخ لسؤال المعلّم وراح يحاول أن يجيب عنه بكلمات، بدت من ملامحه أنّها غاضبة.

"أليس هذا هو حُكم الإسلام، الذي تدعون إليه، في معاقبة السارق؟" أعاد المعلّم السؤال نفسه الذي كان قد وجّهه إلى سعيد.

"حُكم الإسلام؟ أي إسلام هذا؟ ولا تولّوا اليهود والنصارى، هذا أمر من الله عزّ وجل. كيف ستحكم بريطانيا بشرع الإسلام وولايتها باطلة شرعاً، هذي بلاد المسلمين وليست بلاد بريطانيا" أجاب الشيخ.

"لم أعد اقدر أن أناقشكم أو افهمكم. ماذا تريدون بالضبط؟ ما تقولونه كلام لا يُعقل" قال المعلِّم بنبرةٍ غاضبة؛ ارتفعت معها أصوات المتحاورين، ولم أستطع، مع ميجي، أن اجد أيّ حيلة تساعد على تهدئة النقاش أو تخفّف حدّة العبارات المتبادلة بينهم. بدا الشيخ غاضباً. تحدّث عن مخاطر عدم اتّباع تعاليم الإسلام، قائلاً، كما فهمت من عباراته الفصيحة، أنّ ليس المطلوب من أي أحد، أو جماعة أو حزب، أن يفكّروا بأي شيء، مع وجود قادة الإسلام، مرشدي الأمّة، الذين يفكّرون للجميع ويرشدونهم إلى طريق الإسلام الصحيح، طريق الهداية والصلاح.

"هيّا تعالوا صلّوا لو كنتم مسلمين؟" قال الشيخ عبد الجبّار وهو ينهض ويمضي، بعد أن سمع الأذان. لم يستجب له أحد من الحاضرين. "لو كنتَ إماماً جيّداً لما عُزلتَ عن الخطابة والإمامة من المسجد" قال المعلّم وهو ينظر إلى الشيخ، بعد أن مضى مسافةً لم يعد بإمكانه منها سماع ما يقال عنه.

قال ميجي إنّ الشيخ عبد الجبّار هو من دعا في خطبته، للمرّة

مكتبة الفكر الجديد

الثانية، إلى التبرع بشراء طائرة حربية للدفاع عن عدن. "ينادونه بالخطيب الجوّال، لأنّه بعد منعه من الخطابة في المسجد الذي كان إماماً فيه، اضطر للذهاب إلى مساجد أخرى. ما إن ينتهي فيها المصلّون من أداء صلاة المغرب، حتى يقوم هو ويرتجل خطبة" أضاف.

ظلّ المعلّم يحاول أن ينفي عدنية سعيد بتأكيده على أنّه يمني، فيما سعيد يعتقد أنّ يمنيّته لا تقتصر على المملكة اليمنية المتوكلية فقط، بل تشمل، أيضاً، عدن وكلّ سلطنات وإمارات ومشيخات الجنوب العربي، كما وصفها. "كلّ كتب التاريخ تقول إنّ عدن جزء من اليمن"، قال، "ألم تقرأ هذا وأنت المثقف الشاعر؟".

ابتسم المعلّم قبل أن يجيب عن سؤال سعيد الذي وصفه بالشاعر. "بل قرأت كل ما يتعلّق بعدن أثناء دراستي في بيروت" قال وأشار إلى كتب مؤيدة لما قاله سعيد. "لكن ماركوبولو سمّى اليمن بمملكة عدن وملكها بملك عدن" أضاف، ليسأل: "ألا يعني هذا أنّ اليمن جزءٌ من عدن وليس العكس؟"، وإذ اتّسعت ابتسامته أكثر، وكأنّه تذكّر أيّامه تلك في بيروت، راح يشرح ما ذكره المؤرّخون الأقدمون عن عدن، وكيف أعطوها مكانةً خاصة، سواء مع صلتها باليمن أو بدونها. ولم ينسَ أن ينوّه إلى أنّ هناك من قال إنّ عدن ليست عربية.

لا يرى سعيد صفة العدني صحيحة، ويعتبر الدعوة إليها مخالفة للانتماء الوطني والقومي، بالرغم من أنّه صار، هو أيضاً، يُدعى العدني، في قريته بالحُجَرِيَّة بتَعِز. ليس لأنّه يعمل في عدن ويجيء منها لزيارة العائلة، كما قال، وإنّما "لأنّ عدن، بالنسبة إليهم، هي

مكتبة الفكر الجديد

البلد البعيد. حتى إنَّهم يلقبون كلّ من يسافر إلى بلدان أخرى ويعود بـ'العَدَني'، وإن لم يمرّ من عدن".

"أنا عدني، لقد صرتُ عدنياً" قلت لماما وأنا أنقل إليها في البيت تعريف أهل قرية سعيد للعدني. "ومن قال لك غير ذلك؟" سألتْ، لتضيف: "أنت عدني. طبعاً أنت عدني".

مكتبة الفكر الجديد

شانتال الأخرى

لولا الوزّة التي رسمتها شانتال كتوقيع لها في نهاية رسالتها، ومعرفته بخطّها الأنيق، المُنظّم والمُشكّل كلوحة، لقال القادم إلى عدن إنَّ هذه الرسالة ليست منها، وإنَّ الاسم الذي أنهت به الرسالة هو لشانتال اخرى.

ما كتبته الوزّة، كما كانت تحب أن تُنادى، أثار فيه الكثير من التساؤلات؛ بالأصح حوّله إلى كومة من قلق.

"حاولتُ كثيراً أن أستذكر شخصيتك، من خلال ما ذكرته من علامات، لكنّني لم أستطع ان أصل إلى معرفة من تكون. لقد ذهبت إلى أربع أمّهات ظنّاً مني ان تكون ابناً لإحداهن إلاَّ أنّني لم افلح في إقناع واحدة منهن بإعطائي معونة لابنها الذي هو أنت. لم أذهب إليهن إلاَّ بعد أن تأكّدت من غياب أولادهن الأربعة الذين كانوا زملاء لي في الفصل الدراسي الأخير، كما ذكرت، مستذكرةً ما أشرت إليه: تناولنا الآيس كريم والهدية و...".

والقبلة؟ لماذا لم تكمل جملتها في الرسالة؟ ألم تتحقّق ذاكرتها من القبلة بجوار حمّام الطالبات بالمدرسة؟ كيف لم تعرفه وقد ذكّرها

مكتبة الفكر الجديد

بتلك اللحظة التي لا تُنسى في العمر، حيث مارسا قبلةً حميمة، اعتبرها أول قبلة مشتهاة في حياته. ألم تكن القبلة الأولى في حياتها هي أيضاً؟ هل تعني رسالتها أنّها قد مارست القُبل مع الأربعة الذين ذهبت إلى أمهاتهم لطلب المعونة؟ وماذا عن وعده بشراء هديّة لها بأجور الثلاثة أشهر الأولى من الوظيفة التي لم يكن عرف ما هي وأين ستكون؟ هل الزملاء الأربعة، جميعهم، وعدوها بقيمة الهدية نفسها؟ ثمّ من هذا الرّابع؟

يستذكر كل زملاء الصف الثلاثة والعشرين، الذين لم يكن يعرف عددهم قبل أن يجهد ذاكرته محاولاً اكتشاف ذلك الرابع الذي نافسهم على حب شانتال. لم يستطع أن يحدّده، فباستثناء الثلاثة لم يكن أحد لديه المؤهلات ليفوز بحبّها. قد تكون هذه المؤهلات، أو إحداها، مفقودةً عند الاثنين المنافسين، أو عند أحدهما، إلاّ أنّ هناك علامات أخرى كانت تؤكّد وجود تقارب حميم بينهما وبين شانتال.

"اثنان منكم صارا مطلوبين من مكتب الخدمة العسكرية، بعد أن تحرّرت باريس، ولا يُعرف أينهما. وواحد كان قد التحق بالمقاومة المسلّحة لأداء الواجب الوطني، وآخر مسافر إلى عدن، عند أهل له هناك، ولكن أخباره منقطعة. فهل أنت هذا الآخر؟ إذا كنت هو فقد قالت لي امّك إنّ عليك أن تتواصل عبر زوج خالتك، وإنّها سترسل بالمال عبره". توضح شانتال دون ذكر أسماء لأنّه طلب منها ذلك.

من هما الاثنان المطلوبان للخدمة العسكرية؟

إذا كان من المؤكّد أنّ فرانك هرب من المشاركة في المقاومة، فإنّ الثاني المطلوب، إلى جانبه، إما أن يكون هذا الرابع غير المعروف أو فرانسوا.

مكتبة الفكر الجديد

ليس هناك من يستطيع أن يؤكّد أنّ الشخص الذي يحمل اسم ميشيل في عدن هو فرانسوا. لماذا لا يكون هو ميشيل نفسه؟ ميشيل الذي أقنعه فرانسوا بعدم الذهاب إلى الحرب وليس ميشيل الأخر، ميشيل السابق المتحمّس للذهاب إلى الحرب وتحرير الوطن؟

في هكذا حال، إمّا أن يكون قد أقنع كلّ واحد الآخر، فذهب فرانسوا إلى جبهة الحرب فيما جاء ميشيل إلى عدن، أو يكون فرانسوا، وحده، من أقنع ميشيل، فيما بقي هو على قناعته؟

في الافتراض الأخير، سيكون الشخص الرابع هو من ذهب للتجنيد، وتكون الطريق التي ذهب فيها فرانسوا غير معروفة الوجهة.

"وآخر مسافر إلى عدن، عند أهل له هناك، ولكن أخباره منقطعة. فهل أنتَ هذا الآخر؟" تكتب شانتال، متسائلةً في رسالتها.

لا يبدو أنّه مازال يعرف من هو، هل هو هو أم الآخر؟ ما يعرفه أنّه هو من سافر إلى عدن وأنّ الذين هو عندهم أهله، لكنّهم ليسوا أولئك الأهل المشار إليهم في رسالتها، وإنّما الأهل الأهل، أهل عدن الذين صاروا الأقرب إليه، ومن يأمل أن يُدعى، مثل واحد منهم، في يوم ما: العدني.

ما كان قد ظن أنّها غفلته، أو تناسته، وجده في ختام رسالتها: "أمّا عن القبلة، فلديك ذكرى خفيفة حولها. أستغربُ. لقد كنّا نمضي معها بعيداً؛ إلى ما بعد القبلة. ألا تذكر؟ صرتُ أحمل سرّاً يجمعنا".

خاطبته بطريقة أربكته. فمع أنّها لم تعرف من هو من بين الأربعة، كتبت: "لديك ذكرى خفيفة"، ثم أشارت إلى أنّها صارت تحمل (سرّاً يجمعنا). يجمع من؟ هل يجمعهم، كلّهم، الخمسة؟ أم يجمعه

مكتبة الفكر الجديد

هو وهي فقط؟ ومن يكون هو في هذه الحال؟ هل تعني بهذا القول إنَّها حُبلى، تحمل جنيناً ممن مضت معه، أو معهم، إلى ما بعد القبلة؟ ما الذي حدث له؟ صار مشتتاً، كرسالتها المرتبكة. كأنَّه كان في حلم لم يعد يذكره، كتلك الأحلام التي تُنسى مع الصحو.

مكتبة
الفكر
الجديد

أسماء مكرّرة

"سآتي معك غداً إلى منزل أمّي ماري، لقد اختارتك لتدرّس ابنتها، ماري الصغيرة، اللغة الفرنسية" قالت ماما حين عادت أمس إلى المنزل.

كان من الطبيعي أن أوافق على الذهاب عصر كل يوم إلى منزل السيد جراهم والسيدة ماري في التواهي لأدرّس ابنتهما، لكي لا أصبح عالةً على ماما بعد أن أكملت مدخراتي المالية التي جئت بها من باريس، بما يشبه المعجزة. ليس هناك من خيار آخر، وقد رفضت أمّهاتي الأربع إعطائي معونةً مالية، كما رفض السيد آلبر توظيفي في شركة أنتونين بِس، بحجّة أنّ واجبي هو أن أكون في جبهة القتال، أهب روحي وجسدي في سبيل الوطن، لا أن أكون هنا في عدن باحثاً عن عمل، مفضّلاً حياة النفس على حياة الوطن وكرامته وعزّته.

قدّمتُ إليه كل متطلبات شروط الوظيفة بما في ذلك دراستي للغة العربية. لم أجرؤ على التقدم للوظيفة في الإعلان السابق لعدم قدرتي حينها على تلبية هذا الشرط. لكن، إذ صرت أظن أنّني على قدرة لغوية لا بأس بها، بعد دراسة مكثفة لمدّة سبعة أشهر ونصف

مكتبة الفكر الجديد

عند العارف، سارعتُ إلى محاولة الفوز بإحدى وظائف الإعلان الجديد. كانت ماما تؤكّد أن ليس هناك مشكلة في أوراق الهويّة وأنها ستتدبّرها في حال قبولي للعمل.

لم يلتفت السيد آلبر إلى عرجي اللافت، مع الجزمة الخشبية، فما بدا أمامه لا يعفيني من أداء الواجب الوطني، الذي ثرثر كثيراً عنه. كنتُ سمعت من فرانسيسكو أنَّ البِس، الذي يعمل لديه آلبر، يكره الحرب، وأنَّ ما يقوم به المكلّف باستقبال طلبات الوظائف لا يتفق مع توجّه رب عمله. لهذا، حين زرته في المرّة الأولى، قبل سبعة أشهر، لأستفهم عن الوظائف، ظننته غير جاد في حديثه عن ضرورة أن يذهب الشباب الفرنسي للمشاركة في الحرب، أو أن أذهب، أنا الأعرج بالذات، إليها. أمّا وقد قدّمت لإحدى هذه الوظائف فإنَّ موقفه صار واضحاً. ذكر لي بعض الأعمال والطرق التي باستطاعتي أن أنفذها هناك في الجبهة، دون أن يزحزحني، مع هذه المهام، إلى الصف الثاني من الجبهة، فمكاني هو في الصفوف الأولى المقاتلة.

"لا تهتم بكلامه. البِس نفسه رفض أداء الخدمة العسكرية في الحرب الأولى. قال لي إنّه زار فرنسا فاستُدعي إلى حامية مونبلييه. لم يكونوا يعرفون أنّه قد صار مليونيراً. أصرّ على رفضه حتى سمحوا له بالعودة إلى عدن" قالت ماما. "إذن، البِس مثل رامبو، هرب من أداء الخدمة العسكرية" قلتُ، فضحكتْ. "البِس في إجازة وإلاّ كنت سأكلّمه. حين يعود سيكونون قد أقرّوا أسماء المقبولين للوظائف" اضافت.

مكتبة الفكر الجديد

"اسم البنت ماري. أسمتها أمّي ماري هكذا لتخلّد اسمها" قالت ماما ونحن في طريقنا إلى البيت التي سأؤدي فيها الدروس.

انتبهتُ لتكرارها عبارة "أمّي ماري". كنتُ أظنّ أنّها تشبه الآخرين، ممن تناديهم: ابي، أمي. لكنّها قالت حين لمحتني مستغرباً: "القصّة طويلة، وليست مهمّة لننشغل بها".

هل هي قصّة أخرى إلى جانب قصّة علاقتها مع العائلة الصومالية، وكيفية تعلّمها عدّة لغات، أم أنّها قصّة واحدة، لها بيوت وأمّهات كثيرات كأمّهاتي؟ لم أسألها، وقد أضافت: "أبي فارح يعمل حارساً في منزل أبي جراهم".

كنتُ أسمعه يتحدّث عن مناوبته في العمل كحارس لمنزل ضابط بريطاني، وها أنا قد رأيته يقف حاملاً بندقية وهراوة أمام هذا المنزل، المسقوف بقرميد على هيئة كوخ بالقرب من ساعة ليتل بِن، على تل مرتفع من شارع الهلال. استغربتُ من طريقة ماما في تقديمي إلى فارح وكأنّنا لم نتعارف من قبل. "هل لديك موعد مع أحد في البيت؛ متى، ولماذا؟" كان جادّاً وهو يسأل. غمزت لي ماما بعينها لتشعرني أنّ في الأمر سرّاً، وتركتني أجيب عن الأسئلة وحدي. بدت المسألة غير سهلة، إذْ دخل فارح إلى المنزل وعاد ليطلب منّي الانتظار.

جلسنا الثلاثة صامتين كأنّنا لا ننام على سطح بيت واحد؛ كأنّ ماما لا تدعو هذا الرجل الكهل "أبي". مرّت لحظات طويلة ومملّة، عاود فارح بعدها الدخول إلى المنزل ليرجع بابتسامة، خفيفة مُرحّبة، بدا وكأنّه حاول جاهداً أن لا يبديها إلاّ إذا سمحوا لنا بالدخول. ربّما

مكتبة الفكر الجديد

كان يظن أنهم قد لا يسمحون لنا بالدخول، لهذا بقي متجهماً؛ في حال لن يكون معه مضطراً إلى تبديل ابتسامة بادئة بتجهم، هو من علامات عمله كحارس حازم لمنزل قائد عسكري، حيث سيكون عليه أن يقول بنبرة قاطعة "ممنوع الدخول" دون أي عبارات تبريرية يضطر لمجاملتنا بها.

حاولتْ السيدة جراهم أن تبدو لطيفة. حيّتني بكلمات فرنسية قليلة، ربّما هي كلّ ما تعرفه من هذه اللغة. لم تهتم بالسؤال عن عرجي، مع أنّها راحت، قبل أن تطلب عصير المنجا لي من خادمتها، تسألني عن كلّ ما يتعلّق بحياتي، بما في ذلك سبب وجودي في عدن وليس في جبهة الحرب لأقاتل مع جيوش الحلفاء ضد هتلر.

طلبتْ من ماما أن تذهب لتأتي بالابنة، قبل أن تنصت إلى جوابي. لا أدري كيف نجوت من أسئلتها. "سأدفع لك أربعين روبيّة في الشهر مقابل تدريسها ساعتين عصر كلّ يوم عدا السبت" قالت. ولم أعرف لماذا السبت بالذات وليس الأحد.

"موافق، شرط أن تكون المواعيد دقيقة"، وتجرأت أكثر: "حتى لا أضطر إلى الجلوس بالباب إلى أن يؤذن لي بالدخول، مثل اليوم".

هزّت رأسها في تعجّب، في اللحظة التي أقبلت فيها ماما إلينا ومعها فتاة بدت في السابعة عشرة من عمرها.

"أنا ماري مكرّر" قالت الابنة مع ابتسامة، ومدّت يدها للمصافحة، مستبقةً أي تعريف يقدّمها إلي.

"لو لم يكن لديكَ أي مانع فلتبدأ الدروس من الآن" قالت لي الأم، فيما التفتت إلى ابنتها، كأنّها المعنيّة بالموافقة ولست أنا.

مكتبة الفكر الجديد

وجّهت إلي البنت نظرةً متفحّصة. "لا مانع لدي" قالت. وهززتُ راسي موافقاً.

أخذتني البنت إلى صالة أخرى صغيرة، وبقيتْ ماما مع الأم.

في الصالة مقعد طويل يسع ثلاثة أشخاص، مغطّى بكسوة رمادية اللون، مطرّزة حوافها بخيوط صفراء داكنة، من طراز قديم يشبه ذلك الطراز الذي تبدو عليه كراسي الأمراء والملوك في اللوحات والصور. وفي الجانب الآخر مقعدان فرديان بالطراز نفسه.

كان عليّ أن أجلس على المقعد الطويل لأكون بالقرب من الطاولتين الصغيرتين الموضوعتين أمامه، بطرازهما الجديد، المطلي بألوان مشابهة لألوان الملابس الهنديّة الداكنة، الحمراء والخضراء والزرقاء والبنفسجية، والمتناقض في شكله مع الطراز العتيق للكراسي.

جاءت ماري مكرّر، كما تطلق على نفسها، بدفتر يحتوي على أوراق رمادية بسُمك كبير ووضعته أمامي مع قلمين نحيلي السُمك بلون ذهبي.

أردت في البداية أن أهجّئها الحروف الفرنسية، وأحفّظها الأرقام، لكنّها بدت مستعجلة. طلبت منّي أن أكتب لها عبارات كاملة لتحفظها، تتعلّق بمقابلة الأشخاص ومحادثتهم. طلبها هذا أعفاني من التفكير في منهج مناسب لتعليمها.

بقيت نظراتها موجّهة إلى وجهي، لا تزيحهما إلاّ قليلاً، في حال أرادت التدقيق بكتابة كلمة أو عبارة. لم أستطع مجاراتها. ألحظ حركة عينيها من زوايا نظر محدودة، أبقيتُها باتجاه الدفتر الذي

مكتبة الفكر الجديد

نكتب فيه، محاولاً تجنّب التقاء نظراتي بنظراتها، مع أي سؤال منها، أو بعد جملة شارحة مني.

"لو لم تكن بهذه الوسامة لما وافقت أن تبدأ تعطيني الدرس من اليوم" قالت بجرأة مفاجئة لي. فرفعتُ عينيّ لأرى نظراتها المصوّبة نحو وجهي.

"شكراً جزيلاً، شكراً..." قلتُ ونكّست رأسي خجلاً.

لم أستطع أن أواصل الدرس، وسط جوٍّ من الارتباك، بالأصح مع ارتباكي أنا، إذ شعرتُ أنني لم أعد قادر على مجاراتها في الحديث، وقد صار له لغة أخرى، لغة مختلفة عن تلك التي جئت من أجلها.

سألتُ عن ماما، فقيل لي إنّها قد سبقتني في الخروج. تشجّعتُ في الباب ومددت يدي لمصافحة فارح محاولاً أن أداهم ارتباكه، وقد بدا واضحاً في تردده عن مدّ يده لي.

هكذا، شعرتُ وأنا أمضي أنّني قد أفرغت بعض شحنات ارتباكي، دفعتها إلى الحارس الطيّب في غفلةٍ منه.

مكتبة الفكر الجديد

صوت الفُلّ

"سيّدي العارف بالله، أرجو منكم أن تقبلوا هديتي المتواضعة" أعددت هذه الكلمات وأنا ذاهب لأقدّم امتناني وشكري لأستاذي الذي علّمني اللغة العربية. لقد استلمتُ أوّل أجر مقابل عملي. أوّل أجر لأول عمل في حياتي؛ الأجر الذي وعدت شانتال أن أشتري لها هدية بقيمة ثلاثة أشهر منه. أين أنا وأين أنتِ الآن يا شانتال؟ ليست كل المواعيد ممكنة التنفيذ، هذا ما صرت أدركه. أتذكّر شانتال والمنافسين الأربعة عليها، الذين أنا أحدهم. حاولتُ مرّات عديدة أن أمنح ملامح للشخص الرابع الذي لا أعرفه، وفي كل مرّة أنتهي فيها من ترتيب هذه الملامح أجدها وقد بدت شبيهةً بي. لا أشعر بالخيبة وأنا أستعيد عهدي لها بتقديم الهدية، فتفكيري يقدّم لي عادة العذر، وأحياناً العزاء عن أي سلوك أمارسه. لهذا بدا لي أن ليس من المهم أن ننفّذ المواعيد، إذا لم يعد ذلك بالإمكان، وإنّما المهم أن نتذكّرها.

"هديّة لا رائحة لها ولا لون ولا طعم ولا صوت هي هدية لا تُلمس، وإن لُمست. الهدية هي التي تلمس" قال وهو يأخذ من يدي الهدية بطريقة أشعرتني أنّه مبتهج لما قدّمت، وكأنّه يقول: هكذا

مكتبة الفكر الجديد

تكون الهدايا. لا أعرف كيف تتوافق هديتي مع ما قاله. هديتي برائحة، بل هي الرائحة، وبالوان وطعم، وإن كان طعماً مختلفاً. لقد فكّرت كثيراً بهديّة مناسبة، ولم أجد أفضل من الذهاب إلى قبوة، في الوقت الذي تتواجد فيه، وهناك ملأت زنبيلاً خزفياً بعقد فُلّ وربطة من أغصان ريحان وقبوة كاذي وربطة من أوزّاب وأخرى من شذاب، كما حدّدت لي الأسماء. "لأجل كرامة العارف لن آخذ منك القيمة. اعتبرها هديّة" قالت قبوة. "لكنّني انا أخذتها من أجل تقديمها هديّة للعارف، فأرجوك، ارجوك أن تقبلي قيمتها". كنتُ أدرك أنّني سأقدّم للعارف هديّةً هي منه، من الأرض التي تهبه عِطر منتوجها ليقاسم رائحته وماله مع أناس آخرين.

طلبتُ من قبوة أن تعدّ لي زنبيلين آخرين، على أن آخذهما حين أعود من بيت العارف لأهديهما لماما وشمعة.

أصرّ العارف أن أتناول معه الغداء. قلتُ له إنّني تركت عند قبوة زنبيلين وسأعود لأخذهما. قال: "أختها زَهْرَة ستجلب لي بعد قليل الغداء، وسأتركها تنتظرك لتمشي معها إلى منزلهم، إذا كانت قبوة قد روّحت".

"الفُل والكاذي من مزرعتنا، أمّا الريحان والوزّاب والشذاب فيأتي بها مزارعون من مناطق أخرى إلى المزرعة في لحج. يشترونها منهم ويرسلونها إلى هنا لبيعها" أوضح.

لم أكن قد رأيت زهرة من قبل. عرفتُ أنّ قبوة تأتي إليه بالغداء يومياً، بعد أن أكون قد تلقيت الدرس وذهبت، فيما زَهرة تأتي إليه حين تكون أختها مشغولة. "اليوم لدينا حساب" كان يقول لي حين

مكتبة الفكر الجديد

تأتي قبوة عصر كل خميس أثناء تحصيلي الدروس. يبالغ في بعض الأيّام حين يراها مقبلة: "اليوم لدينا حساب كثير، كثير".

رفضتْ زَهرة أن تشاركنا الغداء الذي أضاف إليه العارف بعض العسل والخبز المرطّب من زنبيل معلّق في صالة الطابق العلوي، بجوار زنبيل آخر مفتوح تتراصّ فيه أغصان وأزهار تنفث روائح عطرة.

جلسنا، في الصالة، على بساط خزفي من النخيل، عليه مخدّات عريضة لنتناول الطعام. "أتسمع صوت الفل حين يختلط مع صوتي الكاذي والريحان؟" قال وهو يكسر الصمت الذي خيّم على المائدة. اندهشت ولم أجب. "سأقول لك مثلاً..." قال ونظر إلى زهرة الجالسة على فرش بالقرب منا. "افترض أنّ رجلاً يخلط الأزهار ويكوّن منها عطراً، ثمّ يقوم بسكبه في أوعية مختلفة بصوت قد يكون مسموعاً أو خافتاً، حسب ما هو يريد. هذا الصوت يمكن أن تسمعه وتشمّ رائحته، تشمّ رائحة الصوت كما تسمع صوت الرائحة، هنا المسألة واضحة، ولكن ما أتحدّث عنه هو صوت آخر، صوت بدون إحداث فعل، صوت تلمسه وتسمعه حين تشم رائحة الفل" أضاف شارحاً، لكنّني بقيت مندهشاً أكثر.

لم يهدأ بال العارف وهو يرى زَهرة جالسةً قبالتنا دون أن تتناول معنا الغداء. دخل إحدى غرف المنزل وعاد بصحنٍ فيه حلوى. "هذه من حلويّات الهندي" قال وهو يناولها. لاحظتُ أنّها لم تتمنّع، أو تقول حتى شكراً، أصدرت تأوّه دهشة فقط، "أوووه"، وهي تمدّ يدها لتأخذ الحلوى التي بدت مرغوبةً عندها، كما بدت علاقتها كثيرة الودّ مع العارف.

مكتبة الفكر الجديد

بقيتُ أنصت لحديثه عن أصوات الفل والكاذي والريحان، وكيف انَ لهذه الأصوات، الأصوات وليس الأزهار والغصون، ملمساً. ربّما ظن أنّني غير مصدّق لما يقوله إذ راح يشرح أكثر.

"صحيح أنّني لم استوعب بشكل محدّد وواضح كيف يكون لهذه الأزهار والأغصان صوت، وكيف يمكن لمس هذا الصوت، لكنّني لم اشكّك بما تقوله"، اضفتُ، "أنا مصدّق لك، متأكّد أنّ ما تقوله حقّ حتى وإن لم أدرك تماماً هذا الحق".

"اعرف أنّك تصدّقني وإلاّ لما واصلت الحديث معك" قال.

"مثلي في تصديقك مثل المؤمن، الذي يؤمن بشيء ولا يلمسه، وإن ظنّ أنّه يلمسه، كحديثك عن لمس صوت الفُلّ".

"لا يُوجد شيء يستحق الإيمان إذا لم يُلمس؛ الشيء الغائب الذي لا يُلمس هو أيضاً يُلمس" قال، وبقيت صامتاً. "قد لا تستطيع أن تصل قمّة الجبل لتلمسها، لكنّك ستلمس هذه القمّة، والجبل كلّه في لمسك حصاةً صغيرة أو ذرّة غبار، غير مرئية بما فيه الكفاية، تشمّ الجبل وأشجاره وغيوله في نفحة هواء، تسمعه في نفحة عابرة" مضى في الشرح. رآني قد كففت عن تناول الطعام، فراح وجلب ماءً في طست لأغسل يدي. "تعال لتسمع صوت الفُلّ أكثر" قال وأشار لي أن أتبعه إلى الغرفة التي كنّا قد جلسنا فيها في المرّة السابقة. بدا الموضوع ملحّاً عنده، كما هو عندي محل اندهاش واستفسار.

كانت الغرفة ممتلئة، بشكل مثير، برائحة الفلّ. شعرتُ، وأنا أدلف إليها، أنّ الرائحة قد انسكبت إلى جسدي من مسامات عديدة وبكمّية كبيرة، رحتُ معها أحسّ بشيء يتخلّل فيّ؛ يحرّكني بما

مكتبة الفكر الجديد

يشبه الرعشة، لأقُلْ رعشةً مُبهجة. "أوووه، يا الله يا الله" قلتُ وكأنَّ فمي، أو جسمي كلّه، يتكلّم دون إرادتي، أو أنَّ إرادتي أصبحت هي جسمي.

"هل سمعتَ الصوت، صوت الفُلّ؟".

"نعم، نعم سمعته يا سيّدي، سمعتُ صوت الفُلّ وعرفت لغته. احسست به، لمسته وهو يدخل صدري".

ولم يضف احدنا أيّ كلمة، أو حرف، حتى حين رحت أودّعه لأصحب زَهرة اكتفينا بمدّ الأيدي ولثمها على طريقته التي صرت أجيدها.

مكتبة الفكر الجديد

لحظة في الزمن

أحرجتني شمعة وهي تحيّيني بعد أغنيتها التي جذبت أسماع وأبصار ضيوف السيّد جراهم. كانوا قد توافدوا إلى حديقة منزله لتوديعه للذهاب إلى مانشستر في بريطانيا لقضاء إجازة سنوية، تقول ماري الصغيرة إنّه تعوّد على تمضيتها هناك في صيف كلّ عام، إلاّ أنّه سعى هذه المرّة للحصول عليها أثناء أعياد الميلاد ليعيش أجواء احتفالات راس السنة مع أصدقائه الذين افتقدهم.

ماري الصغيرة، أو ماري مكرّر، قالت لي قبل أن أبدأ الدرس: "ستتأخر اليوم عندنا" ولم توضح أكثر. رأت نظراتي تحدّق مستفهمةً إليها. "اطمئن لن أختطفك" قالت، وصمتت لحظة سألتُ أثناءها نفسي: لماذا سأتأخر؟ وذهبتُ بعيداً، إذ تخيّلتني وقد تبعتها إلى غرفة نومها لتغلق الباب بسرعة، كسرعتها في قطع هواجسي: "عندنا اليوم حفلة عشاء لتوديع أبي، وسيحضرها كثيرون، فنّانون وسياسيون وعسكريون". لكن قولها أعادني مرّة أخرى إلى هواجسي الصامتة: هل ستكون شمعة من بين الفنانين الحاضرين؟ يمكن لماري أن تجيب إذا سألتها. هي لا تزعل. تعجبها المحادثات

مكتبة الفكر الجديد

أكثر من الدرس. لكنّها، ربّما، ستغتاظ من شمعة أو مني إذا سألتها عنها، بعد أن صارت تعتبرني صديقها المقرّب. توقفت عن مواصلة الدرس المخلوط بهواجسي، وأنا أرى ماري الأم قد أقبلت إلى زاوية الصّالة حيث نجلس. "يمكنك اليوم أن تذهب في منتصف الدرس، فعندنا حفلة" قالت دون كلمة مرحبا. "لا يا أمّي، ميشيل سيحضر الحفلة؛ لقد عزمته. سينتظر هنا في الساعة التي سأبدّل فيها ملابسي وأجهّز نفسي". بدت الأم في حال اندهاش بعد سماع ما قالته ابنتها؛ حدّقت في وجهي لحظةً، ثمّ جلست على الكرسي المقابل لنا وظلت تقلّب نظراتها ما بيني وبين ماري مكرّر. لم تقل شيئاً، ولم نعرف هل نواصل درسنا بحضورها. "واصلوا..." قالت بعد لحظات لم تكن قصيرة، وقد حصرت نظراتها هذه المرّة في نظرة واحدة، متفحصة وطويلة، صوبّتها نحوي، أنا وحدي. "مرحباً" قالت فجأةً، وهي تنهض من على الكرسي هازّةً رأسها باتجاهي مع ابتسامة تبدو مفتعلة أو غريبة عن وجهها. أربكني تصرّفها ولم أستطع للحظة استيعاب أو فهم ما جرى؛ أحسستُ بعدها، وأنا أراها تمضي غير منتظرة ردّاً مني على تحيّتها، أنّني صرت مستهدفاً من قبلها، أو صرت في بالها، ولا أعرف على أي نحو سيمضي هذا الاستهداف. وقد خلصتُ إلى الظن أنّ عزومة ابنتها لي قد أثارت الشكوك لديها إذا ما كانت الدروس قد أخذتنا إلى علاقة خاصة.

أصرّت المكرّرة أن أذهب معها إلى غرفتها حيث ستبدّل ملابسها. ذكّرتها بقولها لأمّها إنّني سأبقى هنا في الصالة. "كيف ستجلس وحدك؟ أمّي راحت لتجهّز نفسها؛ مضى عليها ساعة،

مكتبة الفكر الجديد

وتحتاج ساعتين، أيضاً، لتكون جاهزة وتخرج من غرفتها. تحاول ان تنافسني بملابسها وزينتها..." قالت وجذبت يدي ضاحكةً.

رأيتها قطعةً قطعة، جزءاً جزءاً. ليس ملابسها هي ما رأيته فقط، ولا غرفتها، وإنَّما رأيتُ كلّ شيء. رأيتُ ما لم تره عيني من امرأة قبل، ولو في صورة، أو ظل في الأحلام. لم يكن لي من مخرج سوى أن ادون طيّعاً لأصابعها، وهي تختلسني في لحظة من كلّ شيء، بما في ذلك الصور المحتملة في بالي للقاءات حميمة عادةً ما أستحضرها باحلام يقظة.

لمحتني الأم وأنا أقف في الصالة مستعداً لمرافقة المكرّرة إلى حديقة المنزل، حيث سيقام الحفل. جاءت سريعاً إلي، ومعها "مرحبا" هذه المرّة، وابتسامة واسعة خفتت بعد نظرة متفحصة إلي. ستكون قد لاحظت تغيّراً في حال وجهي بعد غسله، وشكلاً مختلفاً لتسريحة شعري التي رتّبتها ماري بمشطها وأصابعها. لم تقل شيئاً وراحت تنقّل أصابع يديها بالتناوب بين خصلات شعرها وعطفات ملابسها، وبدت كأنّها تحكّ كتفيها، أو تبعد احتكاك الملابس بالكتفين، ومثل ذلك نقّلت يديها بين لمس قلادتها وتحريك خاتمها المرصّع بعقيق قرمزي. لتضغط، بعدها، بإبهامها على خدها، وبسبّابتها على شفتيها. وبالسرعة نفسها ضمّت يديها على نهديها، ثمّ أنزلتهما على خاصرتها. "كيف الحال؟"، "هل كلّ شيء تمام؟"، "أليس الحال أفضل؟" بقيت تسألني مع كل حركة وكأنّها تقول لي كيف تراني، ألستُ أحسن؟ ألستُ أفضل؟ أليس كل شيء في أحسن حال؟ أردتُ أن أعبّر لها بهزّات رأسي، ردّاً على أسئلتها، بأنّ الأمر جيّد وكلّ شيء

مكتبة الفكر الجديد

على ما يرام، لكن هناك كلمات وعبارات أخرى تداخلت في رأسي ولم أعد أدرك لماذا يواصل الاهتزاز. وكانت السيّدة قد ذهبت مع زوجها السيّد جراهم ليستقبلا ضيوفهما في المدخل، بعد أن عرّفتني إليه بشكل خاطف.

"كيف وجدتها؛ هل هي أحسن منّي؟" قالت المكرّرة ضاحكةً وهي تأخذ بيدي إلى الحديقة. وقد بدا أن هناك من سبقنا إليها. كانت المفاجأة أن أرى ماما وهي توجّه بعض العمّال بترتيب طاولات وُضِعت عليها خزفيات فيها أنواع من الفواكه والأشربة. اندفعتُ إليها سريعاً وكأنَّ ماري ليست بجانبي. كنتُ أعرف أنَّها تقوم بمساعدة الأسرة لكنني لا أعرف نوع هذه المساعدة. ابتسمتْ ماما، ولكنَّها بدت منهمكةً في العمل أو، ربّما، كانت تتحفّظ على الحديث معي أمام أصحاب المنزل بدواعي العمل، مع هذا أشارت بيدها إلى مجموعة من الأشخاص كانوا يتحلّقون حول آخرين يجلسون على كراسٍ. حدّقتُ إليهم ولم أنتبه، إلاَّ حين اقتربت، لوجود شمعة. كان هناك خمسة يتحدثون معها دون الفنانين الذي يتاهبون لبدء معزوفاتهم. ما إن لمحتني واقفاً خلف المتحلّقين حتى قامت وأقبلت تصافحني بحميمية. "أهلاً... أهلاً... مفاجأة كبيرة أن أراك هنا" قالت. "أنا أدرّس ابنتهم الفرنسية ولهذا عزموني" أجبت.

"وجودك في أي مكان مفاجأة سعيدة. لكن، وأنا متى ستعلّمني الفرنسيّة؟". أخجلتني كلماتها ولم أردّ عليها إذ كانت يد ماري قد امتدّت لمصافحتها. "ماذا ستغنّين لنا الليلة؟" قالت لها دون كلمة ترحيب. بالفعل إنّها ماري مكرّر. هل كانت ورائي وأنا أتحدّث مع

مكتبة الفكر الجديد

ماما، ثم مع شمعة، أم أن عينيها هما من كانتا تلاحقانني؟

كثيرون وصلوا، في الوقت نفسه. دعتني ماري مكرّر لمرافقتها لتعرّفني إلى بعض القادمين: سيّدة هولندية صديقة لأمّها، شاب هندي يعمل مديراً لبنك، وعائلة تاجر فرنسي. ولم تكمل إذ رات أمّها وهي تنظر إلينا. انتبهتُ، أنا أيضاً، لعينيها الشاخصتين إلينا، مع أنّها بدت منصتةً باهتمام إلى حديث المرأة الواقفة بجوارها.

نادتني الأم وهي تقترب مني لتقدّمني من جانبها إلى بعض ضيوفها. لمحتُ لحظتها أبا الفضل اللحجي، في الجهة الأخرى، وهو يتحدّث مع عدد من الأشخاص، لم يسبق لي أن تعرّفت إليهم. عرّفتني ماري، الكبيرة طبعاً، إلى ضابط بريطاني اسمه روبرت، وإلى امّه سيّدة الأعمال. "خسرت ثروتها في لندن بسبب هتلر وجاءت لتعيش مع ابنها في عدن" قالت. "ما الذي جاء بك إلى هذا الجحيم؟" سألني روبرت ولم أستطع الإجابة. هل كان عليّ أن أقول له إنّني أرى عدن بعينين مختلفتين، وأرى ما لا يراه هو؟ قدّمتني إلى صديقاتها بصفتي صديقاً مقرّباً جداً من العائلة، وأنّني فرنسي جاء إلى عدن للسياحة فأحب الجلوس فيها برعاية عائلتها، برعايتها هي شخصياً. هل أنا بالفعل أقيم برعايتها؛ أيعني المبلغ الذي أتقاضاه منهم رعاية؟ أنا برعاية ماما؛ أقول لنفسي غير مهتم بما تقوله عني للنسوة المادات أيديهن لمصافحتي.

"صور منوثي وحمدات

هيلاجي".

"والله إنك يهودية أصيلة" قالت ماري الكبيرة وهي تسمع مفتتح

مكتبة الفكر الجديد

شمعة، "هذه كلمات يهودية غنّتها شمعة من أجلي". لم أفهم قولها. كنتُ أعرف أنّها كلمات يهودية وأنّ شمعة تغنّيها كلازمة في بداية معظم حفلاتها. ولكن لماذا لأجلها؛ هل هي يهودية؟

كلّ مرّة أسمع فيها شمعة أشعر أنّني أسمعها لأوّل مرّة، او أنّني أكتشف شيئاً جديداً في أغانيها، حتى تلك التي سبق أن سمعتها. فاجأتني بعد الأغنية الثانية وهي تتلفّت باحثةً بعينيها حتى لمحتني. "هذا المَشْقُر، المربوط على خدّي، والذي يطيّب غنائي، أهداني إيّاه شخص عزيز عليّ هو ميشيل، ذلك الفرنسي الواقف هناك" قالت لتتبع إشارتها إلي كل عيون الحاضرين، باستثناء ماري الكبيرة التي بقيت شاخصةً نحو شمعة.

لقد أهديتها ذلك الزنبيل المليء بالكاذي والريحان والوزّاب والشَذاب والفُل، ومنذ ذلك الحين وهي تظهر مشقّرة. "أهديتني الرُبَط الأولى، لكنّني مع كلّ مشقر أعمله على خدّي أشعر أنّه منك" قالت.

اقترب منّي أبو الفضل اللحجي وصافحني بشدّة. كان معه رجلان ممتلئا الجسم، يزيد عمراهما على الأربعين. يلبس الأوّل بدلةً أنيقة بربطة عنق، على طريقة اللوردات البريطانيين الذين رأيت صورهم في الصحف، "السيّد القالي، أبرز الشخصيات الاجتماعية العدنية" قال أبو الفضل. "وهذا السيّد علي، فيلسوف عدن" أضاف وهو يشير إلى الآخر، الذي يلبس هو، أيضاً، بدلةً أنيقة مع ربطة عنق ونظّارة. حيّيتهما وأنا ألمح ابتسامةً على شفتي ماما وهي تراني من بعد.

لفت هذا التعارف ماري الكبيرة، وقد أعادت نظراتها إليّ.

مكتبة الفكر الجديد

حرصتْ على أن تنادي عائلتَي القالي وفيلسوف عدن لتعرّفني إليهما. "غداً ستتأخر عندنا بعد الدرس" قالت، ولم تتح لي فسحة إضافية لسماع العائلتين، أو السؤال إذا ما كان فيلسوف عدن هو نفسه الصحافي والكاتب المشهور. كلامها لا يحتاج إلى جواب، فهو عندها بمثابة أمر.

ربّما يكون فيلسوف عدن هو نفسه الصحافي الذي يصدر صحيفة العدنيون. مقالاته، التي قرأتها عن ضرورة تقدم عدن والعرب والمسلمين ليواكبوا تطوّر الغرب، لم يوقّعها بهذه الصفة، لكن أحدهم ذكرها، في رد على مقال له، كان قد دعا فيه إلى تعليم المرأة لتتمكن من المشاركة في نهضة بلدها؛ سأل الكاتب: وهل كلّ من سيخالف الشريعة الإسلامية ويكتب انّ حرّية المرأة تطوّر وتقدّم سندعوه بالفيلسوف، كفيلسوف عدن؟

شمعة كانت قد بدأت لحظتها في الزمن، لحظة أغنيتها التي تبدو، احياناً، وكأنّها كلّ الزمن، أو أنّها خارجة عن هذا الزمن المعاش، ليست منه أو فيه.

هل للأغنية أيضاً رائحة؟ أتساءل وأنا أنصت إليها. حين أسمعها يرتعش كلّ جسمي، أتنهّد بعمق، أتنفّس كأنّني كنت مكتوم الهواء. نعم للأغنية رائحة، رائحة لا تأتي منها فقط، وإنّما تخرج من المستمع ايضاً، من تنهده وتنفّسه، حين تلامس صدره، تدخل إليه أو تخرج منه. للموسيقى رائحة وملمس. لم يقل العارف، الذي لم يحضر الحفل، هذا الكلام، لكنّني أشعر وكأنّه هو من يتحدّث داخلي، كأنّه بعض هذه الأغنية، صوتها، رائحتها وملمسها.

مكتبة الفكر الجديد

هاي هتلر

بقيتُ سارح الذهن، وأنا أمشي في شارع الزّعفران، أفكّر بمواضيع كثيرة، ولا أدري إلى أين أمضي. لم يقطع سرحاني سوى العارف وتحيّته: "سلام...". انتبهتُ إليه، حيث كان قد وقف أمامي، فقمتُ بمعانقته كردّ لتحيّته دون كلام. نظراته الحميمة بدت أنّها تقول الكثير بعد معانقتي له. "سأذهب إلى الوَلْد لأعرف لماذا لم يعد يغني مع شمعة" قال.

"خُذني معك" قلتُ له.

كان خبر خلاف شمعة وهاي هتلر قد بدأ ينتشر مع رجوع الوَلْد، كما يحلو للعارف أن يناديه، للغناء في ركن ساحة كريتر، حيث اكتسب هناك صفته الشهيرة. تلك الصفة التي، قال العارف، إنّها أُطلقت عليه، بعد أن ظل يرفع يدّه ليحيّي المتحلّقين لسماع أغانيه كهتلر، وقيامه بحلق شاربه مثله. "لا أدري هل كان يسخر من هتلر أم أنّه وجد في التحيّة بعض اللطف، فبقي يكرّرها مرّات عديدة، حتى صار يعرف بهاي هتلر" أضاف مستذكراً ما أشيع أن الوَلْد متعاطف مع هتلر ضد اليهود: "كان من السهل أن يصدّق اليهود ذلك لكونه

مكتبة الفكر الجديد

ابن مسلمة، فقيل إنهم عملوا على استقطابه بواسطة شمعة، حيث صار يعمل معها".

"أمّه هي تقيّة الصنعانية. أسمته أمّه شوكت على اسم أبيه التركي، لكنّها لم تكن تناديه بهذا الاسم إلاّ حين يكونا وحدهما. أمام الجميع كانت تناديه يا وَلْد، فعُرف بوَلْد تَقيّة، قبل أن يسمّوه هاي هتلر" قال العارف وقد لاحظ اهتماماً بأسئلتي عن هاي وعائلته. "أخبرتني أمّه أنّ أباه كان ضمن الجيش التركي في اليمن، وأنّها تعرّفت إليه في صنعاء، فأحبّته وأحبّها، وحين عاد الجنود إلى تركيا قرّر أن يتمرّد على الأوامر فتخلّف عنهم. أخفته تقيّة في الطابق السفلي لمنزل والدها، بين الغنم والكباش" التفت إلي العارف مبتسماً فيما كنّا نواصل السير. "في البداية كانوا يرحّبون به لتفضيله العيش في اليمن على تركيا، إلاّ أنّ بعض أهالي صنعاء لم يعودوا، مع الأيّام، يستلطفونه لشربه الخمر. طلب من تقيّة أن تهرب معه إلى عدن بعد أن رفض أبوها زواجه منها. لكنّها لم تقوَ على المغامرة، وطلبت منه أن يزورها بعد سنة فربّما تكون الفرصة قد سنحت لزواجهما" توقّف عن المشي والكلام للحظة، ثم عاد: "المشكلة أنّ تقيّة لم تستطع أن تنتظر لمدّة سنة، فسرعان ما انتفخت بطنها بجنين زرعه التركي بالرغم من حذرها، فبقيتْ محتارةً ما بين أن تتدبّر سفرها إلى عدن لتلحق به، وبين أن تظل ترعى أمّها المريضة العمياء منتظرةً العواقب التي ستواجهها حين يُكشف سرّها". وفي تصاعد تشويقي، واصل: "أمّها أنقذتها من عذاباتها الحائرة إذ ماتت وتركت لها مجوهراتها الثمينة مع خيار الرحيل إلى عدن، لا سواه". اكتفيت بهز رأسي والالتفات إليه بين

مكتبة الفكر الجديد

لحظة وأخرى كتعبير عن اهتمامي لما أسمعه. "قصّة طويلة ترويها تقيّة بعد أن وصلت إلى عدن، خلاصتها أنّها لم تجد التركي في عدن. وقد ساعدها أبي وأسكنها في منزلنا الذي تعرفه حتى ولدت ابنها. بعدها عملت منظفةً في منزل البِس. سمعتها بعض النسوة تغني فأعجبن بصوتها، وصارت تغني في الأعراس مقابل مبالغ مالية. لم تترك العمل في منزل البِس وتربّى الوَلْدْ معها. كانت تصحبه في حفلات الأعراس والولادات إلى أن استطاع أن يضرب لها الطبلة وهي تغني وتعزف على الصحن، ثم صار هو الذي يغني بعد اكتشافهم جمال صوته فيما هي تعزف له. أهداها البِس آلة الطنبورة بعد أن سمعها تغني، أثناء عملها، أغنيةً تركية فأعجب بها". وإذ كان العارف يتوقف لرد التحيّة على المارّين ومصافحتهم، فقد تشعّبت القصّة كثيراً، قبل أن يكمل: "قال الوَلْدْ إنّها أيقظته من النوم في إحدى الليالي وطلبت منه أن يغني أغنيةً سمعتها من أبيه، فيما هي تعزف لحنها على الطنبورة. عاودت الطلب منه مرّات عديدة ليغنيها مع أنّها في الأخير لم تعد تعزف. قالت له إنّها ستبقى تسمعه إلى أن تنام على فراشها، ولم يدرك إلاّ في اليوم التالي أنّها كانت نومتها الأخيرة".

يتذكّر العارف الذي أدهشته هذه الأغنية، أيضاً، حين سمع لحنها من الوَلْد، أنّه سعى لترجمتها عند أكثر من شخص تركي، فعرف أنّ الأمهات التركيات يغنّينها عن أبنائهن الذين ذهبوا إلى اليمن ولم يعودوا. "الوَلْدْ لم يكن يعرف معناها ولم يكن قد سأل أمّه، التي حفّظته إيّاها، إذا كانت تعرف معنى كلمات الأغنيّة أم أنّها تستعيدها، فقط، لذكرى والده الغائب" أضاف، ثم توقف وقال: "يمكنك كتابة

مكتبة الفكر الجديد

كلماتها". وقد راح يردّد بصوتٍ متمهل:

إلى اليمن،
راحوا خلف الشمس.
إلى اليمن،
ذهبوا بعيداً
ولم يعودوا.
إلى اليمن،
راحوا مع باشا ظالم وقاتلوا،
قاتلوا بلا فائدة.
هناك ناموا،
ناموا في المقبرة،
ناموا ولم يعودوا.
آه يا يمن
آه يا يمن
آه يا يمن.

بدا هاي، حين وصلنا إليه، شبه مغمض العينين وهو يعزف على تنك، بإيقاع جذّاب، ويغنّي:

أهو دا اللي صار وأدي اللي كان
مالكش حق

مكتبة الفكر الجديد

مالكش حق تلوم عليّ.

تلوم عليّ إزاي يا سِيْدنا
وخير بلادنا ما هوش في إيدنا
قللي عن أشياء تفدنا
وبعدها بقى لوم عليّ.

لم يلتفت هاي ليعرف أنّنا موجودان بجواره. في المرّات السابقة التي رأيته فيها كان، أيضاً، يغني ويعزف وهو مغمض العينين. جلسنا نسمع بهدوء بجوار المتحلّقين حوله. وإذْ انتقل إلى لحن أغنية أخرى، وضع العارف يده على كتفي وشدّني إليه. لاحظت أن ابتسامته ازدادت اتساعاً، وقد بدا أنّه عرف أن ما سيسمعه بعد المقدّمة الموسيقية هو تحيّة لنا، أو له على الأرجح:

أَنتَ عَينِي وَأَنتَ
نَفحَةٌ مِنيَ أَنتَ.

فتح هاي عينيه، بابتسامةٍ خجولة، والتفت إلينا، وهو يواصل الغناء:

أَنتَ مَا أَنتَ أَنتَ
ولا أنا سوى أنتَ.

مكتبة الفكر الجديد

فهمتُ أنَّ الأغنية التي سمعناها أخيراً كانت من أشعار العارف، فقد سمعت من ماما قصيدةً مماثلة نسبتها إليه.

حين عرف هاي سبب مجيئنا ابتسم ولم يقل شيئاً، وكأنّ الابتسامة كانت إجابة كافية على كل الأسئلة التي توقّعت أن يلحّ العارف في طرحها ليكتشف سبب مقاطعته الغناء مع شمعة. بدا لي أنّه لا يتمتّع بروح ساخرة لتنتشر حركته المقلّدة لهتلر كنوع من الفكاهة. كما لم يكن يبدو أنّه متعصّب لوجهة سياسية ليناصر هتلر، أو غيره. على العكس، يظهر في سلوكه خجلٌ كبير، مع حزنٍ يكسو ملامح وجهه الأبيض أثناء أدائه الأغاني.

"الوَلْدْ تعجبه أغاني الحب، لكن العرب يلحّون عليه أن يغنّي الأغاني الوطنية التي تمجّد الحرب والجهاد" قال العارف وقد عدنا من مقابلة هاي. استعاد الأغنية التي سمعناها في البداية: "هي للفنّان المصري سيّد درويش، يحبّها العرب لأنّها تدعو لتضامنهم واتحادهم وجهادهم ضد أعداءهم".

"من هم أعداؤهم؟" سألتُ.

"كل يوم ولهم عدو؛ سيكتشفون ذات يوم أن لا عدو لهم سوى أنفسهم، كما سيكتشف هتلر أنه عدو نفسه، عدو ألمانيا، قبل أن يكون عدواً للآخرين".

"على هذا الحال، فإن فرنسا عدوة نفسها أيضاً" أضفت إلى ما قاله، ولكن بصمت.

مكتبة الفكر الجديد

عسكرة العيون

"هي يهودية، ولكنّها ليست كشمعة" قالت ماما وهي تحدّثني عن ماري الكبيرة على سطح المنزل الذي نأوي إليه كلّ ليلة. "هي يهودية لجهة أمّها، أبوها مسيحي تزوّج أمّها دون رضا أسرتها" أوضحت. "أمّها من أصول إسبانية، عاشت مع أسرتها في هولندا، قبل أن تأتي للدراسة إلى لندن وتتعرّف إلى أبيها الذي جذبتها إليه وسامته كما تقول".

"هل كانت أمّها مثلها؟".

"لا أظن. أمي ماري تحسّست أكثر بسبب ما حصل لليهود وصارت متعصّبة لكلّ ما هو يهودي".

"والسيد جراهم؟".

"يبدو عملياً أكثر من أي شيء آخر، سمعتها مرّة تصفه بأنّه بلا إيمان".

"ألهذا تزوّجها وهي ملتزمة بديانة أمّها؟" سألتها. لكن فارح الذي كان يسمع حوارنا تكفّل هو بالجواب: "يبدو أنّه فخ. من سيتزوّج امرأةً مثلها إلاّ إذا وقع في فخ؟".

مكتبة الفكر الجديد

للسيّدة والسيّد جراهم ابن اسمه ديفيد، في العشرين من عمره، قالوا لي إنّه غادر للدراسة في لندن قبل مجيئي.

هل ما أواجهه أنا يشبه الفخ؛ أم أنّه الفخ بذاته؛ فخٌ مكرّر؟

بدت ماما تتواجد كثيراً في منزل السيّد جراهم، تدخل أثناء تدريسي ماري بدون مقدّمات. أحياناً تأتي بفواكه، وأحياناً بماء. "أنا قلت لكِ..." نهرتها ماري لكنّها لم تكمل عبارتها، ربّما خشية أن أفهم أنّها لا تريدني أن أتناول ما تقدّمه ماما من فواكه وحلوى، أو حتى ماء. هل تبادر بتقديم هذه الأشياء من تلقاء نفسها أم أنّ هناك من يدفعها؟ ربّما هي السيّدة الكبيرة. لكن ماما صارت تقوم بالحركات نفسها أثناء جلوسي مع الأم أيضاً، فتدخل علينا بأشيائها المعتادة.

سألتني ماري الكبيرة عن فرنسا وأجواء الحرب هناك وكأنني قدمت للتو منها. بدت، في اليوم التالي للحفلة، وكأنها تبحث عن أعذار للجلوس معي. أخذتني إلى غرفتها بعد أن أخبرتني أنّ لديها أسطوانة موسيقية بريطانية تشبه الموسيقى الشعبية الفرنسية. هل تفهم في الموسيقى إلى هذا الحدّ أم أنّه فخ؟ كان زوجها قد غادر صباح اليوم نفسه لقضاء إجازته في مانشستر، مع تخوفات من الحرب كان قد أفصح عنها لمودّعيه في الحفل. لم أجد في الأسطوانة، التي سمعتها، ما يذكّرني بالموسيقى الشعبية الفرنسية؛ ربّما لأنّي لا أفهم كثيراً في مقارنة الأعمال الموسيقية. ماما أنقذتني من الفخ. دقّت الباب حينها، وكأنّها تقصد ذلك. "الآنسة ماري تريد أن تستفهم عن جانب من الدرس لم تفهمه" قالت. "ليس وقت الدرس الآن" ردّت عليها السيّدة، فيما نهضتُ عن الكرسي المجاور لسرير النوم

مكتبة الفكر الجديد

مستجيباً للنداء وكأنّني هاربٌ من فخ.

ألم أقع في الفخ بعد؟ بقيت أشعر وكأنّ عيوناً عُسكرت لتحاصرني أينما ذهبت. تتبعني عينا ماري مكرّرة في اثنتين، عينا شمعة، وهي تبحث عنّي لتشكرني على منحي إياها رائحةً لأغنيتها، عينا شانتال، تتمدّد من بعيد، وقد اكتشفت أنّني أنا من أرسل إليها الرسالة، وليس واحدٌ آخر من الثلاثة الباقين. أشعر أنَّ عيوناً لا حصر لها ترقبّني ببصيص متفحّص، ولا مخرج لي سوى ماما، فعيناها ليست ككلّ العيون، وإن كانت كلّ العيون في عينيها. **ها أنا أكتب شعراً يا شانتال.**

"لقد رأيت ذلك في الحلم" قالت ماما حين أخبرتها أنّهم استغنوا عن تدريسي.

"آسفة، لم نعد نقدر أن نستقبلك من أجل الدرس، سنعطيك ما تبقّى لك من أجر" قالت السيّدة جراهم ومدّت لي بنقود كانت قابضةً عليها في يدها. لم تبدِ ماري الصغيرة أي استغراب من قرار أمّها. استقبلتني معها ولم تقل شيئاً.

كنّا على موعد مع حفل شمعة في الكازينو، وهناك قالت ماما: "لماذا لم أرَ شمعة، أيضاً، في الحلم؟". "أيّ حلم؟" سألتها. ابتسمت ولم تجب. ليس هناك من استنتاج آخر في بالي، فذهابي إلى منزل السيّد جراهم وأدائي الدروس لابنته ماري وما صاحب ذلك من تجاذبات ثم انقطاع العلاقة فجأةً بعد شهر ونصف فقط، وبدون مبرّر، جميعها تبدو لي كحلم من أحلام ماما، حلم كأنّني صرت هو، أو بقيت على ما كنت عليه حين رأتني ماما في المنام.

مكتبة الفكر الجديد

العُرس

حين وصلنا إلى الساحة الأمامية لكازينو البندر كان المكان يعجّ بأناسٍ قد سبقونا إليه. بدا الكازينو غير قابل لاستيعاب الجميع، ومثله المَخْدَرَة المنصوبة أمامه على هيئة خيمة مستطيلة من أعواد خشبية مغطاة بأقمشة رمادية وخضراء؛ وقد أبقوهما مفتوحين على الساحة حيث وضعت مفارش من خزف النخيل، غطّيت بعضها بسجاجيد.

"سيكون عُرساً غير مسبوق" قال وليم، قبل أن يمدّ يده لمصافحتنا، وكأنّ ما قاله عبارة عن تحيّة. كانت ماما قد قالت لي، قبل ثلاث ليالٍ، إنّ الوَلْد دعاني إلى هذه الحفلة، ولم تخبرني عن اي تفاصيل أخرى.

أبو الفضل وسعيد والوهطي وفرانسيسكو والمعلّم وعبدي وشنكر كانوا قد سبقونا بالمجيء، إلى جانب العارف، الذي فوجئت بوجوده. بادلونا التحيّة والمصافحة بينما اهتم وليم، بشكل خاص، بوجود حلاها، التي أصرّت على المجيء معنا، أنا وماما وميجي، فيما رفض جامع. انتبهت إلى تأهب ماما لمصافحة رجل أربعيني، بثوب أبيض وسروال طويل وكوفية مخطّطة بالأصفر المذهّب، وصل مع

مكتبة الفكر الجديد

عائلته، وعدد من المرافقين. "أبي، كيكي مروانجي صاحب حلويّات الهندي" عرّفني به، فيما ذهبتُ لمصافحة عائلته التي بقيت بعيدةً عنّي.

"ماذا سيكون في الحفلة الليلة؟" سألتُ ماما، بعد أن عادت وكانت قد تضاربت توقعاتي. "دعها مفاجأة" أجابت مبتسمة. لكن العارف لم يتح فرصةً لهذه المفاجأة، وبدا أنّه لم يسمعها. "أجمل حفل زفاف سأشهده في حياتي هو هذا الحفل" قال. انحنيت إلى جانبه: "حفل زفاف من؟" سألته. أجاب: "حفل اليوم، زفاف شمعة والوَلَد. ألا تعرف؟".

كانت مفاجأةً بالفعل، ولكنّها اقتصرت علي وحدي، فالجميع كانوا يعرفون لماذا هم هنا. "أكّدت شمعة دعوتك كثيراً، لكي لا أنسى" قالت ماما، بعد أن كُشف ما خبأته.

قطع حديثنا وصول شخص بدا هو الآخر في الأربعين، بزنّار متدلٍ من شعر رأسه. سلّم عليه العارف بحميمية، وراحت ماما تشدّ بيديها على عضده، وهي تقول: "أبي شمعون... أبي شمعون". حين قدّمتني إليه عرفتُ أنّه صاحب دكّان اليهودي في شارع الزعفران، المشهور كحلويّات الهندي.

"عم شمعون هارب مثلك. جدّه أقدم هارب إلى عدن" قال لي العارف وضمّ كتفي مَن يدعونه عم، فيما ماما تناديه: أبي.

"جدّي شمعون من أقدم الهاربين، نعم. إلاّ إذا كنت تقصد الجد الأوّل. الله المستعان" قال وهو يضحك. "الهارب هو جد جد جد جدّي. هرب من الاضطهاد في إسبانيا. أنا أشعر أنّني هارب، لكن

مكتبة الفكر الجديد

عدن هي وطني" أضاف عم شمعون. "لا، لم أقصد الجد الأوّل. لم أقصد قابيل الهارب الأوّل، كما يقال، إلى عدن. قابيل هو جدّ الجميع" أجاب العارف وهو يضحك. "حفيد الهارب الأقدم، هو هناك" قال عم شمعون، وأشار إلى صاحب حلويات الهندي.

"اوووه، كلّ الهاربين هنا" قال العارف وواصل ضحكه. اتجّه صوب كيكي مروانجي، الذي كان قد بقي واقفاً، مع عائلته، بالقرب منّا، وبعد لحظات أتى به إلينا مجدّداً.

لم أرَ ماري وماري مكرّر ولا السيد جراهم في الحفل. "ألم يحضر الشيخ عبد الجبّار؟" سألتُ المعلّم مستذكراً نقاشاتهما الحادة. "لا، لن يحضر، سيعتبر مثل هذا الزواج حراماً، مخالفاً للشرع" قال وابتسم. "مع أنّه يجوز لمسلم التزوج بكتابية يهودية" أضاف. لكنّ سعيداً، إذ انتبه لما سمعه، فقد رد بالقول إنّ "المسألة مؤامرة، وليست مجرّد زواج مسلم من يهودية". "زوّجوا هاي لكي لا يبقى يغنّي الأغاني القوميّة المحرّضة" أضاف بصوتٍ واضح وهو يلتفت إلى ماما. فيما كان أحمد الوهطي يهزّ رأسه موافقاً ويقول: صحيح.

لم أستغرب رأيهما هذا، وحضورهما في الوقت نفسه؛ فمن الواضح أنّهما حضرا الحفل بإلحاح من ماما. لهذا قالت لهما حين وصلا: "شكراً ابن خالتي، شكراً ابن عمّتي، لمجيئكما".

امتلأت الساحة بقادمين جدد، وبدأ فنّانون وفنانات، اعتلوا دكّةً مستطيلة، عُملت أمام الكازينو، بالعزف والغناء. وفيما كثيرون يتفاعلون مع الغناء، يصفقون، ويرقصون، ويردّدون كلمات احتفالية

مكتبة الفكر الجديد

بإيقاع واحد مع أصوات الآلات الموسيقية، وصلت شمعة وهاي هتلر بسيّارة شفروليه، زُيّنت مقدّمتها بعقد فلّ طويل وعريض. راحت النسوة يزغردن بحماس فيما الرجال يهتفون: "هاي شمعة... هاي شمعة".

"ورجعنا إلى هاي" قال المعلّم هامساً. "لقد حلق شاربه الهتلري، خلاص" أضاف. هزّ فرانسيسكو، الذي كان يسمعه، راسه دون أن يقول شيئاً، فيما ارتفع صوت سعيد: "تزوّجته لتحلق شاربه وتغيّر اسمه، أصبح بلا شارب".

"حلقت شاربه، لكنّها لم تستطع إلغاء اسم هاي هتلر" قال العارف، وأخذ يدي، كما أمسك بيد ماما، ومضينا لنقترب أكثر من شمعة وهاي.

ذكّرت العارف بالخصام بين شمعة وهاي هتلر، وامتناع الآخر عن الغناء معها منذ أسابيع، فابتسم ولم يقل شيئاً. هل كان الخصام حيلةً من قبلهما، ليقولا لليهود المعترضين على الزواج: إذا لم توافقوا سيرجع ولْد تقيّة إلى هاي هتلر؟

بدا أن من الصعب الاقتراب من العروس والعريس، مع هذا وصلنا إليهما. كان زحام المهنئين على أشدّه، ولم يتح لنا التحدث معهما أكثر.

"ماما، أوصلي ميشيل غداً إلى عندي، في منزلي الجديد" قالت شمعة. فهززتُ راسي موافقاً، ولم أدرِ ماذا أقول.

واصل الفنّانون الغناء، وسط صخب من الصعب سماعهم فيه. بدت الفرحة على وجوه كثيرين. وقد أشار العارف وماما إلى

مكتبة الفكر الجديد

خصمين لدودين، من طائفتين هنديتين، حضرا هذا الحفل. كانا يصفّقان لأغنية، كلّ واحد في جهة. "ذاك سوامي، أبو شنكر، من البنيان، الهندوس، تاجر عطور وبخور وصاحب مسرح الحكايا في التواهي، والثاني اسمه صدّيق، هندي مسلم، ليس من أي طائفة. يقال إنّه من الخوجة الاثنا عشرية. هو ضابط ورياضي". مع هذا رأيت رجلاً هَرِماً تتدلّى الزنانير من جانبي رأسه، وهو يدفع بجسده النحيل بين الزحام، ويرفع صوته، وسط صخب الأغاني، بالقول: "غير مبارك... زواج غير مبارك. عليه لعنة الله في السماء والأرض".

وليم كان يرقص بحركات متقنة مع حلاها، وقد بدت بعمر الصبا وبجمالٍ بهيّ لم أرهما فيها من قبل. في القرب من المتحلقين حولهما كان هناك اثنان عرّفتني إليهما ماما، أحدهما فرانس، من هولندا، والآخر هنري، من أميركا. ظهرا منشغلين بأخبار الحرب، ومصير هتلر واليابان، فلم ينتبها حتّى لاسمي، أو لوقفة العريس والعروس على الدكّة، بجوار الموسيقيين، وتقديمهما أغنيةً حوارية تبادلا فيها كلمات الحب. إذ بدا هاي، وهو يرقص على إيقاعها، في حالٍ غير معهود منه.

ما غنّياه كان بمثابة انطلاق سهرة الحفل، بعد مقدمات غنائية عدّة. فما إن رجع هاي وشمعة إلى مقعديهما حتى واصل الفنانون الغناء، كما واصل الكثيرون من الحاضرين والحاضرات الرقص بإيقاعات متنوعة كتنوع ملابسهم. ازداد عدد المتحلّقين حول وليم وحلاها. تتشابك يداه مع يدَيها، فيما كانت أيادي ميجي وعبدي والعَلَقة وفرانسيسكو والمعلّم تصفّق لهما بشدّة. ازداد التصفيق مع

مكتبة الفكر الجديد

قيام ميجي بسحب يد العَلَقة لتشاركه هي الأخرى الرقص. اكتظت الساحة بمختلف الألوان في الأزياء والغناء والرقص. شدّتني كثيراً رقصة كان فيها الرجال والنساء يرقصون معاً، على إيقاع طبل ومزمار، وأطراف أيديهم متشابكة، في صفين متقابلين، يتقاربان ويتباعدان بحركات منسّقة مصحوبة بزغاريد النساء. "اسمها رقصة الرُّكْلة" قالت ماما.

دلّتني على كثيرٍ من أسماء الرقصات: الشَّرْح التي أدّاها رجال ونساء على إيقاع طبلة. والرَّزْحَة، رقصها رجال ونساء في صفين مع قارعي طبول. والمُرَكَّح، رقصتها امرأتان على إيقاع طبلة وهما تقبضان على مصرّي رأسيهما. كان العارف يسمعها ويبتسم. رقصة اخرى، لم أسأل ماما عن اسمها، أدّاها شاب وشابة بشكل مثير لعيون الحاضرين. كانا يرقصان على إيقاع طبل ومزمار بحركة سريعة ومتناغمة، وكأنّهما يطيران. تتشابك أيديهما تارةً وتفترق تارةً أخرى. تمسك الشابّة بيدها اليمنى بجانب من فوطتها المزيّنة بألوان حمراء وخضراء وبنّية وسماوية وخيوط ذهبية، فيما تمسك باليد الأخرى طرف مصرّها الملون، الملفوف على رأسها، وتفرده على هيئة جناح وهي ترقص. بدوره يقوم الشابْ بمتابعة خطواتها وهو رافع يده اليمنى إلى أعلى، وكأنّها جناح طير، أو سيف مرفوع.

صرنا بالقرب، مجدداً، ممن أسماهما العارف بحفيدَي الهاربين القدامى. كلّ من رآهما سيقول إنّ صداقة تجمعهما، إذْ ظلا يتحرّكان ويتحدثان معاً طوال الوقت. "جدّي الأوّل القديم، مثل جد شمعون، هو الذي هرب إلى عدن، أمّا أنا فعدني، أباً عن جد". قال كيكي

مكتبة الفكر الجديد

مروانجي. كانا مبتهجين في الحفل، كما حال أبي الفضل. أمّا المعلّم وميجي والعلقة وشنكر وفرانسيسكو والبقيّة، فلم أعد أراهم. وليم قال إنّه سيسبقنا وطلب من ماما السماح له بأن يوصل حلاها معه فوافقت. سعيد والوهطي سبقا الجميع في المغادرة، ولم يكلّفا نفسيهما باختراق الزحام ليهنئا العروس والعريس.

كان سعيد قد أخبرني، حين عزمني على غداء في مطعم العديني، أنّه يعمل مشرفاً على مجموعة عمّال ينزلون البضائع من السفن، وينقلونها عبر الصَنابيق إلى محطة الرصيف، أو يحملون البضائع الصادرة إلى السفن. "أنا أيضاً أحمل معهم. لكني أرتب مهامهم حتى لا يختلفوا على دور كلّ واحد منهم، أو تنشب مشكلة عن أجورهم التي أشترطها أنا على التجّار" قال.

يسكن سعيد في التواهي بالقرب من الميناء، حيث ترقب مجموعته قدوم السفن، إلاّ أنّه لا يغيب يوماً عن مقهى زَكّو في كريتر، أو بالأصح لا يفرّط في لعب الورق في المقهى الذي تعرّف فيه على من صار شبه ظلّه، أحمد الوهطي، خريج جامعة القاهرة والموظّف في شركة البِس.

في طريق العودة من الحفل بقيت مع ماما والعارف، نتحدّث عن القادمين الأوائل إلى عدن. "حلويات الهندي مشهورة بهذا الاسم في عدن، أمّا خارج عدن، في البلدان والمدن والقرى، فمشهورة باسم حلويّات العدني" قالت ماما. "عرفتُ أنّ الجد القديم لعم شمعون، صاحب دكّان اليهودي، جاء من إسبانيا هرباً من الاضطهاد. لكن حفيده لم يحدد نوع هذا الاضطهاد" قلتُ للعارف.

مكتبة الفكر الجديد

"كان جدّه يخاف، أيّام زمان، من ملاحقة أتباع الكنيسة، فلم يبح بسبب مجيئه" أجاب.

"ألم تحرّره عدن من الخوف؟".

"يستطيع الإنسان أن يتحرّر من كلّ شيء إلاّ الخوف، فلن يتحرّر منه إلا بالموت" قال العارف، وأوضح أنّ الجدّ القديم لكيكي مروانجي "زرادشتي هاجر، هو أيضاً، من فارس إلى الهند، هرباً من المتعصبين المسلمين، لكن الخوف بقي معه، في الهند، فهرب إلى عدن".

بعد لحظة صمت، أضاف: "في إسبانيا، كما في فارس والهند، المتشدّدون كانوا أكثر خوفاً، فحاربوا بخوفهم مَن يخافونهم. الخائفون أكثر هم الذين يخيفون، ولا يستطيع أحد العيش بدون خوف، حتى الأحجار تخاف" قال، ولم يشرح كيف.

مكتبة الفكر الجديد

عامل أغنية

"اقترح عليك أن تعمل معي كمتعهد حفلات، بنسبة عشرين في المائة" قالت شمعة، حين وصلت مع ماما إلى بيتها في كريتر. "هو عمل غير متعب. ستداوم ست ساعات يومياً، ثلاث في الصباح وثلاث في المساء. ستقوم بترتيب مواعيد الحفلات في الكازينو، وحفلات الأفراح والمناسبات التي يدعونني إليها" أضافت وسكبت لنا فنجاني قهوة.

لم أستطع قول أي شيء، أكثر من شكرها على اهتمامها بي، آملاً أن أكون عند حسن ظنّها بي. كان عقد العمل معها جاهزاً، ولم أقم سوى بالتوقيع عليه. لم يكن من اللائق أن أقرأه، أو هذا ما بدا لي، مع أنّ شمعة قالت: "اقرأ العقد، وعدّل فيه كما تريد". لقد بادلتها، بتوقيعي السريع، ثقةً بثقة. ثم إنني لا أجد أي مشكلة في العمل على أي نحو، خاصةً مع شمعة، هرباً من العطالة التي أنا فيها.

"سيكون من الصعب عليك الذهاب كلّ يوم في الظهر إلى سكنك والعودة في العصر. يمكنك أن تبقى هنا لتتناول الغداء والاستراحة حتى موعد فترة العمل الثانية. سأخصص لك غرفة" قالت شمعة

مكتبة الفكر الجديد

والتفتت إلى ماما. أنا أيضاً التفتُّ إليها. لم تقل ماما شيئاً، ولم يكن لدي ما أقوله. هل كان علي أن أقول إنني اسكن في بيت لم أشعر سوى فيه أنني في بيتي؟

تلفَتُ علّني ألحظ أثراً لعريسها هاي هتلر. هل كان في الخارج أم نائماً؟

ساكون بمأمن من الشائعة التي قد تلحق بي جرّاء اهتمامي بشمعة أو اهتمامها بي، كتلك التي لحقت بي في منزل السيّد جراهم. لقد تزوّجت بهاي هتلر وعليّ أن أعمل معها دون أي حرج.

لم أكن أخاف أن تصل إلى ماما الشائعات عن علاقاتي، ومعظمها كانت مزاحاً من قبل أولئك الذين يقاسمونني أوقات الفراغ في المقاهي وعلى شاطئ البحر، حيث صرت أذهب لألامس الأمواج، بل كان خوفي هو أن تصدّقها ماما، كما تصدّق أحلامها التي تصير واقعاً.

مكتبة الفكر الجديد

تكفير البخور

"البخورُ كافر" صارت العبارة الأكثر تداولاً عن الشيخ عبد الجبّار. سمعتها في أكثر الأماكن، حيث بدت مثيرةً للتساؤل، إذ لم تكن محل سخرية عند الكثيرين.

كان الخطيب الجوّال، كما يسمّونه، قد خطب في مسجد الهداية بكريتر مستنكراً ما أسماه الفحش الذي يحدث أثناء زيارة ولي الله العيدروس بسبب اختلاط الرجال والنساء. ومع أنّ الخطبة ذاع صيتها، وصارت عبارتها التكفيرية على كلّ لسان، بما في ذلك ألسنة الأطفال، فإنّ الشيخ لم يكتفِ بها وراح يخطب في مسجدٍ ثانٍ في كريتر، وثالثٍ في الشيخ عثمان مستبقاً موعد الزيارة التي قالت ماما إنّها تقام كلّ عام، في الثالث عشر من شهر ربيع الآخر الهجري.

لاحظ ميجي قبل ليلة من زيارة العيدروس أنّ كثيرين صاروا يتوقعون ظهور الشيخ عبد الجبار في مسجد حارتهم ليخطب فيهم، منذ أن صار خطيباً جوّالاً، إثر تنحيته من خطبة يوم الجمعة، في مسجد الصلاح الذي كان إماماً له.

"المصلّون في المسجد فضّلوا إماماً ثانياً عليه" قال المعلّم، وهو

مكتبة الفكر الجديد

يرتشف الشاي في مقهى زكو. لم يتفق معه سعيد وقال: "الإدارة البريطانية في عدن منعته بعد أن دعا الله، في خطبةٍ له، أن ينصر هتلر، أو الحاج محمد هتلر كما يسمّيه".

"مُنع بعد أن خطب ضد بنات التجار، واستنكر تعليمهن. التاجر، الذي بنى المسجد، هو من أتى بالإمام الجديد، ومنع الشيخ عبد الجبّار، حتى من الدخول للصلاة بالمسجد، لما يحدثه من ضوضاء" أضاف ميجي من جانبه.

ما اعتبره الشيخ عبد الجبار فسقاً أو فجوراً، في زيارة العيدروس، قال إنّه يمارس بتشجيع من الجماعات الغامضة. ونقل سعيد قوله إنّ هناك علاقة بين أتباع الصلاة الغامضة وأصحاب الطقوس الغامضة.

لم يُنقل عن الشيخ تسميته هذه الجماعات الغامضة، إلاّ أنّ من الواضح لدى المصلّين، كما لدى من تناقلوا أقواله، أنّه كان يشير إلى الجماعات الماسونية المنتشرة في عدن.

البعض من سامعي الخطبة، أو من أولئك الذين نُقلت إليهم، ومنهم سعيد، رأوا أنّ تكفير البخور بقوله: البخور كافر، كان فلتة لسان من الشيخ، إذ من المؤكد أنّه قصد: تحريم البخور. لكنّ الخطيب الجوّال المعروف بعناده لم يتراجع عن الزلّة وقام بخلق التبريرات البلاغية، ومنها قوله إنّ البخور المنبعث من المباخر المحمولة، ومن بين أفخاذ النساء المبخّرات، يهيّج الرجال وهم يشمّونه مخلوطاً بعَرَق النساء، فيوسوس لهم الشيطان بالفجور؛ الشيطان الذي يظهر، كما صوّره لهم، على هيئة بخور كافر.

كنتُ متلهفاً أمس، وأنا أستمع للأحاديث، لاستكشف الطقوس

مكتبة الفكر الجديد

الغامضة في الزيارة.

"كل الصلوات غامضة" قال العارف الذي كنت قد تواعدت معه لزيارة العيدروس. كان يمشي وهو ممسك بيد المعلّم، وبدا لي أن عدن بمعظمها كانت على موعد مع هذه الزيارة.

سمعتُ كثيرين يردّدون: "شيء لله يا عيدروس". قلتُ العبارة وأنا أقترب من ماما التي لم تكن قد انتبهت لوجودي. التفتت وصافحتني، كما صافحت العارف والمعلّم، بحميمية. كانت في زيٍّ قرمزي بخطوط صفراء وزرقاء، لم أرها تلبسه من قبل. بدت مبتهجةً كأنّها في عيد، أو أنّها في يوم عيد الأعياد.

"أعرّفك على أصدقائي: ابراهام وألفرد من أمريكا، ميتا ألمانية ولكنها تعيش في هولندا" قالت معرّفةً بمن كانوا يمشون إلى جوارها. صافحناهم. "جاؤوا الثلاثة إلى عدن، للمرّة الثانية، من أجل هذه الزيارة، ليحضروا زيارة العيدروس"، أضافت، وقالت لهم: "اخبروهم كيف رأيتم الزيارة، هل هي كما وصفتها لكم؟".

"جميل، مدهش، مثير" قالوا بكلمات متداخلة. "خباتِ عنّا، بوصفك، بعض ما فيها من دهشة" أضافت الألمانية.

مجموعات متتالية من الأطفال كانت تردّد التهاليل المرتّلة بأنغام جذّابة: "يا سماء صُبّي لبن بن عبد الله داخل عدن".

اقترب منّا شيخ بثياب بيضاء. صافح العارف ولم يلتفت إلينا. بقيت أسمعه يتحدّث عن كرامات العيدروس وكيف أنقذ عدن من الموت. كان يتذكّر بإعجاب وكأنّه عاش لحظة مجيء هذا الولي إلى عدن قبل مئات السنين، وشهد معه المجاعة، بل واستمع إليه وهو

مكتبة الفكر الجديد

يرفع صوته منادياً: يا سماء صُبّي لبن. لتمطر السماء لحظتها لبناً أشبع الناس واحتفظوا بما تبقّى منه في الجرار.

كان العارف ينصت باهتمام وهو يهزّ رأسه، إلى أن أشار محدّثه إلى مسجد العيدروس، قبل أن نقترب منه، وقال بانبهار إنّ أبوابه ونوافذه جاءت وحدها من الهند، عبرت البحر إلى عدن دون أن يحملها أحد.

اكتظت الطريق المؤدّية إلى مسجد وضريح ولي الله العيدروس بالآلاف من الناس. بدأ الموكب من مسافة بعيدة، يتقدّمه شيوخ بملابس وعمامات بيضاء، يحملون بيرقاً من أعواد خشبية برايات خضراء، تعلوها قطع حديدية على شكل هلال. وبجوارهم فتيان يحملون مباخر، يقومون بين لحظة وأخرى بتأجيج النار فيها ووضع قطع البخور، لتنتشر نفحاته في أجواء حارة بدأ فيها فصل الربيع بنشر توهجه.

رجال كبار السن وشباب، نساء وفتيات وأطفال، كانوا يمرّون مبتهجين وهم يتبعون وجهة البيرق. كثيرون من الذين عرفتهم جاؤوا للمشاركة في الزيارة. بعضهم وجد المناسبة فرصةً للربح، فجاؤوا يبيعون الألعاب والحلوى والمأكولات الخفيفة والماء والعصائر.

بقيتُ مع العارف والمعلّم بالقرب من ماما. لا أدري لماذا كنتُ بين لحظة وأخرى أمسك بيدها. أشدّ عليها كثيراً. هي الغبطة، ربّما. الغبطة بالوجود الذي نادراً ما يشعر به شخصٌ مثلي. إذن أنا موجود، أقول لنفسي.

رأينا فرانسيسكو مع شخص آخر، بملامح أوروبية. لم ينتبها إلينا،

مكتبة الفكر الجديد

وحين دعاه العارف عرفنا أن الذي معه طبيب إيطالي، اسمه أنطونيو، قدم من صنعاء بعد زيارة إليها دامت ثلاثة أشهر قام خلالها بمعالجة الإمام يحيى. "مُرض أنطونيو بعد أن عالج الإمام. لم يعثر على علاج له، وصاروا يعالجونه بأعشاب وطُرق شعبية أنقذته من موت محقق، لكنّه خاف على حياته ولهذا عاد مسرعاً" قال فرانسيسكو.

ابتسم الزائر الايطالي، وأبدى إعجابه بالحياة في عدن ومجتمعها. دعاه العارف إلى جولة يأخذه فيها للتعرّف أكثر على عدن، وقال له: "أنت لم ترَ من الجَمَل إلاّ أُذنه". وإذ بدا أنطونيو خلال لحظات يفكّر في المَثَل الذي سمعه، ابتهج فجأةً وكأن المعنى قد وصل إليه وقال: "أتمنى ان ارجع إلى هنا. عدن بلد آخر، مختلف، فيها كلّ شيء، أو هي من كلّ شيء".

مكتبة الفكر الجديد

حلويّات الهندي

اعتذرتُ حين طلب مني خسرو، ابن كيكي مروانجي، أن أحضر حفل زفافه، بعد أن اتفقت معه أن تحيي شمعة هذا الحفل. كان ذلك قبل أيّام من زيارة العيدروس. قلتُ لنفسي: ليس بالضرورة أن أحضر كل حفلاتها، وبالذات تلك التي تقيمها في المنازل، وإن كانت بتنظيم مني.

قهقهت شمعة كثيراً حين أخبرتها عن هذا العرس. "كيف؟ أنا أحيي عرس ابن كيكي. مرّة ثانية نكرّر القصّة؟". لم أفهم سبب ضحكها على هذا النحو الصاخب. "المهم، خذ من كيكي تعهّداً بأن لا يتكرّر ما حصل في المرّة السابقة". حاولتُ أن تتماسك، لكنّ كركرتها عادت وهي تضيف: "يتعهد لي أنّني لستُ مسؤولة لو حصل أي شيء". "سأقوم بذلك وأطلب منه التعهد" قلت لها وقد أخذتُ الموضوع بجدّية، مع أنني لا أعرف لماذا، أو ما الذي حدث من قبل. "لا، لا تطلب منه التعهد. القصّة قديمة تتعلّق بفرهاد. لكن ماذا لو تكرّرت؟" قالت وعادت تضحك.

أرغب في سماع شمعة، ورؤيتها، في كل وقت تغني فيه. لكن

مكتبة الفكر الجديد

كان عليّ أن أدرك أن أصحاب الحفلات ليسوا جميعهم أصدقائي أو من المعروفين. مع هذا رحت إلى منزل صاحب الحلويات الشهيرة، بعد أن جاءت ماما. "أبي كيكي سيزعل منك إذا لم تحضر عرس ابنه" قالت. "العرس يقام في يوم النيروز، عيد الفُرس".

كانت هناك الكثير من الوجوه التي لم أرها من قبل. بدا كيكي مروانجي لطيفاً وهو يعرّفني على ضيوفه. قبل ذلك عرّفني إلى زوجته لورا وابنته شيرين. "كم أتمنى أن أتعلّم الفرنسيّة؟" قالت ابنته، التي تبدو في الثالثة عشرة من عمرها، حين عرفتْ أنني فرنسي. قلتُ لها إذا كانت جادة فإنني مستعد أن أعطيها حصّة في يوم العطلة الأسبوعية، فقط.

"أنا أدرس في المدرسة الكُجراتية. أنا زرادشتية، كأبي وأمّي، ولستُ بانيان. ولأنّ جد بابا جاء من الهند يسموننا عائلة الهندي" قالت، وأشارت إلى صديقاتها ليقبلن ويتعرّفن إليّ. "صديقاتي أكثرهن من البانيان. أحب عباداتهم، لكنني لا أذهب إلى معبد شري تريكا ولا إلى شنكر". "لكنّك تروحين إلى الخُساف وحقات" قاطعتها إحداهن وهي تضحك. "يا ليت أروح. أنتِ تروحين. هناك معابدكم" ردّت وعرّفتني بمن كانت تضحك: "سوشميتا. هي بانيانية". "لم أذهب قط، حتى مع أهلي، إلى معبد النار في الطويلة. سمعتُ عنه فقط. كنت أريد أن أراه من بعيد. أنا كسولة في الدين" أضافت شيرين. وعرّفتني إلى بوران، "ابنة خالتي جالا، الأرملة المكافحة" قالت. كنّ بعمرها، وإن بدت تسنيم التي قالت إنّها من البُهرة أكبر منهنّ قليلاً. "كلّما قابلت فرنسياً تذكّرت حلمي

مكتبة الفكر الجديد

بالزواج من فرنسي يشبه البِس" قالت ضاحكةً وهي تصافحني. "فرصتك، ها هو أمامك ولكنه ليس بِسّاً" قالت شيرين. ضحكن ولم أعرف السبب. "البس معناها القط، وليست اسماً فقط لأشهر تاجر في عدن" أوضحت شيرين ولم تنسَ أن تعرّفني إلى فريال، عروس أخيها، حين وصلت بثوبها الزاهي بالألوان.

انتبهت إلى مجيء القالي وفيلسوف عدن مع عائلتيهما ليسلّما عليّ. تعرّفت إلى زوجتيهما هذه المرّة أكثر، وحفظت اسميهما جيّداً، نهلا وورد، لكنّي لم أحفظ أسماء أطفالهما. ابنتان وولد للأول، وابنة واحدة للثاني، جميعهم كانوا ما بين السابعة والثالثة عشرة سنة.

ما إن رأتني ماما أصافح القالي وفيلسوف عدن، ومعهما المعلّم، حتى أقبلت مبتهجةً وحيّتهم بكلمات حميمة. وإذْ اقترحت عليّ أن تقدّمني إلى الشيخ عبد الجبّار، فوجئت بأنني قد سبق وتعرّفت إليه، لكن الشيخ عبد الجبّار بادر من جهته وعرّفني إلى من قال إنه الشيخ المجاهد، أبو القاسم المِيزِني، رئيس جمعية الاعتصام الإسلامي.

"عبدالجبّار حضر مع أبي القاسم ليشكرا كيكي، لقيامه بالتبرّع من أجل بناء مسجد للمسلمين. كان قد أشيع أنَّ كيكي ساهم ببناء كنيس لليهود فغضب بعض المسلمين منه" قال سعيد وحدّثني عن عيد النيروز الذي يقيمه كيكي سنوياً وأنّ عبد الجبار ظن أنّه يحضر حفل عرس وليس عيداً دينياً يخالف معتقده، أيضاً. "كيكي لم يقصد أن يخدع أحداً" أوضح، وإذ انتبه إلى اقتراب شخصين منه راح يصافحهما ويعرّفني إليهما: "زعيما أحرار اليمن. هربا إلى عدن خوفاً من البطش. يعيشان هنا ويكتبان في الصحف ضد حُكم الإمام"

مكتبة الفكر الجديد

قال ونسي أن يذكر اسميهما، وكأنّهما مشهوران بصفتهما.

لم أعد أتحسس كثيراً تجاه علاقة ماما بسعيد. تأكّدت أن مقابلاتها الحميمة له لا تختلف عمّا تبدو عليه حين تقابل الآخرين.

كان واضحاً أنّ ماما تدفع بسعيد إلى مصافحة عم شمعون، وهو ما تحقّق في لحظة ارتباك.

تمنّى صاحب دكّان اليهودي أن أشارك والعارف وماما وسعيد في يوم الزيارة السنوية للولي الشَبَزي. "لا، شكراً" سارع سعيد برفض الدعوة، قبل أن يسمع الموعد.

علاقة الشيخ عبد الجبّار مع عم شمعون بدت مختلفة عن أي علاقة أخرى. كان الاثنان بالقرب من ماما. يتحدّث كل واحد منهما، في الوقت نفسه، وكأنّ الآخر غير موجود، أو أنّ هذا الآخر لا يستحق حتى لفتة قد تنبئ عن اهتمامٍ ما. حين تباعدا أكثر سألت بفضول عم شمعون: "ألا تعرف الشيخ عبد الجبّار؟". بدا منزعجاً وهو يسمع اسمه. "ذلك الذي يحرّم الخمر والنبيذ والتبغ والتنباك والقهوة. يحرّم الغناء، ويقول إنّ صوت المرأة عورة" قال دون أن يشير إليه، ولو بنظرة خاطفة. "كلّ شيء حرام عنده" أضاف.

البنت اللطيفة تسنيم، التي تحلم بالزواج من فرنسي، بادرت وعرّفتني إلى أبيها: صاحب مصنع للأقمشة وتاجر واسمه مُفَضَّل، في الوقت الذي عاد فيه كيكي إليّ ومعه شخص آخر: "سورابجي، أبو العروس" قال. وإذ تبادلنا التحيّات عرفت أنّه صاحب مطبعة. فقد راح يبدي رغبته في طبع مستلزمات شركة عدن فون التي تتعامل معها شمعة. "لتظهر بشكل أنظف. نحن نطبع بثلاث لغات:

مكتبة الفكر الجديد

الإنجليزية والعربية والكجراتية، ونصوّر اللغات الأخرى" قال. "ألم تسمع بمطبعتنا؟ نتعامل مع شركة أوديون. ألم ترَ نوع الطباعة الفاخر لكتالوجاتهم؟" أضاف.

انتبهت إلى وجود الخصمين اللدودين، سوامي وصدّيق، اللذين سبق ورأيتهما في عرس شمعة وهاي وهما يصفّقان لأغنية، كلّ واحد في جهة. لم يكونا متباعدين هذه المرّة وصارا يجلسان معاً. "للسيد كيكي سطوة ليصالح بينهما، ولا يتجرآن على الظهور، على الأقل، أمامه كخصمين" أوضح العارف.

قدّمني وليم إلى هارون، صانع ذهب وفضّة ومالك محل الجواهر الصافية. كما قدّمني إلى رجل أعمال بريطاني أسماه: رجل الحرب؛ قال إنّه عمل وسيطاً لشراء صفقات أسلحة دفاعية لعدن وعدد من البلدان.

"تبدو عدن كلّها هنا الليلة" قلت لماما. "جميعهم يتذوقون الحلوى، جميعهم يتفقون على الحلوى" قالت.

شكرتني شمعة، قبل أن تغني، لترتيبي هذا الحفل. ربّما أرادت أن تقدّمني إلى جميع الحاضرين، بعد أن كفّوا عن الثرثرة واتجهوا بعيونهم وآذانهم إليها، منتظرين أغنيتها الأولى.

خان شارك شمعة بأغانٍ هندية عزفها على آلة السيتار بألحان رقيقة، فيما غنّى هاي هتلر أغنية فارسية بآلة السنتور التي يعزف عليها فرهاد عادةً. وفيما كان إيزانا يشارك بضرب الطبلة، غنى الاثنان مع شمعة أغنية عربية تتخللها كلمات هندية وعبرية وبلحن متداول سمعته من قبل. كانت شمعة قد بدأت بدعاءٍ معتاد ثم انتقلت معهم إلى إيقاعات راقصة.

مكتبة الفكر الجديد

ما انتبهت إليه أنّ فرهاد لم يحضر الحفل ليغنّي وهو الأكثر تخصصاً بالأغاني الكجراتية المخلوطة بألحان فارسية. كان على شمعة أن تحضره معها لعلاقة كيكي مروانجي بفارس، لكن ما قالته عن القصّة القديمة التي لا تريدها أن تتكرّر في حفل مروانجي، وتتعلّق به، قد تكون السبب وراء تغيّبه. القصّة التي أرغب في سماعها لأضحك، مثل شمعة.

مكتبة الفكر الجديد

ذكريات مُربِكة

"قلقتُ عليك" قالت ماما بعد أن كنت قد بدأت أغيب عنها. "أجلسُ أسمع البروفات الغنائية من الفرقة وشمعة ولا أستطيع أن أرجع إلى البيت. يكون الوقت متأخراً فأنام" قلتُ. "تنام في غرفتك؟" سألتْ. "نعم، في غرفتي، بعد انتهاء البروفات" أجبتُ.

يداوم أعضاء الفرقة الموسيقية على البروفات كلّ ليلة مع شمعة. أعمارهم تبدو ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين سنة. تعرّفت أكثر إليهم، عن قرب: خان متوسط الطول وممتلئ الجسم، ذو سحنة سمراء، أو قريبة منها، يظل قابعاً خلف آلة السيتار، ويغني بالهندية والإنجليزية؛ بجانبه إيزانا النحيل والطويل، الذي تبدو سمرته وكأنها تتوهج بالضوء حين يعزف الطبل أو الدف أو الكمان، وهي الآلات التي يجيد التعامل معها، كما يجيد الغناء بالأثيوبي والصومالي والسواحلي. أمّا فرهاد، المتوسط القامة والمائلة بشرته إلى البياض، فيعزف الألحان الفارسية بالسنتور ويغني بالكجراتية والإنجليزية والكردية. في الطرف الآخر يجلس هاي هتلر، الصامت عادةً إلاّ إذا تناول العود بأوتاره الخمسة وراح يعزف عليه، أو نطّق آلة الطنبورة

مكتبة الفكر الجديد

أو التنك بعزفه عليهما، أو نطّق جسده المعتدل في طوله وعرضه وبياضه وراح يغني بالتركية أو بالعربية التي يغنّي بها الجميع أيضاً.

يجيء إليهم، في أكثر الأيام، ثلاثة أشخاص، أحدهم فنّان يسمى الكوْكَباني والثاني شاعر واسمه الزِّبيْدِي. الثالث هو سالم، الأسود الذي ينادونه بالخادم، صوته جميل ويعزف بطريقة مدهشه ابتكارية على الآلات الإيقاعية. كان يجلب لهم الشراب البلدي. قالوا إنه غنّى ليلةً واحدة، فقط، مع فرقة شمعة، ثم غاب. "لا يلتزم بأي شيء" قال خان. "هو يحب أن يبقى متجولاً، يغنّي في الأسواق مع زوجته وطفلتيه. في العصر يخزّن القات وفي الليل يشرب. لا وقت لديه للحفلات".

هناك، أيضاً، مريم المسلمة. في الخمسين من عمرها، أو أكثر. تعيش في البيت نفسه وتتعامل معهم برقّة وهمس كأنّها كتلة من حنان تهبه لمن شاء ولمن لا يشاء. تطمئن بين لحظة وأخرى على أحوالهم وتقدم لهم ما يطلبونه من أكل وماء. تناديها شمعة: أمي مريم، كما يناديها كل من في البيت هكذا، بمن فيهم أنا. تجيبهم في أي لحظة باستثناء وقت الصلاة حيث تكون في ما يشبه الغيبوبة.

في الليالي التي صرت أبقى فيها إلى جوارهم حتى قرب الصباح ظهر الموسيقيون كأنّهم نسوا أنّ هناك أمكنة خاصة للنوم، فملابسهم وأشياؤهم المختلفة يضعونها إلى جوار فُرَشهم التي يجلسون وينامون عليها في قاع الغرفة المستطيلة وأمام كلّ واحد منهم آلته التي تبدو كمعشوقة لا يبرحها أبداً. كانت شمعة كلّما رغبت في النوم مع هاي تقوم بسحبه من جوار آلته بطريقة صار ذكرها مثارَ ضحكٍ لديهم.

مكتبة الفكر الجديد

"الملل أصابهما، لم تعد علاقتهما سوى تحقيق رغبات مؤقتة" قال خان الذي سبق له هو الآخر أن تزوّج شمعة. "مع أنهما لم يمضيا أكثر من ثلاثة أشهر" أوضح. "لكن علاقتهما قديمة".

"أقلق عليك" صارت ماما تقولها كثيراً، وهي تضحك، كلّما غبت لأسمع البروفة. تقلق عليّ وهي تضحك. لم يعد قلقها صافياً. لقد صار بضحكة.

لا أدري كيف ازدحمت كل هذه الذكريات مع شمعة. ذكريات مربكة، لم يعد باستطاعتي حتى أن أرتّب ما يمكن كتابته منها. لقد أمضيت شهوراً قليلة معها، لكنّها تبدو لي، أحياناً، وكأنّها الدهر كلّه. حاولتُ، في الليلة الأولى من مجيئي، أن أنام في غرفتي التي خُصّصت لي. لكنّني شعرت أنّ جسمي لم يعد معي. فأذنَي أبقيتهما في الغرفة المستطيلة مع أعضاء الفرقة، فيما أطلقت عينَي، وبقيّة أعضاء جسمي، لتتبع شمعة، أتخيّلها وقد ذهبت إلى مرقدها وحيدةً بدون هاي الذي حاولوا ضاحكين أن يدفعوه للذهاب معها بدون جدوى. لقد تشبّث بالبقاء ليكمل معهم السهرة التي قاربت الصبح، وامتلأت بجرعات كؤوس الشراب والضحكات الصاخبة والأغاني المنوّعة. شمعة شاركتهم الضحك والغناء، لكنّها لم تشرب من قواريرهم المتناثرة. كان أمامها إبريق من الفخار، مغطى بأعواد من العشب، تسكب منه بين حين وآخر شرابها الخاص، فيتقطب وجهها كلّما اجترعت بعض الرشفات منه. "الوقت متأخر، علينا أن ننام" قالت وهي تنظر إلى هاي. "لو لم تلحقني سريعاً سأروح عند ميشيل، يعلّمني اللغة الفرنسية" أضافت وسط ضحكات الجميع، وراحت

مكتبة الفكر الجديد

لتصعد السلّم الخشبي، المؤدي إلى غرفتها في الطابق العلوي، بخطوات مسموعة. ذهبتُ بدوري إلى غرفتي التي تتوسط غرفتين لنوم الفنانين وغرفة للأم مريم، قبالة الغرفة المستطيلة، وبقي هاي، كالآخرين، بجوار آلته الموسيقية.

اردتُ أن أُبقي الباب مفتوحاً على مصراعيه لأسمع ضحكاتهم ونكاتهم، ولكنني خفت أن يُفهم من هذا التصرف أنني أتقصّد أن يتبعني أحد إلى الغرفة، والتخمينات لن تذهب بعيداً عن شمعة. مع هذا كان عليّ أن أترك الباب مواربا ليخفف مع الشبابيك شدّة الحرّ. وبدا أنّ هاي صمّم أن لا يلحق بها، فبعد لحظات ليست طويلة جاءت إليّ وبيديها إبريقها وفنجانان. "الحرّ لا يساعدنا لننام" قالت وراحت تسكب: "إيزانا هو زوجي الأوّل. رايته يتمايل طرباً وهو يتسم في حفلة لي فأعجبت به. أعجبت بابتسامته. شعرت أنّها أصدق ابتسامة رايتها. أصدق من ابتسامة الأطفال. لم أكن أعرف حينها أنّه مسيحي. قلت له تهوّد بالاسم، تظاهر أنّك يهودي لأتزوّجك، فوافق. ربما خجلاً مني. لا أعتقد أنني سأقابل من هو أكثر خجلاً منه. تهيا لي انّي لو قلت له ارمِ بنفسك إلى البحر أو اطلع الجبل وأعطني حليب الجنّية لفعل. قلتَ له، بعد سنتَي زواج، علينا أن نتطلّق فوافق أيضاً. العمر الطبيعي لأي زواج لا يزيد على سنتين، وإذا زاد يصبح كارثة" ضحكت. "زوجي الثاني هو فرهاد، ابن كيكي، الذي ترك زوجته ليلة الدخلة وتبعني. أعجب بصوتي حين غنيت في عرسه. لديه أذن موسيقية عاشقة، هي من أحبّتني من جسده. لأنّه فنّان. هدّد بالانتحار إذا لم يتزوّجني، فأرضى والده اليهود بالمساهمة في بناء كنيس لهم.

مكتبة الفكر الجديد

أبوه يحبّه كثيراً. لبّى رغبته لكنّه اشترط أن لا يعيش معه في البيت". ولهذا لم يحضر عرس أخيه. "الثالث هو خان، ابن التاجر الهندي بهادر، أهداني أغلى هديّة في الوجود. نعم أغلى هديّة في الوجود. تركت فرهاد وتزوّجته. لن أقول لك ما هي الهديّة، فقد ضاعت بعد سنة". وإذ راحت ترشف من فنجانها وتشير إلي أن أعمل مثلها، قالت بعد لحظة صمت: "هناك كثيرون مرّوا في حياتي، حبّ ومَعْشَقَة، لكن هؤلاء هم أزواجي. بقوا معي يعملون في الفن. لم أتركهم. تخلّى عني أحدهم، لن اقول لك اسمه، لفترة قليلة فصار شبه مجنون في الشوارع. لم يجد لقمة عيش ورجع إليّ". بعد صمت أضافت: "أنت تعرف الرابع وحكايته معي. لا داعي لأقول من هو هاي هتلر، وَلْد تقيّة. أمّا الخامس..." وهنا راحت تقهقه بضحكات صاخبة وهي تحاول أن ترفع يدها لتشير بأصبعها إليّ.

مكتبة الفكر الجديد

طلاق هتلر

يكفي أن أستذكر هتلر وديغول لأبقى أشعر أنَّ الحرب لم تنتهِ: كانا يتقاتلان وجهاً لوجه. كلٌّ منهما يطلق رصاص مسدّسه على صدر الآخر. تتساقط الرصاصات من على بزتيهما العسكريتين وهما واقفان بدون أثر. بقيتُ أنظر إليهما باندهاش وتعجّب. لم أقل شيئاً، لكن أصوات الرصاص كانت تخترق أذنَي، فصرخت. انتبه المقاتلان إلى صوتي. فاستدارا بحركةٍ موحّدة نحوي، ثمّ راحا يصوّبان مسدسيهما إلى رأسي ويطلقان رصاصاتهما عليه في اللحظة التي استيقظت فيها.

في ليلةٍ سابقة استقبلتني شانتال وهي تضمّ بإحدى يديها طفلاً إلى حضنها. كانت واقفةً وهي تمدّ يدها الأخرى لتحتضنني وتقول: انتظرناك كثيراً وها أنت تعود. تعانقنا بشدّة حتى صرخ الطفل باكياً. ثم صرخت أنا أيضاً، إذ بال الطفل فوق بطني وكان بوله حارّاً. شانتال كانت غير مبالية، وكأنّ ما يحدث أمرٌ اعتيادي. اشتدت حرارة البول وصار ملتهباً كالجمر، فصرخت عالياً إلى أن استيقظت.

زيارات، على هذا النحو، إليّ في المنام، كانت دافعاً إلى إثارة الشكوك بأن الحرب لم تنتهِ. مع هذا، لا أدري لماذا فرحت، في هذه

مكتبة الفكر الجديد

الأثناء، بطلاق هاي هتلر من شمعة، بهذه السرعة، مع أنّني أحبّه؛ أحبّه كما أحبّها. لكن، مع هذا الحب، الموزّع عليهما منفردين، شعرتُ أنّه لا يمكنني القول: أحبّهما معاً.

"هتلر ينتحر في برلين بعد طلاقه في عدن"، هكذا نشرت صحيفة **الضاحكون** بعنوان رئيسي، جامعةً بين خبر انتحار هتلر، كما تناقلته الإذاعات العالمية، وخبر طلاق هاي هتلر من شمعة، غير المؤكّد. كانت الأيّام الأخيرة حافلة بالحديث عن استسلام ألمانيا للحلفاء، عن هتلر الذي قال الشيخ عبد الجبار إنّه اختفى ولم ينتحر أو يقتل. فيما ذكرت الصحيفة التي ربطت انتحاره بطلاق هاي هتلر من شمعة أنّ هناك أنباء أخرى تقول إنّ هتلر حلق شاربه المميّز وتاه كالمجنون في الشوارع، ولهذا يقومون بجمع المجانين من شوارع برلين لعلّهم يتعرّفون إلى بقايا شعيرات نصف شارب محلوق. بدا للمعلّم وهو يتحدّث في مقهى زكو أنّ الصحيفة لم تكن موفقةً في ربط هتلر بهاي هتلر: "هناك فرق بين محارب يخلّف الخراب والضحايا ومغنٍّ يبثّ الأنغام والشعر". وقد تندّر ميجي بالقول إنّ هتلر اختفى ولم يجدوا سوى شاربه يبحث عن موس حلاقة في دكاكين برلين. كثيرون تجمعوا ليسمعوا نكات ميجي وشنكر الذي قال إنهم وجدوا يد هتلر، فقط، وهي تلوّح بالتحيّة.

رحتُ إلى ماما وكان قد مضى أكثر من أسبوع على رؤيتي لها آخر مرّة. قرّرت أن أزورها وأزور العارف لأهنئهما بانتهاء الحرب. أحاول بهذه الزيارات ان أؤكّد لنفسي أنّ الحرب انتهت فعلاً.

عاتبتني العائلة على غيابي المتكرّر عنهم. أتيت معي بهدايا

مكتبة الفكر الجديد

أفرحتهم. لكن مقاسَي حلاها وجامع كانا أكبر من المقاسين اللذين تصوّرتهما للبدلتين والحذائين. قلت لهما إنني سأغيّرهما على مقاسيهما وأرسلهما مع ماما. ميجي لم يكن موجوداً فوضعت له الهدية عند الأم حواء التي لا أدري كيف صرت أناديها أمّي. ما إن رأيتها حتى قلت لها: كيف حالك يا أمّي؟

لقد مضت مدّة طويلة لم أنادِ فيها أمّي. لم أقل لها: أمّاه. أو أسأل: اين انتِ؟ ولو بالخيال. هل هي تسأل عني؟ حتى الذكرى صارت شحيحة. كأنّني كنت بلا ام، أو انّ وحشة الحرب لم تتح لي الذكرى. هل يمكن للمرء أن يصير بلا ذكرى؟

شعرت بنشوة وأنا أقلّد ماما بمناداتها السيّدة حواء. في الحقيقة لم اشعر أنّني أقلّد ماما، وإنّما شعرت أنّني أنطق بما في نفسي. ونفسي، هي أيضاً، من أنطقتني لأنادي فارح بابي، وأقول لحلاها وجامع: لقد اشتقت إليكم يا إخوتي.

تناولتُ القهوة معهم، وطلبتُ من ماما أن ترافقني لزيارة العارف. اقترحتْ ان نذهب أولاً إلى شمعة لنهنئها، بما أنّه يوم إجازة وليس لدي عمل عندها.

في الطريق قالت ماما إنّ طلاق هاي هتلر وشمعة "خبر غير مؤكّد".

"زهرة، أخت قبوة، تزوجت من صدّيق، الضابط، الخميس الماضي".

"أعرف أنّها متزوّجة".

"لقد طلّقها زوجها".

مكتبة الفكر الجديد

استقبلتنا شمعة بحميمية كعادتها، في الغرفة العالية. تحدّثت براحة عن هزيمة النازية: "الكابوس هتلر انتهى. باقي استسلام اليابان".

سألتني عن العمل وقالت إنّ لديها لنا مفاجأة "مجموعة أغانٍ بألحان متنوعة سأضمّها في أسطوانة جديدة". "هل ستحوي أغنية البندر. أنتِ لم تغنّيها سوى مرّة واحدة؟" سألتها ماما. فأجابتها بالغناء: "بندر يا البندر... حبيبي في البندر". ولم تفصح عن التفاصيل. "ماما، اذهبي مع ميشيل إلى المحكمة لتستخرجي له حكماً بالتجنيس وبطاقة هويّة. حين يصدر الحُكم تعالي أنتِ وهو لتتغديا معي" قالت شمعة. هززتُ رأسي موافقاً وأنا أنظر إلى ماما. لا أدري كيف عرفت أنّني بلا بطاقة هويّة، وما هدفها من حصولي عليها.

أثناء مغادرتنا همست ماما في الباب: "حذاء الوَلْد" وأشارت إلى حذاء بين أحذية عدّة مركونة في زاوية. لم أعرف إذا كان هاي قد صعد إلى غرفة نومها في الليلة السابقة، في غفلةٍ منّا، أم أنّ حذاءه متروك منذ أن صار مدمناً النوم إلى جوار زملائه الموسيقيين.

حاولت أن أبدو فرحاً وأنا أمشي مع ماما. قلتُ للعارف، حين وصلت معها إلى بيته: "إحساسي يقول إنّ الحرب لم تنتهِ، مع هذا جئنا لنهنئك بنهايتها". "كيف ستشعر أنّ الحرب انتهت وفي جسدك عاهة منها. حين تتخلّص من عرج رجلك ستحس أنّك شفيت من الحرب" ردّ عليّ بطريقة مفاجئة لم أتوقعها منه. "علينا أولاً أن نغسل بقايا الحرب من أجسادنا وأرواحنا لكي نقول إنّها انتهت" أوضح وهو يشير إلى عرجي بوضوح. "لكن، لكنّني..." ولم أستطع أن

مكتبة الفكر الجديد

أكمل. ماذا سأقول له. هل يظن أنّ عرجي مجرّد خدعة للهرب من المشاركة في الحرب؟ لو قالت ماما ما قاله لظننت أنّها رأتني في حلم سليمَ الرّجل وصدّقتْ، كعادتها مع أحلامها. أضاف: "تستطيع أنْ تمشي بدون عرج إذا أردت ذلك. تقدر أن تطير حتى، كقدرتك على أن تعرج". ثم نظر إليّ كأنّه تذكّر شيئاً: "العرج ليس في الجسد فقط" قال، ليضيف بعد أن رفع سبابة يده اليمنى: "هناك عُرج لا نحسّ بعرجهم مع أنّهم يعرجون أثناء مشيهم، بينما آخرون عليهم أن يحاولوا باستمرار التخلّص من عرجهم لكي لا يورّثوه لأحد، لأبنائهم أو حتى للناس الذين يرونهم". بدت ماما مندهشةً لما يقوله، وبقيت تهزّ رأسها منصتةً إليه. "ليس عيباً أن تكون أعرج الرّجل. لكن أن تكون أعرج كلّ الجسد: الدماغ والعقل، القلب، الروح، فإن مشيتك ستبقى عرجاء أينما ذهبت".

لم أستطع يومها تلبية دعوة عاجلة من ماري الصغيرة، لأشاركها الحفل الذي أقامته أمّها احتفاءً بهزيمة هتلر. ما الذي ذكّرها بي؟ هل الفرح يقود إلى تذكّر الآخرين؟

فكّرت أن أغيّر اسمي، اسم ميشيل، وليس التخلّص من عرجي فقط. لقد انتهت الحرب البعيدة وعليّ أن أشعر بذلك، أو أحاول أن أمرّن نفسي على هذا الشعور. لأشيع بين الجميع أنّني صرتُ أُدعى العدني. سأطلب من شمعة أن تناديني بذلك في إحدى حفلاتها لتعمّده. لكن ألا يبدو ذلك وهماً؟ هممت أن أتبع العارف وأتخلّص من عرجي، إلاّ أنّني لم أستطع. حاولتُ أن أخلع الحذاء الخشبي، إلاّ أنّ العرج لم يفارقني وكأنّي معاق حرب. ألستُ معاق حرب فعلاً؟

مكتبة الفكر الجديد

لكن، هل عرجي بالرِّجل فقط، أم في كلّ الجسد، كما قال العارف؟

أوقفت سيّارةً وذهبت إلى التواهي. رحتُ إلى البحر لعلّ هواجسي تقلّل من تشعّبها. ارتبكت وانا أبحث في جيوبي عن أجرة التاكسي. "إذا لم يوجد معك، رُح لك" قال السائق. تفحصّت وجهه ولم أكن قد عرفته من قبل. على الشاطئ رأيتُ رجلاً في الخمسين من عمره يلقّن أكثر من عشرة أطفال اغنيةً، وهم يرددون بعده:

عدن حُلّي السواد والبسي الأخضر
الإنجليزي انتصر، جرمان وطليان تكسّر.

ابتعدت عن الضجيج وجلستُ أفكّر بمصيري في عدن، لا أدري لماذا. هل سيصبح هذا المصير، في تحققه، مهدداً بعد الحرب؟ استعدت قول أنطونيو، العابر الايطالي، عن عدن. لقد رأى أنّ عدن بلدٌ آخر، مختلف، فيها كلّ شيء، أو هي من كلّ شيء. فيما هي، بالنسبة إلي، البديل عن كلّ شيء.

صرت أرى عدن، من خلال السنة التي أمضيتها فيها، مأوى كلّ ما هو آخر. لا أقول إنّ عدن وطن الآخرين، أو وطن الذين لا وطن لهم، بل بدت لي أنّها البديل، حتّى عن الوطن، عن أيّ وطن، بل البديل عن فكرة الوطن، عن الوطن كفكرة.

مكتبة
الفكر
الجديد

النفحة الثانية

دُكّان اليهودي

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

هو الذي ليس هو

لم يلح على نفسه في السؤال: كيف عرفت شمعة أنّه بلا بطاقة هويّة؟ فهو إذ يعرف أنّه يعيش بلا بطاقة هويّة، أو بطاقة تعريف على الأقل، فقد عوّد نفسه على الشعور بأنّه بلا هويّة أصلاً، غير ما هو عليه من هيئة يظهر فيها. ثمّ لماذا لم تخبره عن الهدف من استخراج هذه البطاقة؟ كيف يمكن أن يحصل على هذه البطاقة وهو خالٍ من أي ورقة، أو وثيقة، أو أي دليل على هويّته التي لم يعد هو نفسه يعرفها؟ فعرجه، كما صار يبدو، ليس بالرجل فقط، بل هو، أيضاً، في الذاكرة. ربّما كان قد قصد، حين وصل إلى عدن، التخلّص من الذاكرة التي كان يحملها، أو تحمله، وها هو، بعد أن أمضى السنة الأكثر صخباً وحيويّةً في حياته، يبدو كأنّه لم يعد يذكر، أو يعرف، ما كان قبل أن يبدأ منعطف حياته الأخرى. ساعده شراب الزعفران، كما كان يحسّ مع الكأس الرابعة منه، لا على فقد ذاكرته فقط، بل وعلى تعزيز هذا الفقد والتخلص حتى من الشعور بالفقد نفسه.

ما اسمه، وأين ولد ومتى؟ ستكون أسئلة بلا أجوبة، إذا ما وجّهت إليه من مسؤول سِجل الإدارة المدنية في المحكمة. أليس بهذا الاسم

مكتبة الفكر الجديد

الذي سيقوله يستطيع أن يطلب حق التجنّس، بعد أن تأمر المحكمة بنشر إعلان في الصحف، كتلك الإعلانات التي كان يتابعها باهتمام، يذكر فيه طلبه هذا، ليتمكن من لديه اعتراض إبلاغ المحكمة.

أخذته ماما إلى منزل جراهم، ولم تقل له لماذا. لا يسألها إلى أين، حين تدعوه. يحسّ أنّه يكون حرّاً وخفيفاً عندما يتبع خطوها، مع أنه مكبّل بعرجه وشعوره بأنّه يثقل عليها، كلّما وفّرت احتياجاته بدون أن يطلبها، بما في ذلك شراب الزعفران المداوم عليه، بما يشبه الإدمان.

جاءت ماري الكبيرة لتسلّم عليه حين لمحته قبل أن يقابل جراهم. لم تقل له كيف حالك وراحت مباشرةً تشكو العرب وتعاطفهم مع هتلر. استعاد ما كان يراود ظنونه بأنّ الحرب لم تنتهِ. نادت الأم ابنتها ماري الصغيرة لتسلّم عليه، في مبادرة متسامحة، بدت له غير مسبوقة من قبلها، بعد الذي صار أثناء عمله مدرّساً لديهم. حدّدت الصغيرة له، بصوتٍ هامس، موعداً لتراه في استراحة الساحل قبل سفرها إلى بريطانيا: يوم الأربعاء القادم، الساعة الرابعة عصراً. قالت إنّها قرّرت أن تستقر هناك لإكمال دراستها. لم يستغرب طريقتها في الحديث معه، إذ لم تطلب منه مقابلتها بل قرّرت هي أن يقابلها في المكان والموعد المحدّدين. لقد عرفها من قبل. أليست ابنة ماري الكبيرة؟ ولكن من يكون هو؟ هل صار بلا رأي أيضاً؟ سنرى إذا كان سيذهب لمقابلتها.

تحدّثت ماما مع السيد جراهم على انفراد، لتأخذ منه بعد ذلك ورقةً لا يَعرف ما بها. هو لم يعرف أصلاً لماذا جاء معها إلى منزل هذا الضابط البريطاني إلاّ حين أشارت إلى أن الورقة ستكون معهما

مكتبة الفكر الجديد

غداً، ففهم أنّها تتعلّق بهويته، ببطاقة هويّته المطلوبة.

سيقولون إنّه فقد الذاكرة، ليتمكّن من الحصول على هويّة في ورقة أو بطاقة. سيصبح اسمه ميشيل جراهم؛ جراهم الذي كفله وسيصير أباه في البطاقة، باعتباره من الأقدمين سكناً في عدن التي عُثر فيها على ميشيل، بشهادته، بلا ذاكرة وبلا أي شيء.

لكن لماذا لا تتحقق هويّته العدنية، أو يحصل على هويّة بدل فاقد، إلاّ عبر جراهم؟ لماذا لا يسمّونه ميشيل ماما، وهي التي التقطته ورعته؟ "أنا أيضاً طلبوا مني أخذ موافقة أبي جراهم ليسجّلوا اسمي، لكنّ المسجّل استحى حين عرفني واعتذر لي".

ليس عليه أن يسأل: لماذا ماما نفسها احتاجت إلى جراهم لاستخراج أوراق ثبوتية لهويتها؟ ففي سؤاله هذا يكون قد ظنّ أنّ ماما قد فقدت ذاكرتها، أيضاً، أو أنّ أحداً لم يعترف بها.

لا شيء يشدّه إلى الذاكرة، أو يحفّزه ليتذكّر. وها هو سيصير عدنياً، بأوراق قضائية رسمية تؤكّد أنّه لم يعد ذاك الذي كان هو.

مكتبة الفكر الجديد

هجس الثقل

أخبرتني شمعة، حين رحتُ مع ماما إلى بيتها، أنّها تحدّثت مع إدارة شركة عدن فون للأسطوانات لأعمل فيها. لم تنتظر رأيي وقد عرفتْ أنّني صرت بأوراق هويّة. رأت، ربّما، فرحاً في وجهي. "عليك أن تذهب إليهم غداً، هم في كريتر، أمام عمارة الخان" قالت. بيديها قدّمت لنا الغداء. كان منوّعاً وشهيّاً، لكن شعوري بالبهجة وأنا أتناوله بين ماما وشمعة لم يدعني أهتم بأكل الكثير منه.

لم ألحظ أي أثر لهاي هتلر. لقد طلّقته. فهل نقلي للعمل في مكانٍ آخر بعيدٍ عنها بمثابة طلاقٍ لي أيضاً. "ستبقى متعهّد حفلاتي، يمكنك أن تنجزها وأنت في الشركة" أضافت.

ظل هاي يسكن في غرفة الفنانين المستطيلة متّبعاً تقليد أزواج شمعة السابقين ببقائه في العمل معها والسكن في بيتها، إلاّ أنّ الشائعات اعتبرت ذلك عذراً ليلتقيا سرّاً. صرتُ أعرف إلى أين وصلت علاقتهما، ومع هذا بقيت أسمع ما يقال إنّ الطلاق لم يحصل، وأنّ ما قيل إنّه حصل لم يكن سوى في الظاهر، بسبب ضغوط يهودية.

مكتبة الفكر الجديد

"لم يعد أحد سواك في بالي" تمتمت شمعة بلحنٍ لم أسمعه من قبل، أثار انتباهي وماما، إذ بدت وكأنّها تفكّر بما نفكّر به نحن. كان "حذاء الوَلْد" لا يزال في مكانه. مع هذا صار من المؤكد أنّ شمعة لم تعد تحب أحداً سوى من هو الوحيد في بالها، أو بالأصح خالية من شائعة حبٍّ جديد. كأنّها صارت تستذكر، تحب الجميع، بمن فيهم أنا. ومن هذا الذي لا يحبّها، أو من لا تحبّه شمعة؟

لم أقرأ العقد مع شركة الأسطوانات، حين ذهبت إليها قبيل ظهر اليوم التالي، ووقعته كما قدّم إليّ. لقد كنت بحاجة إلى العمل بأي طريقة بعد أن صارت عوائد تعهدات حفلات شمعة لا تكفيني. ما لمحته، فقط، هو أنّ راتبي الشهري سيكون ستين روبّية.

مقابلتي للسيد هنري مدير الشركة أشعرتني بالارتياح، حيثُ ربط بين إمكانياتي وطبيعة العمل الذي سأقوم به. تذكّرت أنني قابلته في عرس شمعة وهاي وكان مشغولاً بالحديث عن الحرب. عرفتُ منه أنّ الشركة، المنتجة لأسطوانات من النوع الحجري المصنوع من الشمع، متعددة الجنسيات، فأصحابها من عدن والهند وبريطانيا وألمانيا. فيما قالت موظفة أشارت لي بالجلوس على مكتب بجوار مكتبها: "لدينا مكاتب في بيروت والقاهرة لإنتاج الأسطوانات العربية، كما هناك مكتب في مالطا وآخر في لندن".

فكّرت أن أنتقل إلى سكنٍ قريب من العمل الجديد، بعد أن صار عليّ القيام بعملي كمتعهد لحفلات شمعة في الشركة، أيضاً، وليس في منزلها، كما رأيت أنّني سأواجه مشكلةً في المواصلات لبعد منطقة صومالي بورا عن الشركة. ثمّ ألم أكن قد أثقلت على من

مكتبة الفكر الجديد

استضافوني طوال الفترة التي لم أجد فيها من يأويني غيرهم؟ بقيت ظنوني، منذ وقت، تقلقني، وهي تهجس بأنني صرت ثقلاً على ماما، أو بالأصح على عائلتها. "هل استطيع ان احصل على سكن في كريتر؟" سألتُ ماما. "هل ضقت منّا؟" ردّتْ.

التفتُّ إليها. هل هناك من يضيق بماما، أو سيضيق بها ذات يوم؟ قلتُ لها، ولكن بعيوني، لا بلساني.

بدت أنّها تفهّمت مقصدي، وليست بحاجة إلى شروح، إذْ قالت: "ليس هناك غيرها. الغرفة التي غادرها المعلّم، فوق دكّان اليهودي".

مكتبة الفكر الجديد

دكّان الأسرار

وجدتُ الغرفة، وأنا أتفحصها في الصباح، صغيرةً جداً، إلاّ أنّها نظيفة وجيّدة التهوية. كانت في زاوية معزولة من سطح العمارة. بُنيت تحت سقف مستطيل يضم حمّاماً ضيّقاً به فتحة لقضاء الحاجة، وأمام الفتحة تنكان، فوق بعضهما، لخزن الماء. طول التَنَكْ الواحد متر وعرضه نصف متر، كتلك التنك التي كنتُ أراها مربوطةً في طرفي أعواد وهي محمولة فوق أكتاف عابرين يبيعون فيها المياه. بين الغرفة والحمّام مدخل مستطيل، بحجم شخص مستلقٍ، يمتد إلى الباب، حيث يمكن النزول مباشرةً، دون المرور بالسطح، عبر سلّم خشبي إلى الطابق الثاني حيث يسكن عم شمعون وعائلته، وأسفله الطابق الأول المخصص لخزن بضائع الدكان الذي يحتل الطابق الأرضي على الشارع العام ويتصل بباب المنزل بزقاقٍ ضيق.

حين جئت أمس مع ماما إلى عم شمعون قال إنه سيؤجرني إيّاها لأنّه رأى فيّ شخصاً محترماً، يذكّره بالمعلّم الذي غادرها، بعد أن تزوّج ليسكن في غرفة، بناها على سطح منزل أبيه، في حافة حسين. "كيف لا، وقد جئت مع زهرة عدن" أضاف وهو يشير إلى ماما.

مكتبة الفكر الجديد

اتفقت الزهرة، كما وصفها، مع عم شمعون على فَرْش الغرفة، التي تطل على الدكّان، وعلى المبلغ الذي عليّ أن أدفعه شهرياً مقابل الإيجار، بعد أن ظلّت تحاوره كثيراً بشأن ذلك، وتذكّره في كلّ لحظة بأنّني أعمل مع شمعة.

ودّعت عائلة ماما الصغيرة، أو بالأصح عائلتي أنا، التي شعرتُ عندها بالاطمئنان، كما لم أشعر به من قبل. وقد راحت حلاها، أثناء محاولتهم إقناعي بأن أرجع عن قراري، تبكي، وكأنني سأفارقها إلى الأبد. ولم تهدأ إلاّ بعد أن وعدتها ماما بأنني سأكون أزورهم مرّة أو مرّتين في الأسبوع، كما كنت أفعل حين سكنت في بيت شمعة.

لم أنم طوال الليلة الأولى في سكني الجديد. بقيت مشغول البال حتى سمعت عم شمعون يفتح دكّانه باكراً. رحتُ لأسلّم عليه وطلبت معه خبز الخمير وقهوة البن بالحليب من مقهى مجاور فتح في الوقت نفسه.

كانت فرصةً للتعرّف إلى صاحب دكّان اليهودي، أو كما صار يطيب لي، أنا أيضاً، أن أناديه: عم شمعون. قال إنّه تزوّج يهودية من مدينة ذمار اليمنيّة. كانت بنت الذماري، كما أسماها، في طريقها للهجرة إلى أورشليم، عبر عدن. رآها في بيت القدّاس عند ميسا فأعجب بها. "جننتني" أوضح. "كنتُ شاباً وورثت الدكان والبيت من أبي. عملتُ على أن أُعيق رحيلها بطريقة لا يتصورها أحد" قال، ولم يفصح عن هذه الطريقة. اكتفى بابتسامةٍ مراوغة. لديه ولدان "الأوّل بلغ العشرين، يشتغل في كازينو البندر، والثاني في التاسعة، يدرس في مدرسة الملك جورج الخامس اليهودية للبنين"، وابنتان

مكتبة الفكر الجديد

"الكبرى تدرس في مدرسة شُليم اليهودية للبنات، هي في السابعة عشرة، أمّا الثانية فتصغرها بعام ونصف وترفض دخول المدرسة".

بقيتُ أنصت إلى حديث عم شمعون، وفي الوقت نفسه أجيب على أسئلته المباغتة، المتعلّقة بي. حدّثني عن أبيه وامّه، ثم سألني: اين هي أمّك؟ ماذا يعمل أبوك؟ هل أنت متزوّج؟ ما الذي جاء بك إلى عدن؟ ولماذا أنت أعرج؛ هل قاتلت ضد هتلر وأُصبت؟

كان دكّان عم شمعون، الشهير بدكّان اليهودي، يتوسط شارع الزعفران الذي تفصله ساحةٌ عن شارع الطويل. ومن الجهة الشرقية يمتد الزعفران إلى الطريق المؤدية إلى العيدروس، حيث بيت البِس والعارف. في محاذاة الشارع كانت هناك أربعة شوارع أخرى على هيئة مستطيلات تخترقها ممرّات ضيّقة. حين كنت أذهب لتعلّم اللغة عند العارف بقيت أمرّ كلّ يوم من هذه الشوارع عبر الممرّات الموصلة بينها لأتفرّج على بضائع الدكاكين التي تعلوها بنايات سكنية من طابقين أو أكثر. فمن شارع الملك سليمان أمضي إلى شارع حسن علي، ومنه إلى شارع السبيل والمُلاّ وصولاً إلى الزعفران. حملت الشوارع، المعروفة بمجملها بالحيّ اليهودي أو القسم (أ)، أرقاماً رسمية من A١ إلى A٤، وهو المجاور للزعفران، لكن التسميات الشعبية كانت هي المتداولة، حتى إنّ بعض الشوارع كان لها أكثر من اسم. ومع أنّ اسم الحي ارتبط باليهود إلاّ أنّني كنتُ أرى الكثير من بيوت المسلمين والبانيان والزرادشتيين قد جاورت بيوت اليهود في الحي نفسه. كما كنت أرى فيه مسجد العسقلاني بطرازه القديم. أمرّ من أمامه كلّ يوم، حيث يتوسط شارع حسن علي

مكتبة الفكر الجديد

وشارع السبيل. وفي مكان غير بعيد عنه كان يمكنني، ومن الطريق نفسها، رؤية الكنيس اليهودي الأكبر نجمة أفراهام ومعبد البانيان شري تيريشميرجي وكنيسة سانت جوزيف ومدرسة للبُهرة منقوشٌ على بابها: يا حيّ يا قيّوم.

بدا لي الدكّان، وأنا أرى أوائل المبكرين للشراء منه، مشهوراً ببيع البخور العدني والقرنفل والقرفة والهيل والكافور واللبان والصمغ والشمع والزعفران والهُرد والزَبَد، إلى جانب حلوى بقطع صغيرة، مصنوعة في معمل محلّي، ينتجها بأغلفة وأسماء جذّابة، خاصّةً للأطفال. إضافةً إلى زاوية خصّصها لنبيذ الزعفران المعتّق الذي يقلّ الطلب عليه بسبب غلاء سعره.

"المعلّم، الذي سكن قبلك في الغرفة، كان يكتب رسائل النساء الجاهلات إلى أزواجهن وأحبتهن المغتربين أو الهاجرين لهن. يحصل مقابل ذلك على مبالغ جيّدة. ماذا أعمل لهن الآن. لا يوجد أحد يقوم مقامه. هل تعرف أحداً؟" سألني وهو يرى امرأةً شابة في طرف الشارع قادمةً إليه. "ألا يعرفن سكنه الجديد؟".

"قُلن إنّ زوجته لقلاقة، كثيرة الكلام، ستفضح أسرارهن".

"سأجيء إليك حين أعود من العمل. يمكنني مساعدة أي واحدة إذا رأيت ذلك ضرورياً".

وإذ كانت قد وصلت المرأة، رحت أودّعه للذهاب إلى عملي فيما هو يسألني باستغراب عمّن سيجيء معي لكتابة الرسائل، وبقي، كأنّه غير مصدّق، حين قلت له إنني أستطيع الكتابة بالعربية أيضاً، وليس النطق بها فقط، كما يفعل بعض القادمين إلى عدن.

مكتبة الفكر الجديد

عرفتُ، في الشركة، أن مهمّتي هي استقبال الراغبين في تسجيل أسطوانات غنائية، من الفنّانين والفنّانات، وأخذ البيانات المطلوبة منهم، كالاسم واللغة والبلد، والمؤدّين معهم، وطبيعة الألحان ونصوص الأغاني، ثم تحديد مواعيد معهم لمقابلة السيد أدموند مسؤول الإنتاج، ليعرفوا قرار الشركة بشأن التعامل معهم. إلى ذلك، عليّ أن أتابع التسويق الإعلامي للأسطوانات المنتجة، وتقديم مقترحات الترويج، كشكل الغلاف، وفيه اسم الفنّان واللون الغنائي لمحتوياته: صنعاني، لحجي، عدني، حضرمي، يافعي، كويتي، حجازي، نجدي، هندي، مع أسماء الأغاني بالخطوط العربية أو الإنجليزية، على أن أستعين بآخرين بالنسبة للغات الأخرى كالهندية والعبرية والكجراتية. "ولا تنسَ أن تكتب على الغلاف: ممنوع إذاعة هذه الأسطوانة بالراديو" قال السيد هنري مدير الشركة، وهو يرشدني إلى العمل في يومي الأول. "شركتنا تقوم باستيراد أجهزة الفونوغراف، من نوع هيز ماستر فويس وديكا وريكس، ونبيع إبر الفونوغراف وحقائب لحفظ الأسطوانات، لكن هذا ليس من اختصاصك. نقوم بالبيع للموزعين بالجملة" أضاف. كان يذكر شمعة، التي أوصته بي، بتقدير وإعجاب، حتى شعرتُ أنني صرتُ أعمل معه بفضلها.

لم أكن أشعر بالإرهاق من عدم نومي في الليل. فرحي بالعمل، ربّما، تغلّب على أي إحساس بالتعب. إحساسي بأنني قد لا أرى ماما كما كنتُ من قبل هو ما لا أستطيع التغلّب عليه. صحيح أنني كنتُ أبيت، في كثير من الليالي، في منزل شمعة إلاّ أن بيت العائلة

مكتبة الفكر الجديد

في صومالي بورا، حيث تعيش، بقي هو البيت. لم تجئ ماما وتسأل عني في أوّل يوم عمل لي. بقيتُ أتخيّلها، في كلّ لحظة، وهي تدخل باب الشركة، وتندفع للسلام عليّ، قبل أن تلتفت إلى من حولي، بمن فيهم مدير الشركة.

"أنت النصراني اللي ساكن هنا بدل المعلّم" قالت لي المرأة الجالسة أمام باب غرفتي، حين عدت من العمل. ارتبكتُ ولم أعرف ماذا تقصد بالنصراني. لم أتجرّأ على التقدم لفتح الباب إلاّ بعد أن قالت: "اليهودي قال إنّك تستطيع كتابة الرسائل".

كنت قد تناولت الغداء في المطعم الصيني بشارع الطويل، واردتُ أن أصل أوّلاً إلى الغرفة لأستريح قليلاً، قبل أن أمر على عم شمعون لأسمع منه مضمون رسالة المرأة لأكتبها. لكنّها، كما يبدو، لم تستطع الانتظار.

بقيتُ عند عتبة المدخل. تلبس عباءةً سوداء وبرقعاً يتدلى من حجاب رأسها بخيط، ليغطي وجهها الذي لا يُرى منه سوى عينين مكحّلتين، تحاول بين لحظة وأخرى تغطية ما قد يظهر من طرفيهما. لم أطلب منها الدخول. كنتُ قد سمعت أنّ الإسلام يحرّم على المرأة الاختلاء برجل من غير أسرتها.

"اكتب عندك. اسمه حامد" قالت، وناولتني قلماً وورقة "هذي من اليهودي".

"عزيزي السيّد حامد المحترم..." بدأت أكتب بعد أن جلستُ القرفصاء على عتبة باب الغرفة. "لا هو عزيزي ولا محترم. لو هو كما قلت ما تركني هكذا". ارتبكت من قولها.

مكتبة الفكر الجديد

”أو اترك كلماتك. هكذا، كما كتبت...“ تراجعت بعد لحظة. ”طال غيابك، وما لقينا منك جواب. يا عزيز وغالي، هل نسيت وعدك لي. قلت سنة وسترجع. والآن سبع سنوات. ورسالة بعد رسالة وانت بلا جواب. النّاس يخطبونني من أبي، وأبي سيوافق لولا أمّي. وانا ما اقدر أتزوّج أحداً وانت تعرف السبب. الموت أهون إلي من ذلك. حتى إذا تزوجت فساموت وانت تعرف“. صمتت وكأنّها تنتقي كلمات أخرى لتعبّر بها. ”قلت لنفسي أنتحر، لكن رجعت وقلت هذا حرام. أنا في ذمّتك يا حارثة...“. توقفتُ. ”حامد أم حارثة؟“ سألتها. ”هو نفسه، حامد حارثة“ أوضحت، وتأكّدتْ من أن قدميها مغطاتين جيّداً، كما أصابع يديها التي تخرجها، أحياناً بدون قصد، لتعود وتدخلها فوق صدرها تحت العباءة السوداء. ”اكتب: أنا في ذمّتك. أنا صدّقتك. وثقت بك. ماذا سيقول الناس عنّي. الله المستعان. اكتب: أروح للبحر وأتمنى أن أعوم ولا أخرج منه إلاّ في إندونيسيا، تلقاني مثل سمكة عروس البحر وتتزوجني. خيال في خيال. الله يسامحك تركتني أتعذّب. هدّمت شبابي وأنا أعطيتك أغلى ما عندي. والآن يكون جوابك عاجلاً، وقدومك هو المطلوب وبسرعة. حرام عليك والله حرام. ولا بقي معي ما أقوله غير السلام الكثير، والله الله بما قلت لك. وجوابك يكون إلى دكّان اليهودي في عدن. والسلام“.

مكتبة الفكر الجديد

الخطيب الجوّال

كان عليّ أن أنجز مهمتين في وقتٍ واحد. هنري مدير الشركة طلب مني أن أبحث عن مغنين من الأخدام الجوّالين لتسجيل أسطوانة غنائية لهم، وشمعة طلبت أن أذهب إلى عدد من بائعي الأسطوانات لأعرف ردود فعل البائعين والمستمعين على أسطوانتها الأخيرة ولأشتري لها أسطوانات مصريّة جديدة.

في شارع السيلة، قبالة المتجر الفارسي أدلجي كووفرجي بتيل، دخلتُ مكتبة العلوم الحديثة لأشتري لشمعة الأسطوانات. كان مدير المكتبة قد زارنا في الشركة ولم أكن أعرف أنّه هو نفسه وكيل شركة بيضافون. عرّفني إلى شخص كان جالساً، يشرب البيبسي، بجواره "عبده حجازي وكيل شركات الأسطوانات في مكة وجدة والطائف والقطيف والبحرين". بدا فرحاً حين عرف أنّني من شركة عدن فون. ذكّرني بمراسلات تجارية بينه وبين الشركة. "أنا وكيل الشركات العدنية للأسطوانات: بارلوفون وأوديون الألمانيتين وجعفر فون لمستر حمود والتاج العدني، وعدن فون طبعاً" قال. حدّثني كثيراً عن مشاكل توزيع الأسطوانات، قبل أن أتواعد معه لنلتقي في فرصةٍ أخرى.

مكتبة الفكر الجديد

لم أستطع العثور على عازف الطبلة سالم. كنتُ قد تعرّفت إليه في بيت شمعة ورأيته مرّات كثيرة وهو يجول في الحافات والشوارع مع زوجته وابنتيه، يعزفان على الطبلة والمزمار، ويغنيان بمشاركة الصغيرتين ليحصلوا على بعض الدعم المالي من المارين أو أصحاب الدكاكين. "تعرف سالم، يومه عيده" قال عم شمعون، حين سألته إذا كان قد رآه. "ما يحصل عليه من مال يصرفه. عندما يكون معه فلوس لا يدور في الأسواق مع زوجته ليغنّي" أوضح. "أنت عارف، صار الناس مجانين بأفلام السينما. ستجد سالم هناك" أضاف.

كانت ماما قد دعتني لأشاهد معها، في عطلة الأسبوع، فيلم "ذهب مع الريح" في New Cinema بالتواهي، لكنّها تراجعت، بعد يومين، حين زارتني في الشركة. أطلعتني على أخبار منشورة في الصحف عن هجوم متشدّدين على دار السينما التي كانت قد أعلنت عن فتح أبوابها للنساء. "مساء الخميس الماضي، تجمّع هؤلاء أثناء العرض وطالبوا بإخراجهن. قذفوا الدار بالحجارة وكسّروا الأبواب والشبابيك وحطّموا اللمبات الكهربائية. لم يبرحوا المكان إلاّ بعد أن جاء رجال البوليس وأوصلوا النساء إلى بيوتهن في السيارات" قالت.

ذهبت للبحث عن سالم في سينما هريكن. كانت هناك إعلانات في الباب عن قرب إعادة عرض فيلمي "الديكتاتور العظيم" و"الاندفاع نحو الذهب" لشارلي شابلن. دخلت بصعوبة إلى قاعة العرض. كثيرون كانوا يحدّقون في فيلم هندي، يفصل بينهم ومشاهده جوٌّ من دخان السجائر والمَدَاع، النارجيلة، المختلطة روائح تنباكها بعرق مخزّني القات. بعضهم جلس على كراسٍ خشبية، فيما آخرون

مكتبة الفكر الجديد

افترشوا الأرض متكئين على أحجار خشنة مغطاة بكراتين. كانت قرقرة المَدَاع، تسمع أكثر من أصوات أبطال الفيلم المتشنّجة. صار واضحاً أنّ الحوارات، غير المترجمة، لم تُعِقْ عشّاق السينما الهندية عن مواصلة شغفهم بها. كان يكفيهم متابعة المشاهد الصورية وملاحظة حركات الممثلين وسماع نبرات أصواتهم ليتفهموا الخط الدرامي للفيلم. مع هذا، أيضاً، كان سماعهم مفردات هندية شائعة أو مستخدمة بالعربية، مثل بيار كرتيهو، كيا مطلب، زندجي، قسم، سامان، نمستي، بتشاو، شاباش، محفزاً لميلهم نحو هذه الأفلام أكثر من الأفلام العربيّة. رفض سالم، حين وجدته، أن يخرج معي لنتفاهم حول موعد التسجيل. قال إنّه سيبقى في السينما لمشاهدة الفيلم حتى ينتهي. لم أجد وسيلةً لإقناعه. "ستعطيك الشركة عشرين روبية لك وعشرين روبية لزوجتك مقابل التسجيل" قلتُ له. نظر إليّ ولم يجب. بدا أنّه يفكر. "بعد الفيلم سأجيء معك". طلبتُ منه في الأخير أن نلتقي غداً للتسجيل فوافق.

كان سالم، رغم تفضيله الغناء في الشوارع، من أشهر الفنانين المطلوبين للغناء في المخادر أو السرادق، التي تقام فيها الأعراس. شمعة لا تذهب إلى هذه الأماكن إلا ما ندر، إذ تفضّل الغناء في المنازل أو في الكازينوهات. حفلات كثيرة لم أحضرها لشمعة إلاّ أنني بقيت أرتّب مواعيدها.

انشغلتُ كثيراً في عملي مما صرت قريباً من موظفي الشركة بعد أن تعرّفت إليهم بشكل حميم. لكنها علاقة اقتصرت على نطاق العمل ولم تخرج بعيداً عن مبنى الشركة سوى مرّة واحدة مع جوزيف

مكتبة الفكر الجديد

اليوناني الذي تجاوز نمط علاقتنا ودعاني إلى مطعم هندي، ذقت فيه البسباس لأوّل مرّة. عرفت أن ما كنت أعتبره بسباساً لم يكن له اللدغة الحارقة نفسها. البسباس حيث قرن البسباسة الهندية وإلاّ فإنّه ليس كذلك. أدموند الأميركي، مسؤول الإنتاج، علاقتي به كانت رسمية كالمدير هنري. أمّا جوليا الهولندية، المغرمة بالديانة البوذية، فبكل تصرفاتها وكلامها تشعرك أنّها صديقتك.

جاء سالم إليّ في مقهى زكو، بعد أن خرج من السينما، وطلب مني أن أقدّم له مبلغاً من أجر التسجيل. "أريد أن أشرب وأنبسط وأصحو وأنا سعيد". أعطيته ما أراد واعتذرت عن مشاركته الشرب. كنتُ قد اشتقت إلى الشاي العدني وإلى الناس في المقهى فرحت إلى هناك. لم أستطع الاقتراب من الشيخ عبد الجبار للسلام عليه، حين وصلت إلى المقهى. كان يجلس أمام الباب على كرتونة وحوله كثيرون ممّن ينصتون إليه وهو يهاجم وسائل اللهو ومنها دور الخيال كما أسماها، والتي صارت إحداها تحمل اسم سينما هريكن على اسم الطائرة التي شارك في الدعوة لشرائها دفاعاً عن عدن.

الإمام الجوال ظهر وكأنّه مع الهجوم الذي تمّ ضد دار السينما الجديدة في التواهي. قال إنّ السينما حرام لأنّها تعيد تركيب الخلق بصورها، وأنّها بما تعمله "تتحدّى الخالق، أو تدّعي منافسته، أستغفرُ الله" أمّا وقد "صارت وسيلة لاختلاط الرجال والنساء فهي أكبر من محرّمة" أضاف. كنت قبلها أظن أنّ هناك بعض المبالغة في قولهم إنّه حرّم السينما في خطبة له بمسجد الهداية في كريتر، لكنني ما إن صرت أنصت إليه في المقهى حتى شعرتُ أن النقل كان أميناً.

مكتبة الفكر الجديد

فالشيخ إذ قال إنّ انتشار الفساد الأخلاقي بين الناس جاء بسبب سماعهم الأغاني ومشاهدتهم الأفلام، فإنّه قد أعلن بوضوح "أنّ الغناء والسينما محرّمان. كفرٌ في الله الذي سخّر لنا الوقت لعبادته وليس لنلهو فيه". وكعادته في لفت مستمعيه، منذ تكفيره البخور، أطلق مصطلح "سيما فون" على ما قال إنّهما حرام.

"أليس من حقّنا أن نلهو؟" سأل المعلّم. "الشيخ عبد الجبار زعلان لأن البطل مات في نهاية فيلم الأحد الماضي بسينما ريجال" قال ميجي وهو يضحك، لكن أحمد الوهطي علّق على قوله بشكل جاد: "موت البطل رؤية انهزامية تكرّس انسحاق الإنسان".

قال سعيد إنّ ظهور الخطيب الجوّال قد صار متوقعاً في أي مسجد من المساجد التي تتيح له الوعظ فيها بعد صلاة المغرب. "الناس يتلهفون ليعرفوا طرحه الجريء. لكن أئمة المساجد قاموا باحتياطات ضده. بادروا بالقيام بالوعظ، هم أيضاً، تفادياً من أن يقوم الشيخ عبد الجبّار، أو أحد تلامذته المعجبين به، بعد الصلوات ويرتجل خطبةً" قال الوهطي، وأضاف: "بعض القائمين على المساجد حاولوا أن يظهروا مصداقيةً في تصرفاتهم، فأعلنوا في الصحف عن حلقات للذكر ودراسة الحديث النبوي".

مكتبة الفكر الجديد

جوابك والسلام

فوجئت بالفتاة الشابة التي اقتحمت غرفتي ولم تجلس في باب المدخل، كما النسوة الباقيات. طلبت مني أن أكتب رسالةً عاجلة إلى حبيبها الفرنسي.

كنتُ قد اتفقت مع عم شمعون أن أكتب الرسائل مساء كل أحد، فقط، وهو يوم الإجازة، على ألاّ يرسل إلي أي امرأة في الأيام الأُخر. فكيف خالف مع هذه الشابة الاتفاق؟

"قل له إنني أحبّه. أعشق زرقة عينيه. أعشق قامته، شعره الأشقر، لفتته" قالت وهي تحدّق إلى وجهي، قبل أن أمسك الورقة والقلم لأكتب. "كم أتلهف لمعانقته. تقبيله. لو يحس بي". بدت الفتاة التي لا يزيد عمرها على السابعة عشرة وكأنها ترغب برمي جسدها فوقي، تعانقني أو تقبّلني. وقد اكتشفت وهي تحاول أن تزيح البُرقع قليلاً عن وجهها أنها تقصدني في رسالتها. "كيف تعرّفت عليه؟" سألتها. "رأيته بعرس خالتي شمعة وعرس ابن كيكي. كنتُ أريد أطير إلى حضنه". لم تتردد في الإجابة على أسئلتي عن أسرتها ودراستها في مدرسة شُليم، حتى صرتُ شبه متأكّد بأنني أسمع ابنة عم شمعون،

مكتبة الفكر الجديد

الذي لم أتعرف على أسرته في الحفلين، رغم حضورها. وجدتها طيّعة، حين طلبت منها أن نلتقي مرّة أخرى، لأنّ لدي موعداً، وبدت أنّها لم تعد بحاجة لأناولها نص الرسالة التي كتبتها إلى حبيبها.

ما إن عدت امس من مقهى زكّو، حسب موعدي الإسبوعي مع عم شمعون، حتى وجدت امرأةً تنتظرني عند الباب.

قبل أمس لبّيت دعوةً لزيارة جمعية الأمل التي تديرها نهلا وورود، زوجتا القالي والفيلسوف. رأيتهما في ملابس حديثة غير تقليدية واستمعت إلى أحاديثهن عن حرّية المرأة ومشاركتها الاجتماعية. كان عم شمعون قد ألحّ عليّ أن أكتب رسالةً لواحدة من النسوة بصورة استثنائية. "سأعطيك حقّك آخر الشهر. لا تخف" قال. ولم يتراجع عن إلحاحه إلاّ بعد أن أخبرته بموعدي في جمعية الأمل: "ما باليد حيلة. اذهب ويوم غد ستكتب".

أخذتُ ورقةً، من الأوراق التي ناولني إيّاها عم شمعون، وبدأت أكتب. "ما اسمه وما يقرب إليك؟" قلت للمرأة التي كانت تنتظرني. "لا تكتب اسمه. اكتب الرسالة فقط". تذكّرت رسالتي إلى شانتال، ولم أستغرب مما قالته. "أصبحت لا أقدر أعيش بدونك. أنت أملي وحياتي. كلّ حياتي. لا تصدّق أنّ التقاليد تحرّم عليك الزواج مني بسبب إنّك هندي. بعض الهنود مسلمون. أبي يعرف وامّي تعرف إنّك بانيان. حتى لو قلت لهم إنّك مسلم لن يقبلوا. يريدون أن يزوجوني لابن عمّي الأهبل. وأنا رافضة. أنتَ أو الموت". لم تتوقف وهي تملي عليّ الكلمات. كانت، كما يبدو، قد استعدت

مكتبة الفكر الجديد

وحفظتها. "جوّب على رسالتي إلى عند دكّان اليهودي. ولا تقل لأحد من عيال الحافة. هم أنذال. رأوني أكلّمك في عرس ابن خالتي، لمّا انتظرتك بالباب. والآن يغنون عليّ، ويقولون إنني أواعدك إلى البحر. صدّقت مرّة ما يقولونه ومشيت وحدي إلى البحر. رأيت العشاق جالسين وتمنيتني جالسة مثلهم، أنا وأنت. يوم الأحد لن أدرس. سأجلس في البحر، أنتظرك أمام بائع الليمون. وجوابك يكون إلى دكّان اليهودي. والسلام".

الثانية التي جاءت بعدها كانت مرتبة هي الأخرى. "يا فارع، يا ابن النّاس. رجّع ذهبي اللي أخذته إذا كنت قد استغنيت عني. كنت أراك الدنيا كلّها والآن تعمل بي هكذا، ولا حِس ولا خبر. إذا ما رجّعت الذهب يوم الخميس إلى دكّان اليهودي، بسكتة واوص، سأكلّم زوجي وأقول له إنّك اقتحمت البيت وسرقته. هذا آخر ثقتي بك، تهرب وأنا التي تعلّقت بك، وأعطيتك أغلى ما عندي. وجوابك يكون إلى دكّان اليهودي. والسلام". كتبت ما قالته بالعربي، ولم أعرف معنى أوص. واظن أنّها تعني: وبلا كلام.

ما إن أكمل رسالة، وتنزل صاحبتها من عندي، حتى أسمع باب شقّة عم شمعون يفتح، لتصعد أخرى من اللواتي ينتظرن هناك. جميعهن كنّا لابسات الشيذر والبرقع المغطي وجوههن. لا تتجاوز أكبرهن سناً الخامسة والعشرين، وهي الثالثة التي بدت مرحة: "قَد أنت كفاية. كيف نطلب الحبيب البعيد وأمامنا كل هذه الوسامة؟" قالت وهي تحدّق في وجهي. "ما شاء الله عليك. البنات ما با يفرقنّك". أضافت ورفعت برقعها. كان بياض وجهها، وجماله، أكثر مما توقعت.

مكتبة الفكر الجديد

"أنا فدا العولقي اليماني" قالت وبدا لي أنّه شعر. "اكتب هذا في البداية" أوضحت. "يا حبيب الروح ردّ علي ولا تخف. أنا نذرت نفسي لك. ما معي غيرك. لو عملوا ما عملوا لن أفرقك. أبي رفض أن يزوّجني بك. قال إنّك لست من السادة الأشراف. لن أستسلم. أنت عندي سيّد السّادة كلّهم وأشرف الأشراف. آخر كلام هو لا تخف. العوالق شجعان، تعال وخذني معك إلى ما ترغب. اخطفني، انهب روحي، انهب جواهر جسدي، فجّرني، اعمل بي ما ترغب. نهرب إلى البحر أو إلى الصحراء، أو نمشي الجبل. وجوابك يكون إلى دكّان اليهودي. والسلام".

مكتبة الفكر الجديد

ذكرى الأب

يوم زيارة الولي الشبزي بدأ ملفتاً. فمنذ الفجر وصل يهود كُثر بملابس بيضاء من عدد من الحافات والمناطق البعيدة. ليتبعهم عدد من أصدقاء عم شمعون من أتباع الديانات الأخرى، أو ممن ليس له دين.

كان عم شمعون قد دهن بيته وجدار دكانه بالأبيض واستيقظ مبكراً ليستقبل القادمين من خارج عدن أمام منزله، حيث تنطلق المسيرة في اتجاه مقبرة اليهود، التي اكتشفت أنّها لا تضم ضريح الولي المزار. "نقوم بزيارة رمزية لنتذكّره فقط. ضريح الشبزي في تعز، مثل ضريح ابن علوان في يفرس. يزور المسلمون سنوياً مسجد ابن علوان هنا في الشارع ونحن نزور مجَنّة اليهود وبعدها نروح للصلاة في نجمة أفراهام" قال عم شمعون.

بدا للعارف أن تجمّع اليهود على هذا النحو في ذكرى وليّهم تزامن مع المواجهات بين العرب واليهود. "كأنّه جمع تضامن" قال.

مضى الموكب بالجموع تتقدمهم البيارق المرفوعة براياتها البيضاء. كان هناك أطفال ينظمهم موشيه ابن عم شمعون ليردّدوا

مكتبة الفكر الجديد

تهاليل مصحوبة بتمايل أجسادهم:

أبا شمعون كُن بعوني
لأَدَعيْتكْ عينني
لأَدَعيّتك نُصْ بالليل
جِيْبَني بالباكري

أبا شمعون كُن بعوني
لأَدعيْتَك في زماني

أبا شمعون لأَدَعَيْتكْ بسوادِ الليليلة
اسألك بالله جبني
جود لي بالعافية

أبا شمعون كُن بعوني
لأَدعيْتَك في زماني

لأَدَعيْتْ بالليل الأسود
انتْ أبي وانا الولَدْ

أبا شمعون كُن بعوني
لأَدعيْتَك في زماني.

مكتبة
الفكر
الجديد

قال العارف إنّ هذه الأشعار من كتاب الديوان تتوجّه بدعائها إلى الولي الشبزي، أبي شمعون.

"كيف هي الغرفة والرسائل؟" قال المعلّم، بعد أن صافحته مع العارف وماما ووليم وفرانسيسكو. "إذن أنت هو المعلّم الذي حدّثوني عنه. ظننته معلّماً آخر. لم أتوقّع أنّ تكون أنت".

"ولمَ لم تتوقع؟".

"لم اتصوّر أنّك، وأنت الشاعر والكاتب المعروف، يمكن أن تسكن غرفةً متواضعة مثلها".

"ما المشكلة؟ هذا هو أنا. لا تنس أنّك لم ترني حتى اليوم إلاّ في الأماكن الشعبيّة" قال، وأضاف: "على فكرة، فيلسوف عدن يدعوك للعشاء عنده. سأحدّد الموعد وأخبرك".

استعاد المعلّم بعض طرائف حدثت له وهو يكتب رسائل للنسوة الباحثات عن أحبتهن. ما قاله إنّ واحدة قطعت وريدها، وطلبت منه أن يكتب رسالة بدمّها إلى حبيبها، أخافني. لكنني سرعان ما ضحكت حين أضاف أنّه اقترح عليها، بدلاً من الكتابة بالدم، صبغ شفتيها بالحامورة ثم طبعهما على ورقة الرسالة على شكل قبلة. "أعجبت باقتراحي، لكنّها صبغت بالحامورة عضواً آخر من جسدها، رأت أنّه أكثر تأثيراً لدى حبيبها، وطبعته على ورق الرسالة".

كانت إيقاعات التهاليل متناغمة ورقيقة:

رَمَاني عيطموس من فَوق وَكْره
سبى عقْلي وأسْهَرني المنامِ.

مكتبة الفكر الجديد

"مَن عيطموس؟" سألتُ. "هو المسيح المخلّص" قال العارف.
كلّ الكلمات التي يقولونها بدت مدهشة وهي تُرتَّل. لهذا وجدتني أردّد معهم، كما يردّد الجميع، بأنغام محلّقة: "أبدأ بتوحيد... أبدأ بتوحيد... أبدأ بتوحيد ربّي".

مكتبة
الفكر
الجديد

عائلتي

لم أصدّق أنَّ الذي أراه هو فارح. كان حرّ الظهيرة في أوجه. خرجت من الغرفة كعادتي في يوم الإجازة لأتغدى في مطعم إحسان. كان فارح يمشي مع جماعة تحمل عصِيًّا من الباكورات، وتردد عبارات لا أفهمها. جميعهم كانوا من الصوماليين. حاولتُ أن ألوّح بيدي لفارح، لكنّه لم يلتفت إليّ. ربّما لم يرني. بدا الجميع وكأنّهم متجهون صوب هدف لم يعد يرون، أي أحد في طريقهم، سواه.

اصطفّ الناس على جانبي الطريق لمشاهدة المارين الغاضبين. "أوْ أوْ آوْ. إش دا، إش دا. ما لهم الوَرْيَة اليوم؟" قالت امرأة مغطاة بالشيْذَر. "قالوا إنَّ ثلاثة من اليهود ضربوا صومالياً في الميناء. رفض أن يشاركوه حمل البضائع التي كان ينزلها من السفينة مع صوماليين" أجاب عليها أحدهم. "هرب اليهود قبل أن يفتك بهم الحمّالون الصوماليون" أضاف. "عرفوا أنهم يعيشون في حافة اليهود، وراحوا ينتقمون" قال شخص ثانٍ كان إلى جواره. "آو... كذا" قالت المرأة. "أكيد هم من يهود اليمن. فقراء جاؤوا يبحثون عن عمل ولقمة عيش" أضافت.

مكتبة الفكر الجديد

اهتممتُ كثيراً بالصراع بين الصوماليين واليهود. أليسوا جميعهم أهلي؟ أليست ماما والعائلة الصومالية، هم عائلتي، وكذلك شمعة.

رحتُ في المساء لأطمئن على فارح فلم أجده. "لا تقلق. المُضَارَبة عادة دائمة عنده". لم أفهم ما قالته حواء. "إذا لم يجد أحد يتضارب معه يجيء عندي يصايحني" أضافت. "لكنّه مشغول في العمل" قلتُ. "هو يُضَارب يوم إجازته فقط" قالت.

بقيتُ إلى أن جاء مع جامع. كان فارح مربوط الرأس، وعلى قميصه وأطراف شعر رأسه بقع دم كثيرة. أردتُ أن أطمئن عليه وأعرف ما الذي أصيب به، إلاّ أنّه راح مباشرةً يتباهى بكيفية إلحاقهم الهزيمة باليهود، وصار من غير الممكن، مع حديثه البطولي، السؤال عن جراحه. مع هذا لم يستطع أن يخفي آلامه من حركات وجهه، فكلّما باغتته يتقلّص أنفه وعيناه وحاجباه، وفي الأخير وجد نفسه في حال إعياءٍ شديد، ولم يعد لديه، مع مجيء ماما، أي قدرة على الاحتمال سوى قول: آح.

كنتُ قد بدأت أحاول أن أشعر أنَّ الحرب انتهت، لكن الصراعات التي تنشب بين وقت وآخر في عدن لا تترك لهذا الشعور أن يتواصل.

صوت الخطيب الجوّال كان مسموعاً وهو يجلس في زاويته المعتادة بمقهى زكو: "هتلر لم يمت. لم يمت الحاج محمد هتلر، كلّنا هتلر".

"من انتم يا حاج هتلر؟" سأله المعلّم بصوت مرتفع، على غير عادته.

مكتبة الفكر الجديد

بنت الذماري

إِيمْنِيْن آلو
دَالتي ناديبيم
دَالتي مارو
بلولين آلو
الحيْماري مام
الكاروبيم
هوومبارو هويالو.

إنه صوت شمعة، يصل إليّ من الطابق الذي تحتي. لا يبدو في أسطوانة وإنما خارج عنها. أتذكّر أنّ شمعة قالت لي إنّ زوجة عم شمعون أختها، فهل جاءت لزيارتها؟

لم تزدد تساؤلاتي، فسرعان ما نادتني بنت شمعون الصغرى التي لا تدرس لأجيب أباها، لكنّها لم تتح فرصة لأغيّر ملابسي وأنزل سريعاً، إذ جلست وقالت: "أنا عَفُّورَة، أدلّع نفسي هكذا. لا تنادِني: عفراء". ثم راحت تسألني عن أشياء كثيرة: كيف حالك؟ هل تجيد

مكتبة الفكر الجديد

الرقص وتغني؟ هل يعجبك التَنْبل؟ والقَات؟ والسيجارة؟ والخمر؟ لم أجبها لأنَّ لدي، أيضاً، سؤالي: لماذا لا تدرسين؟

"ولماذا أدرس؟".

"من أجل أسئلة. قد تحتاجين للإجابة عنها".

"مثل ماذا؟ ليست لدي أسئلة".

"مثل: ما الله؟ ما الوطن؟ لماذا نعيش؟ لماذا نكره ونحب؟".

"ليست لي علاقة بهذه الأشياء. لماذا أدوّخ رأسي. احب واكره وآكل كما أنا. لا أريد أن اعرف اي شيء".

سعدتُ كثيراً برؤية شمعة. حضورها كان مناسبةً للتعرّف أكثر إلى زوجة عم شمعون التي بدت في الأربعين. لم تتردّد بنت الذماري في الحديث عن عائلتها: "أنا لست ذمارية، لكن شمعون يدعوني هكذا حين عرف أنني جئت من ذمار. اسمي لوزة. الذمارية هي شمعة" قالت والتفتت إلى عم شمعون وكأنّها تبوح بسر. "انتقلت أمّي من صَخْيَان إلى ذَمَار بعد أن جنّ زوجها، الذي هو أبي، ومات. راحت لتتزوّج من أبي شمعة الذي صار، هو أيضاً، نصف مجنون بعد زواجه منها" ضحكت. "رحمة الله عليها. بعد فترة انصاع أبو شمعة لطلب أمّي واتّبع نصائح الناس لإنقاذ اليتامى، أنا وأخي حاييم، لمّا قيل عن وجود جمعية يهودية تهتم باليتامى وتساعد اليهود على الرحيل إلى أورشليم". شفطت قصبة المداعة ونفثت الدخان، وبعد صمت أضافت: "مشينا ثلاثة عشر يوماً إلى عدن. بعضهم مشى عشرين يوماً". "حكاية طويلة" قاطعتها ليّة، ابنتها الكبيرة التي تعرّفت إلى اسمها بعد أن كنت قد عرفتها بصفتها عاشقة للفرنسي

مكتبة الفكر الجديد

ذي العيون الزرقاء. لم ترح نظراتها عنّي وكأنّها تريد أن تقول لي إنّها هي التي جاءت إليّ ذلك المساء وإنّني أنا هو الذي كتبتُ إليه الرسالة منها. لم تأبه بنت الذماري بمقاطعتها وواصلت: "لم يقبلوا في مكتب الهجرة سوى أخي حاييم وكان عمره خمسة عشر سنة. أمّا أنا فبقيت هنا مع شمعة وأبيها، الذي لا يعمل، وأمّي التي لم يسمحوا لها بالرحيل بسبب عمرها. كانت في الخامسة والأربعين". بقيتُ منصتاً إلى حديثها الذي لم تقطعه سوى قرقرة المداعة المنتصبة أمامها وملاحظات ابنتيها. أضافت: "كان وضعنا تعِساً. بقينا سنوات لا نعرف أين ذهب حاييم، وكنت أكبره بسنتين. انتحر الأب بعد سنة، وماتت الأم بعد ثلاث سنوات عملتْ خلالها مُخيِّطة كوافي. تركت لي شمعة وعمرها ثماني سنوات لأربيها في هذا البيت".

قاطعها هذه المرّة عم شمعون: "لم تخرج شمعة من عندنا إلاّ وهي مغنّية مشهورة، أمّا حاييم فعرفنا قبل خمس سنوات فقط أنّه يسكن في موشاف طِيرَت شالوم. قيل إنّ عائلة روسية تبنّته ورعته لكنّه هرب منها في الأخير ليعيش مع سكان جاؤوا إلى تلك البلدة من اليمن".

"حدّثونا عن حبّكم، عشقكم، بدلاً من الأحزان" قالت شمعة. ضحكت البنتان، فيما الأم ظلّت تقرقر بالمداعة وكأنّها لم تسمع. عم شمعون واصل حديثه بالقول إنّ كثيرين ازدحموا للهجرة: "يهود اليمن كانوا فقراء وعراة، لا يجدون أي مأوى في عدن، مع أنّ الأغنياء منهم كانوا يتبرّعون في اليمن للمساعدة على الهجرة، ويحصلون على مساعدات وغيرها". "ما غيرها؟" سألت عَفّورة.

مكتبة الفكر الجديد

لم تجد ليّة طريقة للهروب من هذه الذكريات إلاّ أن تغني:

"ليتك تجيء تسمر وتِدِّي القات

ونطفئ النوّار والترنكاس".

صارت الجلسة مبهجة مع مشاركة شمعة الغناء. ولم يقطع صوتهما سوى موشيه، الابن الصغير، حين جاء من الشارع حيث كان يلعب وشكا زميله ابن شالوم الذي قال إنّه تحالف مع ابن جارهم الحاج أحمد ضده.

مكتبة
الفكر
الجديد

فحم الحُب

اردت أن احصل على عذر لمقابلة ليّة فخضعت لإلحاح عم شمعون وعدت لكتابة الرسائل من النسوة العاشقات إلى أحبتهن. كانت قد مرّت عدّة أسابيع لم أكتب فيها أيّ رسالة. شعرتُ بالملل ممّا اكتبه. فهؤلاء لا يتعبن ممّا يقلنه كل أسبوع لأدوّنه في الرسائل. عشق وهجران وألم ورجاء وتوسّل ودعوة للمغامرة، وفي نادر الأحيان تهديد بالانتحار أو بالفضيحة والانتقام، كحال عاشقة حامد حارثة المهاجر إلى إندونيسيا. جاءتني آخر مرّة وهي مليئة بالانفعال والضجر: "اكتب آخر رسالة. قل له إذا لم يجئ حالاً ساعمل له ورقة عند الساحر، يسلّط عليه الجن ليمسخوه كالمجنون. وإلاّ أنا نفسي ساروح إلى عنده. سأتصوّر له مثل الجنّية. سامسكه واذبحه بسكين كالدجاجة. اكتب. إذا لم يجئ بسرعة ساصل إلى عنده من اي طريق. ساروح واذبحه. ساذبحه مثلما هو حطّم حياتي. خدعني واخذ اغلى ما املكه. والله والله لأذبحه. اكتب".

أمس جاءني شاب وطلب بوضوح أن أكتب له رسالة إلى ليّة وأن اوصلها إليها أيضاً. قلت له إنّ لية تجيد الكتابة والقراءة بالإنجليزية

مكتبة
الفكر
الجديد

والعبرية فأجابني أنّه لا يجيد هاتين اللغتين. لم أستطع ان أردّه فهو لا يستطيع أن يذهب إلى عم شمعون، ليأتي إليّ عبره من أجل ان اكتب رسالة لابنته.

"لا تكتبه، هي ستعرفه" قال لي حين سألته عن اسمه. بقي في كلّ كلماته يمتدح صوتها. "هل أنت مغنٍّ؟" قلتُ له. "لا، ولكنّي لو لم أسمع الغناء أشعر بالضيق، بالهموم الكثيرة، أحس انني ساموت" أجاب. "هل لها حفلات؟" سألته. "سمعت ليّة في جلسة عائلية ببيتنا. منذ ذلك اليوم وأنا مجنون بصوتها. أريد ان أتزوجها" قال. طلب منها في الرسالة أن يقابلها على الشاطئ، وأن تردّ عليه بتحديد اليوم والوقت.

لم يكن هناك أي جديد في الرسائل التي كتبتها بعد أن استجبت للعم شمعون. اختلاف، فقط، في بعض عبارات الاشتياق واللوعة، وأحياناً اللاجدوى. شابّة أريترية طلبت من حبيبها الغائب نسيانها تماماً. قالت: "اكتب إليه أنّ حبّنا انتهى، صار كالفحم". طلبتْ من واحدة تحب ابن شي، صاحب المطعم الصيني، أن تنادي ليّة وتخبرها سرّاً أنني اريد أن أكلّمها دون أن يشعر بذلك أحد. "لو عرف عم شمعون فلن أكتب لك رسالة بعد ذلك" قلتُ لها محذراً، مع أنّني متأكد أنّها لن تخبره، فمن قالت إنّ اسمها جان هوا وطلبت مني أن أكتب رسالة بالإنجليزية التي لا يقرأ حبيبها الصيني سوى بها وبالصينية، نبهتني أن لا أخبر أحداً عن رسالتها بمن فيهم عم شمعون الذي جاءت في غفلة منه. كانت خائفة من أن يعرف أبوها المسلم المتزوج من أمها الكورية بحبها. "أبي مسلم وأمي بوذية. لا دخل

مكتبة الفكر الجديد

لي. يهمني حبيبي الكنفشيوسي، فقط" قالت.

كان من النادر أن أكتب رسائل من رجال إلى نساء. أمّا أن أوصلها فهذا لم يحدث من قبل. انتظرتُ ليّة كثيراً. "هذا مجنون. ماذا أعمل له. قل له. اكتب أي شيء له. لا أقدر أقابله" قالت حين جاءت وقرأتُ لها الرسالة. أضافت: "مستحيل أن أتزوّجه. هو من البُهرة وأنا يهودية. عاد لو قال حُب ومعشاقة. لكن زواج؟".

مكتبة
الفكر
الجديد

نداء عَيْطَمُوس

"أخيراً لبّى اليهود نداء عيطموس" قلتُ لشمعة ليلتها ونحن نحاول أن نجد أحد مديري معسكر حاشد لنعرف طريقنا وسط اكتظاظ بشري. كنتُ قد اتفقت معها على ترتيب حفلة مجّانية لها إكراماً لكلٍّ اليهود الذين جاؤوا من قرى ومدن اليمن والمشيخات والسلطنات العربية الجنوبية إلى هذا المعسكر استعداداً للرحيل إلى أورشليم، الوجهة التي رُسمت لهم كقدر لا فكاك منه.

"رَمَاني عيطموس من فَوق وَكْرة
سَبى عقْلي وأسْهَرني المنامِ".

ردّت عليّ شمعة بالشعر وهي تبدو مندهشةً من معرفتي باسم عيطموس، المسيح المخلّص.

كانت الغربان تحلّق في القرب منّا وهي تنعق، تتبع سرباً يطير في الجهة الشمالية.

لم ينتبه أحد من الجالسين على جانبي الطريق المؤدي للمعسكر لعبورنا. رأيت امرأة بمصرّ ملون يغطّي شعر رأسها، وبثوب أسود يكسو بقيّة جسمها، الذي يبدو في الخمسين. كانت في حال بكاء صامت،

مكتبة الفكر الجديد

تمسح عينيها بسبابتي يديها المعطوفتين ولا تنظر إلى أيّ أحد. كحال المرأة الأخرى المقاربة لها بالعمر، والجالسة على بعد خطوتين منها، تمشّط شعرها بتأنٍّ وبطء، وعيناها سارحتان بعيداً عمّن حولها. مقابلها رجلان عجوزان، أحدهما يلبس مئزراً للحقو وصدره عار، يتحاوران بغضب. فيما رجل عجوز آخر كان مستلقياً على جنبه وعيناه تحدّقان إلى وجه امرأة بيضاء، أقل منه عمراً، تلبس قميصاً وتنورة إلى منتصف ساقيها وتجلس قبالته وهي منكّسة الرأس. بالقرب منها امرأة أخرى، لا يزيد عمرها عن الثلاثين، كانت تخطّ على الأرض المتربة بسبّابة يدها اليسرى، فيما راحة يدها اليمنى تتبع الخطوط وتمسحها. وبدت على مسافة منها امرأة شابة تجلس فوق حجرٍ صغير، وهي تمشّط بانفعال شعر رأس أخرى تتململ بين رجليها. يرقبهما طفل، في الرابعة أو الخامسة من عمره، يتكئ على جذع امرأة متكوّمة على جنبها، تبدو نائمةً والحذاء في قدميها. الأطفال الآخرون، الذين هم في عمره أو يكبرونه، كانوا يقومون بحركات مرحة. يركضون حفاة، بدون توقف. لم أكن قد رأيت مثل هذه الأنواع من الملابس التي يرتدونها مع الكوفيات الملونة، أو مثل قرقوش الفتيات وفساتينهن البنّية والسوداء، المزيّنة بخطوط بنفسجية وقرمزية وخضراء وذهبية. وبدت الزنانير المتدليّة على خدود الأولاد ملفتةً في أناقتها أكثر مما هي عند الكبار.

رأيتُ رجلاً يمرّ من أمامنا، تميّز بقامته الطويلة وبشعر ذقنه الأبيض، وأكثر من ذلك بملابسه، إذ بدا لابساً ثلاث قِطَع، ثوباً ويَلَقْ ومعطفاً طويلاً، وعلى رأسه كوفية، بالرغم من شدّة الحرّ. "هذا الحاخام" قالت شمعة.

مكتبة الفكر الجديد

هناك من مرّ من أمامنا وبجوارنا، بل وخلفنا أيضاً. بعضهم كانوا يقومون بحركات منفعلة ولاإرادية، كحال الشاب الذي لحق بشمعة واحتضنها من الخلف فجأةً.

"بعد العشاء سنبدأ الحفلة" قال أحد المشرفين على المعسكر، واعتذر عن عدم الترتيب لأنه لم يبلَّغ بها. الشخص الذي اتفقت معه اعتذر هو الآخر لأنّه نسي ما اتفقنا عليه. "لم أعد أعرف راسي من رِجْلي" قال، وأضاف: "كما ترى، كل شيء غير مرتّب، مرضى، جوعى، وفوضى. نخاف من تفشي المرض. لم تصل سوى مساعدات قليلة".

اختارت شمعة أن يكون إلى جوارها هاي هتلر وليّة، ليعزفا ويغنيا معها. جلسنا أمام إحدى الخيم ننظر إلى أجواء الزحام والحركة حولنا. أحدهم انتبه إلى وجود آلتي العود والطبلة معنا. جاء وقال إنّه مغنٍّ واسمه سليمان. رحّبت به شمعة بشكل حميم وتمنّت أن تبدأ الحفلة بأغنيةٍ منه. "زوجتي نعمة، مغنّية وتعزف معي" قال، وأشار إلى امرأة أقبلت لتسلّم علينا. أثار زيّها، المطرّز بألوان وأشكال مختلفة، اهتمام شمعة، فحصلت على وعد من قبل امرأة أخرى في المخيم بخياطة واحد لها مثله، مقابل مبلغ من المال.

احتشد كثيرون أمام ثلاثةٍ من القدور الكبيرة التي جاء بها ستة أشخاص، مع اثنين آخرين يتقدمونهم وبيديهما مغارف وصحون وكاسات صغيرة، فيما اثنان آخران يتبعونهما بأكياس بدت مليئة بالخبز. وقتٌ طويل مرّ، والقادمون يحاولون تنظيم المتحلّقين لينالوا نصيبهم من الأكل، وفي الأخير بدا لهم، ربّما، أنّ الجوع لم يعد

مكتبة الفكر الجديد

يسمح بتفهّم أي تنظيم، إذ قاموا فجأةً بتوزيع الكاسات والصحون الصغيرة، وفيها المقرّر من مسحوق الخضروات الغذائي، مع رُوْتِي واحد طويل. بعضهم ظلوا جالسين ولم يشاركوا في الازدحام على الطعام. "بقّوا للمرضى والعجَزة" أحد موزعي الطعام ظلّ يصيح بين لحظة وأخرى. سليمان جلس يأكل هو وزوجته بعد أن حصل على نصيب أحدهما فقط، ولم يستطع العودة للزحام. طلب منّا أن نأكل معهما. شمعة وحدها تناولت لقمة. "عيش وملح" قالت، وهي تداعب طرف مصرّ رأس نعمة الملون.

"ندفع قراطيس والمساء طماطيس" هكذا غنّى سليمان الذي بدا مشهوراً. تجمّع لسماعه كثيرون وهم يضحكون من كلماته التي لم أفهم معظم لهجتها وبدت، مع إيقاع التنك المحمول بيده والدف الذي تعزفه رفيقته في الحياة والفن، معبّرةً، بسخرية وألم، عن حالهم في المعسكر، فهم يدفعون قراطيس المال، أو يتلقّونه مساعدات، لكنّهم لا يأكلون سوى مسحوق الطماطم والبسباس. وإذ طلبت منه شمعة أن يستمر، غنّى:

بانين يقول: جَماعةْ، باقي معي خزنة
يا ليت حاشد قريب شندق بنفسي المَجنّة

سالم إبراهيم يقول غبني على مالي
يا ليت حاشد قريب با طَلّعِهْ بالجواري

مكتبة الفكر الجديد

شمّيت عَرف الند والفُل والكاذي
با سَامرِكْ يا هَلِيْ لمّا ينادي المنادي

أنتِ الهنا والمُنى والدين والدنيا
وصِدقْ ما هو رِيا أنتِ القمَرْ والثرّيا.

مع كل مقطع كانت نعمة تزغرد، أو تردّد: يا بُويْ.

وبدا أن سليمان قد خفّف، بكلمات الحب الأخيرة في الأغنية، ما بثّه من سخرية حال، أو غبن على أموال تركها الراحلون في مناطقهم، ومنها حاشد في شمال اليمن، التي أثار المعسكر، بحمله اسمها، ذكرياتهم فيها، فتمنوا أن يعودوا إليها، ولو إلى المقبرة.

غنّت شمعة، بعد أن قدّمت هاي وليّة، مجموعة من أغانيها الشهيرة. بقي الكثيرون يصغون إلى ما يسمعونه من أغانٍ منعشة عن الحب والحياة، إلاّ أنّ هناك متململين لم تكن لديهم القدرة على البقاء حتى النهاية، لهذا كانوا يروحون ويرجعون، في حال قلق لم تستطع الأغاني تهدئته.

مكتبة الفكر الجديد

معركة القوارير

حين استيقظتُ على قرع طبول مفزعة، في الساعة السادسة إلاّ أربع دقائق، من صباح ذلك اليوم الخريفي، شعرتُ أنّ حدثاً ما، غير عادي، قد حدث في عدن أدّى إلى تأجيج المدينة البركانية الحارة في غير فصلها الصيفي. تبدو، في العادة، أجواء الخريف هادئة، بالرغم من تقلّب الطقس. فيما الربيع والصيف يؤججان شحنات الحياة والغضب، في الوقت نفسه، فيصبح من الصعب أن يتفق اثنان، إلاّ إذا كان ذلك من أجل إيجاد وسيلة مؤقتة لإخماد اللهيب الحار، أو ممارسة فعل يقلّل من وطأة الحرّ وصخب المعاش، كما كان يفعل فارح وحوّاء: يستلقيان بعيداً عنّا على سطح المنزل، ويغطّيان جسديهما بملاءة خفيفة تخفي حركاتهما، كما يخفي الراديو أصوات تلوّعهما، إذ يفتحانه على موجة مشوشة نظل نسمعها بآذاننا، دون انتباه؛ ففارح صار يدرك أنّ عيوننا تلتفت عادةً إلى الراديو، حيث يضعه إلى جوار رأسه قبل النوم، إذا كان إرساله واضحاً ويبث أخباراً جديدة عن الحرب. كما صرنا ندرك أنّ حواء تكون وقتها بعيدة عن فراش فارح، فهي إذ تهنأ بنومٍ عميق إثر سماعها موجة مشوشة فإنّها

مكتبة الفكر الجديد

تُفزع ويذهب نومها إذا ما كان خيار زوجها هو الاستماع إلى أخبار الحرب من موجة واضحة.

يمكن القول، أيضاً، إنَّ شمعة والعارف والمعلِّم وشمعون ولوزة وأبو الفضل وفرانسيسكو وسالم وعبدي والمرأة الصامتة يقومون، في هذه الأجواء الحارة، بالانزواء وحيدين، حين يدركون أنه صار من الصعب أن يتفق الشخص ونفسه. يتناولون القات على سطوح المنازل ليحدّثوا أنفسهم بصمت أو بصوت هامس، أو يذهبون إلى بار ليشربوا أو ليصمتوا وسط الضجيج، ليغنوا أو يرقصوا. البعض يذهب إلى الساحل ليبوحُوا بما في دواخلهم للبحر. مع هذا، هناك، كما يبدو، من لا ينزوي أو يصمت، ويخرج إلى الشارع ليعلن حربه ضد أي أحد، ضد الجميع أو ضد نفسه. عفورة لا تعمل هذا ولا ذاك. صار هذا من المؤكد. فهي لا تفكّر أو تهتم بشيء، كما تقول. هل هي كذلك، كما تقول؟

أمرني مرافقو قارعي الطبول، حين مررت بجوارهم في طرف الميدان، أن أعود من حيث جئت. "ارجع. إضراب، إضراب. لا عمل اليوم ولا بُكرَة. هيّا ارجع. ارجع" قال لي اثنان بصوتين متداخلين. حاولتُ أن أستفسر منهما، أن أسأل: لماذا؟ لكنّهما، مع آخرين، أشارا إليّ بغضب أن أسرع بالرجوع. في الجهة الثانية من ميدان كريتر لمحت سعيد يخطب في عددٍ كبير من الناس، كانوا يتحلّقون حوله بأزيائهم الشعبية المحلّية، بما فيهم أربعة بملابس هندية. وإذْ سحبت رجلَي لأرجع إلى غرفتي، اشتدّت ضربات الطبول مجدّداً، وصرتُ أسمع عدداً من المرافقين لهم يردّدون بوضوح: "لا

مكتبة الفكر الجديد

شُغل ولا مَشْغَلة وفلسطين مقسّمة. فلسطين عربيّة وستبقى عربيّة. يا يهود يا يهود جيش محمّد سوف يعود. الله حيّ الله حيّ الحاج محمد هتلر جَيْ".

ثلاثة شبان يلبسون فُوَطاً خضراء وقمصان بيضاء ومشدّات حمراء، رأيتهم يقبلون راكضين من شارع الزعفران، وهم يهتفون "فلسطين عربيّة". كانوا يرمون بمنشورات كثيرة تتطاير في الهواء. التقطت واحداً منها، حين مرّوا من أمامي في صف واحد باتجاه المتظاهرين في الميدان. واصلت طريق الرجوع وأنا اقرأ: "بيان لكلّ أبناء عدن". عرفتُ من البيان أنّ الإضراب ينفّذ بناءً على اجتماع عُقد أمس وحضره الكثير من الأعيان والشيوخ والشباب العرب والمسلمين "تنديداً واحتجاجاً ورفضاً لقرار الأمم المتحدة الجائر بإقامة دولة يهودية في بلد عربي مقدّس". وأكّد البيان على استمرار الإضراب في سائر مناطق مستعمرة عدن لمدّة ثلاثة أيام ابتداءً من اليوم.

وجدت عم شمعون جالساً على عتبة دكّانه وهو يصلح هندام موشيه، الحامل حقيبة المدرسة، ويسرّح شعره بمشطٍ خشبي. أخبرته بما رأيته. "أعرف. ماذا سيعملون؟ مجرّد صياح: فلسطين عربية، فلسطين عربيّة. والناس غير العرب، واليهود هناك، يروحون أين؟". كرّرت له تشديد المتظاهرين على فرض الإضراب، دون أن أدعوه بشكل واضح إلى الاحتراز من أي ردود فعل على فتح دكّانه. "ما نعمل لهم؟ هذي عدن مُش فلسطين. ليتركونا وحالنا، نطلب الله على بطوننا وبطون عيالنا" قال.

مكتبة الفكر الجديد

فتحت ليّة باب شقّتهم وبيدها حقيبة المدرسة فيما كنت أصعد الدَرَج. "صباح... صباح..." قالت بصوت خفيض ولم تكمل جملتها. بدت مرهقةً وكئيبة وشعرها غير مُسرّح جيّداً. التفتُّ إليها وابتسمت كردّ لتحيتها. ضمّت سبّابة وإبهام يدها اليمنى معاً ووضعتهما بحركة خطّية على راحة يدها اليسرى. فهمتُ أنّها تريدني أن أكتب لها رسالة إلى حبيبها أو أن أقرأ لها رسالة منه. ربّما هو نفسه الذي لا يجيد العبرية والإنجليزية اللتين تجيدهما لية. ربّما تطلب مني أن أكتب رسالة منها إليّ، كما فعلت حين جاءتني أوّل مرّة. أشرت بيدي إلى أن ذلك سيكون في ما بعد، أو في المساء.

لم أستطع البقاء في الغرفة، وبقيت، خلال ساعات الصباح والظهر، أستمع إلى أصوات صخب في شوارع مجاورة، وهتافات من أناس عابرين.

قرّرت أن أذهب إلى ماما، وفي الطريق تراجعت. رأيتُ أنّ الطريق صعبٌ إليها، مع الانتشار الواسع للمتظاهرين في الشوارع، وتوقيف بعضهم إياي ليسألوني: إلى اين ومن أين ولماذا وماذا تعمل؟

منزل العارف هو الأقرب وعليّ أن أذهب إلى هناك. على الأقل لأطمئن عليه، بعد فترة لم أره فيها.

بدا لي أنّ ما يحدث أكثر من إضراب احتجاجي، فكلّ الإضرابات السابقة لم تُعلن بقرع الطبول. وقفت أرى مجموعةً من المتظاهرين يتزاحمون على دخول محل الجواهر الصافية، المعروف بجودة صاحبه هارون في صياغة الذهب والفضّة. ولم يلتفت إليّ أحد هذه المرّة. كانوا منشغلين بأخذ نصيبهم من المحل، ولاحظتُ الكثيرين

مكتبة الفكر الجديد

منهم يخرجون وبأيديهم مجوهرات دون أن يهربوا أو يبدو عليهم أنهم مارسوا سرقةً أو جُرماً. وفي الأخير قام اللاحقون بهم، وقد رأوا أنّ من سبقوهم لم يتركوا لهم شيئاً، بتكسير ما تبقى من باب المحل ومستلزماته الداخلية.

"ألا تزال تعرج؟" سألني العارف وهو يستقبلني بابتسامة مازحة. لم أجب واكتفيت بابتسامة مصطنعة. أربكني سؤاله مجدّداً ولم اشأ أن أبيّن له ذلك. حاولتُ أن أتهرّب من موضوع العرج. قلت له: "الإضراب اليوم في كلّ مكان. رأيتهم ينهبون ويخربّون محل الجواهر الصافية". التفت إلي وبقي صامتاً للحظات، ظننت بعدها أنّني لن أسمع منه رأياً. حاولتُ أن أغيّر موضوع الحديث وأسأله عن كتابه التجلّي الذي هاجمه الخطيب الجوّال في إحدى خطبه. لم يجبني أيضاً، كأنّه يسمع مني رأياً أو حديثاً، ليس معنيّاً بالرد عليه. كنتُ قد عرفت من المعلّم أنّ الكتاب، الذي لم ينشر بعد، قد هُوجم وكُفّر، لمجرّد السماع عنه. قال إنّ المطابع امتنعت عن نشره. ولم يوافق الوهطي في قوله إنّ العارف هو نفسه من خاف فلم يقدّم كتابه للنشر. وبدا لي أنّ هناك ما يخيف بشأن الكتاب. ربّما كانت الفتنة. سألته: هل تخشى الفتنة؟

"الفتنة مرضاته" أجاب.

"مرضات من؟".

"إذا كانت هناك من فتنة بسبب جدال حول الله، فهو الافتتان به، درجة أعلى لتجلّي الفتنة منه وفيه وبه".

"لكن في الجدال، دائماً هناك طرف يدّعي أنّه الحق".

مكتبة الفكر الجديد

"نعم، جميعهم على حق".

"على هذا، نهب وتخريب محل الجواهر الصافية فتنة".

"هذا فحم العلاقة. فحم العلاقة، موتها".

اكتفيت بالصمت، وقد تذكّرت تلك الشابة التي طلبت مني أن أكتب رسالة إلى حبيبها الغائب، أبلغه فيها أنّ حبّهما انتهى وصار كالفحم.

أصرّ العارف أن أبقى أنتظر حتى أتناول العشاء معه، ليأخذني بعدها إلى شوارع عدن لمعرفة ما جرى.

نقلتْ قبوة، حين جاءت، إليه أخباراً عن حرائق وقتلى ونهب ودماء مسالة في الكثير من الشوارع، بما فيها الزعفران، الذي فيه دكان اليهودي وغرفتي.

"أين الكاذي يا قبوة؟" سألها.

ضحكتْ بطريقة غنجة. "ما تركوا لي حالي لأفكّر بالكاذي. الدنيا حرب ودم من صباح الصُبح" قالت.

قلقتُ على عم شمعون. رجوت العارف أن نذهب أولاً إليه. كانت هناك تجمعات صاخبة لأناس كثر في الشوارع التي عبرناها، وأصوات بكاء وصراخ تخرج من منازل، بعضها كان دخان الحريق ما يزال يخرج منها. رأينا أكثر من ثلاثين دكاناً مخرّباً، أمام معظمها كراتين فارغة وبقايا مياه مسالة، وجّهت كما يبدو لإخماد الحرائق البادية آثارها في أجواء الأمكنة، والأشياء والمعدّات، بما في ذلك سيّارات عديدة، أُحرقت تماماً.

أسرعت إلى دكّان اليهودي، ولم أعد أحسّ بمرافقة العارف

مكتبة الفكر الجديد

لخطواتي. ربّما كنتُ قد حققت ما أراده مني بالتخلي عن العرج. لا أعرف كيف اجتزتُ المسافة. شعرتُ أنّني لم أتخلَّ عن العرج، فقط، بل تخلّيت، أيضاً، عن المشي. كأنّني طرت إلى أمام الدكّان. لكن ما رأيته حين وصلت سرعان ما أوقف طيراني، سواء كان في الواقع أو في الشعور. لقد ذهلتُ لما رأيت، واحسستُ بأنّني صرت مشلول الجسد كلّه، لا أعرج الرجل فقط. بقيتُ أحاول أن أخترق جمع المتحلّقين أمام الدكان، من رجال ونساء وشباب وأطفال، لأسأل عن مصير عم شمعون وعائلته. لكنني إذ رأيت الدكان وقد تحول إلى فحمة، شعرتُ أنني فقدت الحيلة ولم يعد بإمكاني سوى البقاء وسط الصخب مشلولاً أرقبُ ما تبقى من دخان في أجواء الدكّان والعمارة وحولهما؛ أنصتُ إلى ما يقولونه عن حريق أذهب ما تبقّى من الدكان، بعد أن نهبوا محتوياته ومحتويات منزل صاحبه، وغرفة المستأجر على سطح العمارة، الذي هو أنا.

من الأحاديث المتبادلة سمعتُ، أيضاً، أنّ عم شمعون غير موجود. لقد حُرق وجُرح وأخذوه مع عائلته، ولا يعرف أحد أين هم. لم انشغل كثيراً في التفكير بأشيائي المنهوبة من الغرفة، وكلّ ما كنت أهجس به هو مصير عم شمعون وعائلته، ومصير أصدقائي الآخرين من اليهود والعرب، وأولهم شمعة والمعلّم وسعيد. "من هذا الشارع، قُتل سبعة يهود واثنان عرب، وواحد مجهول الهويّة" قال شنكر وقد بدا صوته لأوّل مرة خالياً من نبراته الضاحكة، مع هذا عرفت الصوت حين سمعته وانتبهت إلى وقوف صاحبه بجواري. فيما أخبره آخر بجواره أنّ أحد اليهود رمى من شرفة منزله قوارير،

مكتبة الفكر الجديد

فيها تراب، على رؤوس متظاهرين عرب عبروا شارع السبيلانيد، فقتل أحدهم. "رجع المتظاهرون إليه فقتلوه، هو وثلاثة من أبنائه وزوجته، بالفؤوس والعصي، ثم أحرقوا منزله ودكّانه وسيّارته" أوضح.

رأيتُ ماما وقد وصلت مفزوعة. كان معها ميجي. أقبلت نحوي ووضعت يدها على كتفي ولم تقل شيئاً. اقترب منها خسرو والمعلّم والعَلَقة ولم أكن، لذهولي، قد رأيتهم بين الحاضرين، بمن فيهم العارف الذي كان يقف بالقرب مني.

مع تزايد الصخب بدأتْ ما يشبه المظاهرة، بتحريض من المعلّم. تقدّموا في كتلة واحدة وتبعتهم ماما، فيما بقيتُ إلى جوار العارف أتابع ما سيحدث. رفع المعلّم صوته بعد أن مشوا صامتين مسافةً قصيرة، كأنّه يرتّب عبارات التنديد لما حدث: لا وألف لا... لكنّه لم يكمل شعاره، فسرعان ما قطع عليهم الطريق عددٌ من المعترضين.

لم يستطيعوا أن يتصدّوا للهراوات والحجارة وهي تنهال عليهم، فتفرّقوا وعادوا إلى أمام دكّان اليهودي.

بقيت متسمّراً في مكاني ولم أقبل دعوة ماما أو العارف أو المعلّم للذهاب معهم. لم أستطع الكلام، أو التعليق على ما رأيته. فقط سألت عن شمعة. طمأنني كثيرون عنها. رأوها تذهب إلى مكان آمن، ولم يقولوا أين هو.

ماذا سيكون حال ليّة وحبيبها الذي وعدتها بكتابة رسالة إليه؟ عفّورة لم تدرس التربية الوطنية كما درستُ، ولم تسمع من أبيها، ربّما، ما سمعته أنا عن الوطنية والدفاع عن الوطن أمام الأعداء.

مكتبة الفكر الجديد

حتى وإن حدّثها فلن تنصت إليه. أليست العداوة تُعلّم وتُدرّس، كما الوطن؟ ماذا ستقول وهي تشاهد ما جرى في عدن؟ هل يمكن أن تُربّى عدن لتصبح وطناً، أم ستبقى كما ظننتها يوماً البديل عن الوطن والتربية معاً، البديل عن كل شيء؟

ظل كثيرون يتوافدون إلى أمام الدكّان، بعضهم يتحدّث بغضب عن ما حدث. "عم شمعون تاجر عدني، ولد ونشأ في عدن، مُشْ هو اللي أعطى الحق بدولة لليهود في فلسطين" قال أحدهم. "شمعون يهودي وكلّ اليهود يحلمون بالقدس، يقولون إنّها وطنهم" ردّ عليه واحد يقف بجواره.

"وما دخلنا نحن بأحلامه، هل نحاسب الناس لأنّهم يحلمون؟".

"يا ليت على الحلم بس، هم يدفعون تبرّعات لإقامة دولة إسرائيل ولتهجير اليهود إليها".

"والعرب يتبرّعون للفلسطينيين، وكان الهنود يتبرعون لغاندي".

"اسكت، لا تبرّر لليهود، وإلاّ أنت معهم؟".

"ليس لك علاقة بي. لا تتدخل. أكون مع من أكون".

"ليس لي علاقة. ها. إذن أنت... يا ابن الـ...".

واشتبك الاثنان في عراك بالأيدي، لم ينهه القريبون منهما إلا بعد أن اشتدّ عنفه.

بعد ساعة، أو أكثر، عاد المعلّم وبيده قارورة ماء لأشرب. أخذ بيدي وأجلسني إلى جواره فوق كراتين، رتّبها في ركن مقابل للدكان ومنزل عم شمعون. أخرج ورقةً من جيبه وبدأ يكتب. لم يقل شيئاً وظل صامتاً لحظات طويلة. كان ينقّل نظراته بين الدكان والمنزل

مكتبة الفكر الجديد

المحروق والمتجمعين ويكتب. ظننته يكتب قصيدة رثاء. ربّما يرثي ذكرياته مع النساء ورسائلهن في الغرفة، أو أشياء حميمية خاصة لا أحد يعرفها.

شابّان، بزيين مختلفين، حاولا، بدون مقدّمات، التهجّم عليّ. "أنت يهودي ما تعمل هنا؟" سأل أحدهم بغضب. فيما قال الثاني: "هذا نصراني. صاحب شمعون". ولولا تدخل المعلّم وإبعاده أيديهم عنّي، لكنت لحقت بعم شمعون. انزعج المعلّم من سلوكهم نحوي. "هذا غريب عن عدن" قال، ولم يكمل ما كان يكتبه.

أخذني إلى زاوية أخرى، لكنّنا ما كدنا نجلس حتى رأينا ماما مقبلةً إلينا مع حلاها. "داوود، ابن أبي شمعون، قُتل وهو يحاول منعهم من نهب وحرق كازينو البندر. موشيه أُسعف إلى المستشفى. أحرقوا مدرسته فاختنق بالدخان". أفزعني ما قالته وبقيتُ في حيرة. تذكّرت داوود وتفنّنه في تقديم شراب الزعفران. كان كثير الصمت ولم أكن أتحدث معه إلاّ لطلب الشراب فقط.

"ما كدنا نفرح باستكمال بناء كنيسة ومدرسة القديس يوسف الكاثوليكية حتى أحرقوا مدرسة الملك جورج" قال المعلّم.

بقي مصير عم شمعون وعائلته يقلقني كثيراً. "أرجوك اسألي عنهم" قلت لماما. كان هناك كثيرون ما زالوا يأتون ليروا آثار الخراب في الدكّان. حين أخبرنا أحد القادمين أنّهم أخذوا عم شمعون وعائلته، مع اليهود المتضرّرين، إلى معسكر خاص لرعايتهم، رأيتُ أنّه لم يعد أمامي سوى الموافقة على إلحاح حلاها بالذهاب إلى من أعتبرها عائلتي. "سآتي من أجل خاطر حلاها" قلتُ، وكأنني لم أدرك أنّني

مكتبة الفكر الجديد

صرتُ بلا مأوى. لن يقبلوا، كما بدا لي من سلوك الشابين، حتى أن أمكث، كحال المتشرّدين الذين كنتُ أراهم، في كل ليلة، يفترشون الكراتين وينامون أمام الدكان.

ما رأيته من آثار تخريب في الطريق كان أكثر مما رأيته من قبل. رأينا رجال الشرطة، ومعهم قوّات من الجيش وفرق للإطفاء، لكنّهم، كما يدو، لم يستطيعوا التفريق بين المتواجهين، ومنع النهب والحرق. "صارت عدن خارج السيطرة" قال المعلّم قبل أن يودّعنا.

كثيرون كانوا يرقبونني وأنا أمشي بجوار ماما وحلاها، لكن أحداً لم يعترض طريقنا. هناك من تحدث إلينا في الطريق عن عشرات القتلى والجرحى من اليهود والعرب، وأنَّ المعركة مازالت قائمة، رغم الإعلان عن تعليق الإضراب في هذا الوقت الذي يقترب من منتصف الليل. لم نكن بحاجة إلى تأكيد لكلامه، فعلى مقربةٍ منّا كانت النيران تشتعل في عدد من المنازل والدكاكين، وهناكَ من يقوم بحرق سيّارات واقفة أمامها، فيما آخرون يركضون وبأيديهم هراوات وفؤوس وقوارير. أربعة من الضباط كانوا يمسكون بشابين عربيين، ويجرجرونهما بعنف. انتبهت إلى أنّ أحد الضبّاط سبق أن رأيته من قبل، ولم تخنّي الذاكرة، إذ سرعان ما أرجعتني إلى حفلة وداع جراهم، حيث تعرّفت إلى روبرت تلك الليلة، وارتسمت صورته في بالي وهو يصف عدن بالجحيم.

"أنتم أخوة... أنتم أخوة" بقيت ماما تقول لكل من تقابلهم، لكن لا أحد يبدو أنّه يسمعها.

مكتبة الفكر الجديد

تلطيف القسوة

بدا عم شمعون حين عاد من معسكر حاشد ورمّم، على عجل، منزله ودكّانه وكازينو البندر، الذي لم أكن أعرف أنه ملكٌ له، كأنّه تعافى من صدمة فقده لابنه وللكثير من ممتلكاته. رفض أي مساعدة مالية سواء مني أو من ماما أو العارف. ابنتاه وزوجته قبلن مني المأكولات والفواكه التي جلبتها إلى منزلهم حين وصلن إليه، بعد ترميم جزئي له. أردتُ أن أعطيهن بعض المال، خفيةً عن عم شمعون، كي يشترين ملابس بدلاً من تلك التي أُحرقت ونُهبت، مع أشياءهن الأخرى. شكرنني ولم يقبلن. "أحتاج إليكَ في خدمة أخرى" قالت ليّة، فالتفتت أمّها وأختها إليها. "أريدك أن تذكرنا حين نسافر إلى إسرائيل، وترسل إلينا أسطوانات الأغاني الجديدة" قالت مبتسمةً وكأنّها نجت من شكوك أحيطت بها.

"هل سترحلون إلى إسرائيل؟".

"ليس لنا من حل سوى ذلك" قالت الأم.

"أنا سأبقى هنا" قالت عفورة.

"اسكتي أنتِ..." نهرتها أمّها وطلبت منها أن تخرج لتسأل عن

مكتبة الفكر الجديد

موشيه الذي راح فور وصوله إلى الحارة ليلعب مع زملائه.

أخفى عني عم شمعون رغبته في الهجرة. ما كنتُ أظنّ أنّه دليل عافيته، صرتُ أراه، بعد حديث عائلته، طريقة أخيرة يقوم من خلالها بإثبات حقّه في ممتلكاته ليرجع بعد أن يبيعها، أو يتصرّف فيها، إلى المعسكر استعداداً للرحيل.

لم تعد غرفتي فوق دكّان اليهودي كما كانت، وإن بدت أكثر نظافةً وسطوعاً بالطلاء الأبيض الجديد الذي غطّى آثار ما حدث، لكنّه أيضاً غطّى الكثير من ذكرياتي وذكريات المعلّم مع صاحبات الرسائل الملوّعة. ليّة لم تتح لي السرحان أكثر في ما حدث، إذ سرعان ما لحقتني إلى الغرفة، وناولتني رسالتين بالعربية لأقرأهما لها. مجيئها على هذا النحو أكّد لي أنّ أمها وأختها تعرفان مراسلاتها واستعانتها بي.

الرسالة الأولى لم تعد واضحة. آثار عرق صدر ليّة، حيث اخفتها، وبقيت معها لشهور طويلة، كانت أكثر وضوحاً من حروفها المطموسة. ألحّت عليّ أن أجتهد لأكتشف بعض كلماتها. "لو خيّروني بي... وبين... لاخترت الموت" قرأت لها. "يقصد لو خُيّر بين فراقك أو الموت لاختار الموت". ابتسمت. "أحبّكِ ومجنون بصوتكِ وهو يغنّي" اضفتُ ما حاولت ان افهمه.

الرسالة الثانية ليس فيها أي طمس: "يا أحلى من خلق الله في الوجود. يا ست الحسن والصبايا، يا مليكتي وقلبي وروحي وعقلي". "يا آه. لحظة. اتركني قليلاً أتخيّل كلماته. أحسّ بها، أتذوّقها. أطعمها..." قالت مقاطعةً قراءتي. "لقد جنّ جنوني حين سمعتُ أنّهم أحرقوا منزلكم. أنا مجنون بالأصل بك وزاد الحريق جنّن بي. أحرقوا قلبي

مكتبة الفكر الجديد

أحرقهم الله. وما رجع إلي عقلي إلاّ بعد ما علمت أنّك بخير. تخيّلتُ أنّهم لو يحرقون الدنيا كلّها فلن أزعل، لكنهم إذا مسّوا بنيرانهم طرف ثوبك فسأحرق العالم فداءً لك". "الله الله على كلام هذا الولد، قد هو مجنون وسيجنّن بي معه" قالت. "أرسل هذه الرسالة مع صديق بريطاني أخذتُ منه وعداً بتوصيلها إليكِ في معسكر حاشد وأن يطمئنني عليك. فارجوك أرجوك الجواب السريع. سأجلس أنتظر جوابك على الشاطئ عصر كلّ يوم. وانتبهي يخدعونك لتسافري إلى إسرائيل. ما في أحلى من عدن في الدنيا كلّها وسأعطيك كلّ ما تطلبيه لتصبحي زوجتي وشريكتي في الحياة. والسلام ختام".

ولحبيبها، المجنون بها، كتبت ردّها. بعد السلام والتحيّات والقول إنّها بخير، طلبت أن أكتب: "لا تجنّني بكلمات الحب، وأنت تعرف أنّ الزواج قسمة ونصيب وما أراده الله لنا سنلقاه. ولا تزعل مني فالأمر بيد أبي ولا اعرف هل سنسافر أم سنبقى في عدن". عزّته بكلمات كثيرة بدت أنّها نفسها غير مقتنعة بها. قالت إنّ أختها عفورة ستقابله، حسب الموعد المحدّد منه، على الشاطئ، لتسلّم له الرسالة، أمّا هي فلن تستطيع.

خفتُ أن يعرف عم شمعون بمجيئها فيزعل. لم يعد مشغولاً بالدكان كما كان. "مشغول مع كيكي. هو سيشتري ممتلكات أبي" قالت ولم تبتسم كعادتها قبل أن تهبط الدَرَج.

وصلتْ ماما، مع عم شمعون، واطمأنتْ إلى توفير احتياجات الغرفة من فرش وماء. ظننتُ أنّهما قد يكونان شاهدا ليّة وهي تنزل من عندي، فارتبكتُ وأنا أستقبلهما.

مكتبة الفكر الجديد

"أنت وماما ستساعدانني في الحفاظ على ما تبقّى من أملاكي. سأدع لكما كازينو البندر" قال عم شمعون.

"كيكي مروانجي اشترى مني الدكّان والبيت". انتبهتُ. "اشترطتُ عليه أن تظل في الغرفة ولا يخرجك منها" أضاف.

كان منزعجاً وهو يتحدث عن المبلغ الهزيل الذي عُرض عليه كثمن للكازينو. "لن أبيعه. سأتركه بأيدي أمينة. عندكما".

"اطمئن، نحن أهل" قالت ماما. لكنّه لم يهدأ. بدا قلقاً وغير مطمئن، إذ أعاد ما قاله أكثر من مرّة، وإن بعبارات مختلفة.

أصرّ أن أنزل مع ماما إلى شقّته ونسهر معه إلى أن يغادر في الصباح. لم يكن هناك مجال لنعتذر. "شمعة ستجيء بعد قليل مع ولْد تَقِيّة" قال ليغرينا أكثر بالموافقة على البقاء معه.

لم تغب شمعة عن منزلها سوى ثلاثة أيام، قُطعت فيها الطرق إليه من كلّ الجهات. قيل إنّ أسرة مسلمة رأت سيّارتها تحترق أمام منزلها، أثناء المعارك، فجاءت وأخذتها لتسكن عندها. بقيتُ قلقاً عليها طوال تلك الأيام، مع أنني كلّما سألتُ عنها ماما قالت: "اطمئن، هي في مكان آمن".

جاءت شمعة ومعها سبع رُبط قات، توزّعت بينها وهاي وعم شمعون وزوجته وعفورة وليّة. أصرّوا على أن نشاركهم، أنا وماما، تخزين القات لكنّنا لم نقبل. كانت الجلسة كأنّها حفلة وداع، من قبل أسرة عم شمعون، لكلّ شيء، بما في ذلك القات.

"وأنتِ هل ستتركيننا في يوم ما؟" سألتُ شمعة. التفتت إلى وجهي وابتسمت. عرفت من عينيها أنّها تقول: مستحيل أفارقكم، أفارق عدن، أفارقك. هل أرادت أن تقول: مستحيل أفارقك؟ بدأت

مكتبة الفكر الجديد

تغنّي فابهجت أوّل ليلنا بصوتها، ومرحها النادر. ربّما ارادت أن تبعدنا، جميعنا، عن ما عانيناه من سطوة الأحداث وهولها. لكن عم شمعون بدا صعب الانقياد إلى فسحة تنسيه ألم فقده لأملاكه أو تبعده عن هواجس الرحيل وما بعده. لم يستطع أن يبقى معنا، وهو الذي أصرّ على ان نسهر معه. أخذ ربطة القات التي كانت أمامه ونزل دون كلام. "راح يجلس وحده، متكئاً على حجر، أمام الدكّان" قال هاي بعد أن تبعه وحاول إعادته.

ما حصل لعم شمعون ليس من السهل تجاوزه. لم يخسر ابنه ومدخراته وأملاكه، بما فيها تلك التي باعها بثمن بخس وحسب، وإنّما، أيضاً، خسر اطمئنانه بالعيش، بعد عمرٍ ظنّ أنّه كدّ خلاله بما فيه الكفاية لينتظر اللحظة التي يبدأ منها راحته، في ما تبقى من عمره. من حقّه أن يجلس وحيداً، مع هواجسه. كيف له أن يرتاح وقد يئس من الحصول على التعويضات التي وعدوه بها منذ اندلاع الأحداث، قبل ما يقرب من سنة. تناقلت الصحف أنّ طلبات التعويض، وجميعها من اليهود، بلغت أكثر من ميزانية عدن، لكن ماما قالت: "هناك أشياء لا تعوّض".

"هل يمكن أن تعوّض الذكريات؟" سألتُ. "الوطن عبارة عن ذكريات" قال هاي. "أحياناً تكون الذكريات مؤلمة" قلتُ. "مهما تكن الذكريات، المهم أن لا تنزع منك وتصبح خالياً منها بين يوم وليلة" قالت شمعة.

"انتزعوا ذكرياتنا يا أختي" قالت بنت الذماري. لتضيف: "أقرباؤنا، من عائلة بن يحيى جاؤوا من ذمار إلى معسكر حاشد ليسافروا إلى إسرائيل. رغبوا أن يزوروا أبي وأمي في مقبرة اليهود.

مكتبة الفكر الجديد

شمعون وجدها فرصةً ليزور قبر ابننا داوود معهم. لكنّهم خوفوهم من قيامهم بذلك. لم تعد لنا ذكريات".

"خرّبوا مبنى مدرسة ابننا موشيه، بعد خمسة أشهر من إحراقه" أضافت. هزّت ماما رأسها منتبهةً لما تقوله بنت الذماري.

بقي موشيه ينصت متغلّباً على النوم، إلى أن استمع مرّةً أخرى إلى غناء هاي وليّة، فحينها لم يعد باستطاعته مقاومة النعاس وهو يتداخل مع الأنغام. وكانت بنت الذماري قد كشفت هذه المرّة عن صوتها وغنّت. "عرفتُ من أين جاء صوت ليّة الجميل. خالتها شمعة وأمّها الذمارية؟" قلتُ.

قبيل الصبح بدأوا يعدّون أمتعتهم التي جلبوها معهم من المعسكر، أو التي اشتروها أخيراً من عدن.

ذهبتُ مع هاي لنرى عم شمعون. وجدناه ضامّاً رجليه وهو نائم على جنبه فوق كرتون أمام الدكان. كان يتوسّد جزءاً من مشدّة يربط بها رأسه عادةً، فيما أبقى الجزء الآخر ليغطّي وجهه.

كتب عم شمعون الوكالة باسمي واسم ماما لنتصرّف بالكازينو بيعاً أو تأجيراً أو تشغيلاً. "لو تعيد فتحه وتشغّله مع ماما، هو مربح" قال. ولم تكن لدي أي فكرة عن إمكانية ذلك لأبدي رأيي.

"لا تنسَ أغاني عدن. ابقَ أرسل لنا بها" قالت ليّة بابتسامة. "ولا تنسَ..." قالت عفورة بدورها ضاحكةً وتوقفت قبل أن تكمل جملتها: "... نفسك".

هل كنّا نحاول تلطيف قسوة لحظة الفراق؟ قلتُ: "أعدكما بالأغاني وأن لا أنساكم كلّكم، لكنّني لا أعد عفورة بان لا أنسى نفسي".

مكتبة الفكر الجديد

كأنّهم كانوا

مضت أيّام وشهور، كأنها لحظات ارتباك، صار خلالها دكان اليهودي مزاراً لكلّ من ارتبط معه بذكرى ما. كانوا يأتون، ويطلقون بعض الحسرات. يثرثرون عن مصير صاحب الدكان ويذهبون. عاشقة العولقي التي أزاحت البُرقع لأرى وجهها حين كتبت لها رسالة، كانت تأتي مبكراً وتقف في كلّ صباح أمام الدكان حتى صرتُ معتاداً أن أصحو على صوتها:

جاء اليهودي يصيح قال: يا مالي
توالفوا المسلمين وقتّلوا عيالي
جاء اليهودي يصيح: البيت ذا بيتي
سالت دموعه بكى سبعة بساتين سقى.

المعلّم توقف أيضاً أمام الدكّان ليتحسّر على ما صار. كنتُ أنتظره. صعد إلى غرفتي وأخذني لنلبّي دعوةً لتناول الغداء في منزل فيلسوف عدن.

مكتبة الفكر الجديد

حرصتُ خلال هذه الفترة على متابعة صحيفة العدنيون لأعرف الأخبار واقرأ ما يكتبه الفيلسوف. كان واضح التوجه في دعوته إلى الحكم الذاتي لعدن وضد انضمام عدن إلى المحميّات الجنوبية. بيته مرتّب على الطريقة الحديثة، يشبه ما رأيته في منزل جراهم. طريقة عيشه في بيته وملابسه وتعامله مع زوجته وابنته تذكّر بمناداته في كتاباته إلى إيجاد أسرة عدنية تتلاءم مع قيم العصر الحديث.

"هل تظن أنّ الحكم الذاتي لعدن الذي تنادون به سيتحقق؟" قلتُ للقالي، وكان قد سبقنا إلى منزل فيلسوف عدن. "بالتأكيد. استقلّتْ الكثير من البلدان. عدن ليست أقل منها" قال. "عدن لن تكون إلاّ للعدنيين" قال الفيلسوف من جانبه.

بعد لحظات، تشاغل الحاضرون فيها بقضايا أخرى، قلتُ للمعلّم إنّني فهمتُ ما كتبه الفيلسوف عن ضرورة الاستقلال الذاتي وإيقاف الهجرة من الكومنولث إلى عدن وتأهيل المحلّيين ليشغلوا الوظائف الحكومية العليا، حيث يشتغل ثلاثة، فقط، منهم في هذه الوظائف، فيما يشتغل فيها أكثر من ثمانين شخصاً من غير المحلّيين، إلى جانب دعوته إلى التخلّي عن الروبيّة وإيجاد عُملة وطنية. لكنّي لم أفهم دعوته إلى إبداع فن عدني خاص. انتبه الفيلسوف لما قلته إلاّ أنّه لاحظ أنّني وجّهتُ كلامي إلى المعلّم. "توجد موسيقى عدنية وفنّ عدني يمثّل ثقافة سكّانها" قال.

"صعبٌ علينا في الشركة أن نصنّف ما هو غناء عدني. الألوان الأخرى واضحة لدى الجميع" قلتُ. حاول الفيلسوف أن يوضح خصائص الأغنية العدنية المعتمدة على المكان واللغة والإيقاع، إلاّ

مكتبة الفكر الجديد

أنَّ ذلك لم يقنعني. "كيف وجدت أنتَ الأغنية العدنية؟" سألتني السيدة نهلا. "أغنية جميلة. تعجبني" قلتُ. "أعني، هل هناك ما يمكن تسميته بالأغنية العدنية؟" أضافت. "لا أدري" قلتُ. "كيف تسمعها وتقول لا أدري" قالت ضاحكةً. شعرتُ بأنّ عليّ أن أوضح رأي لكي لا يعتبروا أنّني أنفي وجود أغنية عدنية في بيت يمجّد كلّ ما هو عدني، لكنّني في الأخير اتفقت مع ما قاله المعلّم: "الفنانون الذين يعيشون في عدن ينتجون موسيقى هي خليط من العربية والهندية والفارسية والتركية والأفريقية، وبعضها فيها موروثات دينية من التسابيح الإسلامية والتهاليل اليهودية، وتحتوي أحياناً مفردات من لغات شتى يستخدمها الجميع في عدن". كانت السيدة ورود تشرف على إعداد مائدة الطعام في الجانب الآخر من الصالة. "لكن الموسيقى ليست خليط ألحان وكلمات، بل هي إبداع خاص من كل هذا الخليط. هذا ما نطمح أن تحققه الأغنية العدنية" أضاف المعلّم.

شعرتُ أنّني امضيتُ وقتاً مختلفاً لم أعشه من قبل. تعرّفت إلى عائلتيهما المنفتحتين وتساءلت بيني وبين نفسي عن عائلة المعلّم، التي لم تأتِ معه. للقالي ونهلا ابنتان، نجيبة ونجلاء، وولد اسمه حسن، وللفيلسوف وورود ابنة واحدة اسمها نبيهة، وكانوا يتنقلون في البيت غير عابئين بحديثنا الجاد.

"باقي نزوّجك عَدَنيّة، ليكتمل مقامك في عدن" قالت السيدة ورود. شعرتُ بالحرج ولم أجب. "لماذا لا تتزوّج شمعة؟" أضافت، وقد فاجأتني بسؤالها. كنتُ أظنُّ بوجود هذه الشائعات، لكنني لا أعرف أنّها يمكن أن تصل إلى هذا الحد، وإلى منزل الفيلسوف

مكتبة الفكر الجديد

بالذات. شعرتُ بالحرج وبقيتُ صامتاً.

كان ذكر اسمها كافياً ليبعدني عمّا أنا فيه، من أفكار ونقاشات، بل وليغيّبني فجاةً عن الحاضرين وكأنّني غير موجود. لا أعرف كيف أفسّر زيارتها الأخيرة لي قبل أيّام. "أصلحتُ سيّارتي وساهديك إيّاها للذكرى" قالت شمعة، وقد امتلأتْ غرفتي برائحة عطرها. "هل جئتِ لتودعيني؟" قلتُ لها. لم تجب وناولتني ما قالت إنّه بقيّة أجوري ومكافآتي عن العمل معها. "بيتي هنا في كريتر سأتنازل عنه للفنّانين. امّا امّي مريم فساعطيها بيتي في الشيخ عثمان. لي بيت في التواهي سأسلّمه لماما لتتصرّف به كما تريد" أضافت.

"هل ستغادرين؟". ولم تجب أيضاً. قامت وكأنّها تتشاغل بأمور أخرى. رتّبتْ بعض أشيائي في الغرفة. ظلّت صامتةً وشعرتُ أنّها تريد أن تقول شيئاً ولا تستطيع. راحت إلى الممر وفتحت باب الحمّام. أدخلت رأسها لتراه ثم أغلقته. وضعت يدها على مزلاج باب المدخل، وظننتُ أنّها ستغادر. عادت وجلست قبالتي وهي منكسة الرأس. غطّت وجهها براحتي يديها ولم تمر سوى لحظة حتى أجهشت بالبكاء.

مكتبة الفكر الجديد

بساط من ريح

يا الله افرحوا يا يهود
فرحلكم ممدود
أنتم معكم وعود
الحرب عليكم ما يعود.

يغني سليمان في مدخل إحدى خيم معسكر حاشد، الذي بدا مكتظاً بالناس والخيم. لم يشعر بنا حين اقتربنا منه. لم تكن زوجته إلى جانبه. كان يعطي المتحلّقين حوله أملاً، إذا ما عادوا إلى قراهم ومدنهم، بأنَّ الحرب عليهم لن تعود، بموجب التعهدات المكتوبة من قبل إمام اليمن، مع أنَّ كلّ ما حوله يشير إلى أنّهم صاروا في حال رحيل، ولا شيء غيره. وأنّ طائرات ألاسكا تنتظر مجموعةً أخرى ممن تقذف بهم ضربة الريح.

ذهبتُ مع ماما والعارف والمعلّم وميجي وحلاها لنودّع عم شمعون وعائلته. فيما كنتُ أتساءل إذا كانت شمعة سترحل هي الأخرى، وفي اليوم نفسه، كما قيل. تيّقنتُ من أنّها لن تبقى، بعد

مكتبة الفكر الجديد

لقائي الحميم معها في غرفتي، لكنّني بقيتُ آمل أن تخيب توقعاتي. ولم أشأ أن أذهب إليها وألحّ بالسؤال حول ما إذا كانت ستغادر فعلاً. كيف لا أصدّق وقد أهدتني سيّارتها، ووزّعت بيوتها؟ لقد كانت لها أوقاتها الخاصة بحركتها، كما لها طرقها المتّبعة في تصرّفها، باعتبارها فنّانة مشهورة. لكن رحيلها لن يكون، كمثل أي تصرّف، أو طريق تمرّ فيه وبأي وقت.

طلبنا من موشيه الذي وجدناه يلعب مع أطفال، بعضهم بزنانير وبعضهم بدونها، أن ينادي أباه ليأتي إلينا، فيما طلب العارف من سليمان أن يواصل الغناء.

رَمَاني عيطموس من فَوق وَكْره
سبى عقْلي وأسْهَرني المنام

حَبيبْ اوْفَيْت في هَجْرَكْ وطلّيت
على البستان اللي ذي يجْلي الهموم

وما ترْحَمْ لِمَن قد بَكْ تولّغ
وما تعْلَمْ وما تِعْرِفْ كلامي

وكُلْ حاسدْ وكلْ باغِضْ يزُولَ
من الدنيا يكون نفْسِه عَديمِ

مكتبة الفكر الجديد

وأدعو للإله يُرْدِنَا بإشْفَاقْ
إلى قُدسُه وفي عَهدِه يُقيم.

"هل تحقّقت أحلامهم بظهور عيطموس؟" سألتُ نفسي بصمت، وأنا أسمع الأغنية. بدا لي وكأنّ جميع يهود عدن والقرى والمناطق العربية المجاورة، قد تجمعوا في معسكري حاشد والحسوة لتلبية نداء عيطموس. وجّهتُ السؤال إلى العارف. "الذين يقولون إنّ أحلامهم تحققت هم أصلاً بلا أحلام" أجاب. "الوطن حلم غير محقّق ولو في الحلم، حتى في الأحلام لا يتحقّق الوطن" أضاف.

انتبهتْ ماما لقول العارف. "أحبُّ الأحلام البسيطة، سواء في النوم أو اليقظة. الأحلام الكبرى أو العظيمة مدمِّرة؛ فالحالمون يشعلون بسببها المعارك والحروب، سواء باسم الله أو الوطن أو العدالة" قالت.

"من زمان والناس يغنّون ويصلّون: عيطموس، عيطموس. لكنّهم بقوا جالسين في حالهم" أضافت ماما.

"اليهود عاشوا في عدن كعدنيين، وكان اليمن وطناً لهم، لكنهم ظلّوا يحلمون بوطن آخر. هناك من أراد أن يحقّق لهم حلمهم الذي توارثوه وردّدوه بالصلوات والقصائد والأغاني، فلم يرفضوا" قال العارف.

بدا حال المعسكر على غير ما رأيته من قبل، ليس بالعدد الهائل من الناس الذين صاروا فيه، بل وبظروف حالهم الواضحة في ملابسهم المتّسخة وفي الإعياء المصاحب لمشيهم وأجسامهم الهزيلة.

مكتبة
الفكر
الجديد

جاء عم شمعون، وبجواره عبده حجازي الذي سبق وتعرّفت إليه. أخذنا إلى زاوية داخل الخيمة يجلس فيها مع عائلته، فيما بقي سليمان يغنّي.

عرفتُ من عبده حجازي أنّه جاء مرافقاً ليهود من اليمن وبعض المناطق العربية المجاورة، قدموا إلى المعسكر بهدف الرحيل. رأى أنّني مستغرب من علاقته باليهود. "أنا أصلاً يهودي، لكنّني لن أرحل" قال. "ومن اين جاء اسم عبده؟" سألته. "قصّة طويلة سأخبرك في ما بعد" أجاب، ليذكّرني بما قالته ماما، أكثر من مرّة، عن قصصها المؤجلة.

عائلة عم شمعون بدت وكأنّها في حال استعداد دائم للرحيل، أو أنّها صارت في حال رحيل قد قطعت خطوات فيه.

كنتُ قد عمّدت مع عم شمعون توكيله لي وماما بشأن التصرّف بكازينو البندر. من حيث المبدأ وافقنا على تشغيله، على أن يحصل هو على أربعين في المئة من الأرباح السنوية، وما تبقى منها يكون لي وماما. حذّرنا من أن نقوم بإرسال حوالة مالية له عبر البنوك، خوفاً من ان تضيع. طلب أن ندّخر مستحقاته وقال إنّه في يوم ما سيبلغنا، عبر اي وسيلة، كيف ندفع له.

لا يعرف عبده حجازي إلى أين ستحمل الطائرات الأميركية أصحابه قبل أن يصلوا إلى وجهتهم. أمس قالوا له إنّهم سيمرّون عبر أثيوبيا، واليوم قالوا عبر قبرص. بقي يتذكّر الطرق التي عبرها مع آلاف من القادمين إلى معسكري حاشد والحسوة في عدن. ساعدهم لكي يعبروا الطرق بسلام، بعد أن رفض بعض زعماء المناطق العربية

مكتبة الفكر الجديد

تسليمهم إلى وكالة الترحيل اليهودية إلاّ بمقابل مالي. ولهذا لم يصدّق عبده ما قاله العارف عن إصرار شريف بيحان على عدم التفريط باليهود في بلدته. وأنصت باندهاش إليه وهو يتحدّث عن رفض الشريف صالح بن حسين الهبيلي ترحيلهم، وقوله إنّه مسؤول عن رعايتهم وحمايتهم، حسب الشريعة الإسلامية. إلا أنه، إذ ألحّ عليه مندوبو الوكالة كثيراً، اكتفى، في الأخير، بإبقاء كبار السن من اليهود ليرعاهم.

قال عم شمعون إنّ رحلتهم ستكون قبل المغرب وإنّ شمعة ستأتي إلى هنا مبكراً، لتودّع أهل عدن الذين جاؤوا للسلام عليها، قبل أن يذهبوا معاً إلى الطائرة. لم أفاجأ بما سمعت وبقيتُ أنتظرها.

"لم تتبقّ لشمعة حيلة للبقاء. قرّرت السفر بعد أن واجهت المشاكل" قالت بنت الذماري، ولم توضح لي ما المشاكل التي واجهتها. ربّما هي نفسها لا تعرف، فشمعة، كما أعرفها، لا تشكو أو تفصح عن أي مشاكل تعترضها.

خرجنا مع عائلة عم شمعون هرباً من روائح العرق الحارة المختلطة بروائح أخرى لا تحصى.

في الباب عرّفتنا ليّة إلى يحيى الجالس في حال سرحان. اكتفى بهزّ رأسه كردّ على تحيتنا، ولم يقل شيئاً وهو يصافحنا. "شابّة مسلمة من جبل صبر اسمها غُصْن، احبّت يحيى وحاولت أن تهرب معه" قالت ليّة. "أحبّته برضى أبيها وأمّها، لكن أخاها هدّدها بالقتل إذا تبعته". بدا من تتحدّث عنه غير مهتم. بقي جالساً، فيما انتصبنا واقفين نصغي إليها. "كانا يلتقيان في تعز، هي تبيع البَلَسَ والفِرْسِك

مكتبة الفكر الجديد

والرُمّان وهو يبيع العسل، يأتي به من العُدَين" أضافت. "أمس سمعتُ من يهود صبر والعدين قصّته. قالوا إنّهما التقيا، أوّل مرّة، في مزار الولي الشبزي بتعز، الذي يحبّه اليهود والمسلمون. هو لم يخبرني باي شيء". ولكي توكّد غيابه عمّا تقوله أشارت باصبعها إليه: "هذا هو أمامكم، اسالوه، قد يكلّمكم". لم ينطق بكلمة. "جاءت غصن إلى عدن لتسافر معه، لكنّهم كمنوا لها، وخطفوها. لا أحد يعرف مصيرها ولا من خطفها".

ما سمعناه من قصص، بعد أن جلسنا أمام الخيمة، ساعد قليلاً في احتمالنا لهيب الحر الشديد. بدا أنّ ليّة جمعت أثناء مكوثها في مخيّم المعسكر الكثير من قصص الراحلين عبره. حرصتْ أن تبدو أمينةً في ذكر الأماكن والوقائع والأسماء. مع هذا لم تغفل أن تغلّف كلّ القصص بالحب وإن لم تكن هي كذلك. مثل قصّتها عن ليقة وحالية: الأولى عجوز جاءت من شمال اليمن ولقيت أختها، التي كانت تظن أنّها سبقتها إلى أورشليم، تعيش في عدن بعد أن تزوّجت مسلماً واتّبعت دينه، فأعلنت إسلامها هي الأخرى وجلست إلى جوار أختها تاركةً أولادها الأربعة وزوجاتهم يذهبون دونها. والأخرى حالية، بنت عدنية تعرفها عفّورة. "هربت، في غفلة من عائلتها، واستنجدت بأسرة من البُهرة. هي ترفض الزواج من أي أحد، لكن إذا تواضع ابن هذه الأسرة الشاب وقرّر الزواج منها فستقبل، أكيد" قالت ليّة والتفتت إلى عفّورة وهي تبتسم، لتضيف: "يكفيها أنّها ستعيش مع أوسم ولد في عدن، معشوق عشرات البنات. هي لم تقل لنا لماذا لا تحب الرحيل. تقول إنّها

مكتبة الفكر الجديد

تريد البقاء في عدن، هكذا، دون أي سبب".

"هكذا، هي مثلي. أريد البقاء في عدن دون أي سبب" قالت عفّورة. نهرها أبوها: "اسكتي أنتِ".

عبده حجازي تحدّث عن أسَر أسلمت في العُدين وصنعاء وصَعْدة وبني العَوّام وخَوْلان وجبل صَبِر ويافع. "أمس، حين وصلتُ إلى المعسكر، عرفتُ هذه الأخبار" اوضح، وذكر أسماء عائلات قال إنّها مشهورة. "كلّ هذا من أجل الحب" قالت ليّة. "صحيح، من أجل الحب" قال العارف، فيما ضحكت ماما وميجي وحلاها. أمّها أيضاً ضحكت، ولكن بطريقة مفتعلة، كما بدا لي. لم أضحك وبقيتُ أقلّب عيني لأرى تصرّفات عم شمعون المرتبكة، وحركات عفّورة غير المبالية بأي شيء.

"بعضهم رفضوا الرحيل ولم يسلموا. بقوا في ريدة وضحيان وبيحان" أضاف عبده. "من أجل الحب" كرّرت ليّة مقولتها، ولكن دون ضحك هذه المرّة.

"وأنا..." قالت عفّورة، لكن أباها وأمّها التفتا إليها بعيون متوعّدة فسكتت ولم تكمل جملتها.

جاءت شمعة بزي يشبه الزي الصنعاني الذي رأيناه على بعض القادمات من صنعاء في زيارتنا السابقة للمعسكر. احترتُ ماذا أقول لها، ولم أجد سوى: "ها أنتِ ستغادرين وتتركيننا". "لا تقل هذا. مَن يعرف عدن لا يغادرها ولا تغادره أبداً". "كلام شعر. لكنّني سأفقدك" قلتُ لها. "عدن تعوّض أي فقد" قالت وشدّت على يدي، وهي تصافحني، بقوّة حميمة.

مكتبة الفكر الجديد

سألتها عن الأم مريم. "هي في أمان، لا تقلق" قالت.

سليمان ونعمة قالا إنّ موعد رحلتهما لم يحدّد بعد.

حشود كبيرة جاءت، منذ وقت مبكر، لتودّع شمعة. رأيتُ عَبْدي وشنكر وخان وفرهاد وإيزانا وهاي ووليم وفرانسيسكو وهم يمضون معها إلى خور مكسر حيث الطائرة التي قالوا إنّها جاءت قبل موعدها.

نظرات عم شمعون صارت أكثر صمتاً وعتاباً لكلّ من حوله. في اللحظات التي سبقت صعود الطائرة، فتح ذراعيه وضم أفراد عائلته وكأنّه يودّعهم، هم أيضاً. كأنّه سيفقدهم كعدن، كأهلها الذين لم تعد لديه القدرة ليرفع يده ويلوّح بالوداع لآخر من يراه منهم، لكنّه، وقد بدا مشدوها، ارتفع صوته فجأةً وهو يصرخ منادياً عفّورة. تلفّت كثيرون للبحث والسؤال عنها ولكنّهم لم يروها.

كانت قد اختفت فجأةً عن عيون الجميع ولم يعرفوا أي دليل إلى مكان وجودها. كما لم يعد هناك من وقت للبحث عنها أو انتظارها. عبده حجازي طمأن أباها وأمّها أنّه سيعمل الواجب معهما. "تبحث عنها وترسل بها في أقرب طائرة" ألح أبوها. "ولا يهمّك، سأعمل اللازم" قال عبده معيداً تأكيداته. "سآتي بها ولو من تحت الأرض" أضاف. "فال الله ولا فالك" قالت أمّها وقد راح بالها كما يبدو أنّه يمكن أن يخرجها ولو من قبر إذا ماتت. أربك الاختفاء أسرة شمعون مع أنّ ليّة لم تبدُ كذلك.

بدا يحيى بملامح حزينة ومكتئبة، وربّما غاضبة. لكنّه كان عاجزاً عن فعل أي شيء. بقاؤه ورحيله سواء. في الحالين سيكون بدونها،

مكتبة الفكر الجديد

بدون غصن التي يسمعهم يتحدّثون عنها وعن يحيى وكأنّهما آخران.

كانوا يتحدّثون في المعسكر عن بساط سحري. لا أدري اي بساط هو؟ بساط من حب مهاجر أم بساط من أحقاد وكراهية متبادلة؟ بساط من حياة ستذهب مع الريح.

شمعة ستؤخذ في بساطٍ من ريح. شمعة مع الريح وفي الريح. هاي سيبقى يعزف بدون صوت شمعة وهي كأنها سترحل لتغنّي لأذن واحدة، غير الأذن التي أنصتت إليها واعتادت سماعها. ودّعت شمعة كلّ من جاء، واحداً واحداً. هاي هتلر لم يقل لها أي كلمة وهو يودّعها. بدا أنّه يحاول أن يغنّي بدلاً من الكلمات. فتح فمه فانتظرتُ أن يخرج منه أي صوت، لكنّه لم ينطق وكأنّه خرس تماماً. وفيما بقي يحاول، مثلي، أن يبعد عينيه عن رؤيتها وهي تمضي، حاولتْ هي أن تهدّئ من هالة الرحيل، فحيّت هاي برفع يدها اليمنى، كما كان يعمل هتلر، أو كما كان يعمل هو في ميدان كريتر، وابتسمت له، ثمّ أعادتها في تلويحة وداع أخيرة للجميع، ووضعتها فوق قلبها.

مكتبة
الفكر
الجديد

النفحة الثالثة

حلم الملكة

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

هو الآخر الحلم

بعد أكثر من تسع سنوات أمضاها كحلم يقظة، أو كيقظة حالمة، ها هو يجلس يحصي ما يتذكّره من كلّ شيء؛ ما يتذكره من بعد انخلاع ذاكرته الأولى: ماما وشمعة وعم شمعون وابنتيه وولديه والعارف والقالي والفيلسوف والمعلّم وسعيد وعبد الجبّار وجراهم وماري وحواء وفارح وحلاها، التي كبرت وصار حب وليم لها بيّناً؛ يتذكّر النساء الملتاعات في مراسلاتهن، البخور المهيّج وهو يشمّه منبعثاً من أجسادهن المدعوكة بالعطور العربية. لم يعد هناك مَن يكتب لها رسالة. فلمن سيكتب وإلى أين. أيكتب لنفسه؟ في كازينو البندر يعمل معظم النهار والليل، قريباً من ماء بئر الزعفران الذي أدمن شربه كلّ ليلة. لقد اطّلع على تفاصيل مكوناته: ماء عذب مخزون من بئر الزعفران منذ عشرات السنين، يخلط بورد داذي ليخمّر، ثمّ ينبَذ في الشمس لفترة.

علاقته بماما صارت أكثر حميميةً، ولكن إلى أي حدّ هي كذلك؟ قد تبدو للآخرين أنها علاقة بدون متعة، أو تنقصها المتعة، أمّا بالنسبة إليه، فرؤيته، وحدها، لها كانت بمثابة متعة. ولهذا لم يكن بحاجة

مكتبة الفكر الجديد

ليؤكّد الشكوك حولهما ويطلب الزواج منها، إذ إنّ هذا لن يحدث، فهي، وقد صارت معشوقة الجميع، فإنّ أحداً لن يتجرأ ويطلب التفرّد بها، لتكون زوجته، وحده.

هو لا يفكّر في مفارقتها، أو في الذهاب إلى مكان غير الذي هي فيه. كان اليهود يحلمون بوطن ويعيشون في وطن، أمّا هو فلا يحلم بوطن ولا يعيش في وطن، فعدن بالنسبة إليه ليست وطناً، بل البديل عن الوطن، وبما أنه هو نفسه كان حلماً، عند ماما، فقد صار الآخر الحلم. يظن أنّه يعيش في ما بعد الحلم والحقيقة.

في مرّات كثيرة حاول أن يستعيد ذاكرته الأولى؛ أن يقول للناس من هو. ولكن من هو؟ ذاكرته تلك لم تعد متوفرة.

ظنّ أنّ ما كتبه يكفي لحفظ الذكرى، وأنّه لم يعد هناك ما يمكن كتابته. لكنّه، وسط حماس الجميع لحلم الملكة، عاد بهمّة جديدة ليكتب، وإن كانت همّةً سرعان ما تفتر، همّة فاترة. كأنه يكتب، فقط، ليحاول أن يفهم ما يجري، أو يكتشف نفسه في ما يحدث، على الأقل.

مكتبة الفكر الجديد

حلمٌ يحلم

قال المعلّم إنّهم سيجتمعون غداً في الكازينو لمناقشة حلم الملكة وعليّ أن أجهّز طاولة طويلة تستوعب شلّة الكازينو مع آخرين، لم يذكر عددهم.

"حتى أنت تؤمن بالأحلام والتنبؤ؟" سألته عيشة، عاملة الكازينو، ولم يجبها. اكتفى بالقول: "اسألي ماما".

حين وصلتُ قبيل الظهر، مع العمّال، بادرني عبد الله، حارس الكازينو، وهو يفتح لنا الباب بالقول إنّ ماما حلمت بأنّ اليزابيث الثانية ستزور عدن. "جميل. هل جاءت ماما قبلنا إلى هنا؟" سألته. "لا، لم تجئ. حلمتْ أنّ صاحبة التاج البريطاني كانت تحلم بعدن وهي نائمة، وتغنّي: يا ليت عدن قريبة" قال. استغربتُ قوله. أردتُ أن أسأله: "هل حلمتَ بأنّ ماما حلمتْ بالملكة وهي تحلم وتغنّي؟" لكنّني تراجعت، لكي لا يظنّني أسخر منه.

لم تمر سوى الساعة التي نقضيها، كل يوم، في تنظيف وإعداد التجهيزات الأوّلية في الكازينو، حتى وصل ميجي والمعلّم، على غير عادتهما في المجيء وقتها. ليتبعهما أحمد الوهطي وآخر من روّاد

مكتبة الفكر الجديد

الكازينو وصديق لسعيد، يدعونه مقبل السمّار.

"أخيراً ستأتي الملكة إلى عدن" قال ميجي وهو ينظر إليّ، كأنّه متأكّد أنّني صرت، مثله، على معرفة ويقين بزيارة الملكة. "لو تحقق الحلم، فزيارتها تعني تقديرها وحبّها لأبناء عدن" قال المعلّم. "زيارتها تعني أنّها تعطي أهمّيةً لمستعمرة عدن. تحاول خلالها كسب ودّ العرب" قال السمّار. "العرب، بَسْ؟" سأل ميجي وهو يفتح فمه بضحكة صامتة. "اين القهوة؟ ما أقدر أستوعب ما تقولونه قبل أن أشرب القهوة" قال المعلّم وهو يوجّه كلامه إلي. تركتهم لنقاشهم أمام الطاولة التي تجمعوا حولها ورحت لأطلب من عيشة أن تقدّم لهم القهوة والشاي، حسب طلبهم. عَبْدي لم يتركني أوضح لها طلباتهم إذْ اندفع نحوي من الباب، فور وصوله، وسألني: "صِدْق، ستجيء الملكة؟" دون أن يحيّيني أو يسلّم على الآخرين. لماذا سألني أنا الذي ليس لديه إجابة، ولم يسألهم؛ هل لأنّ من قالوا إنّها حلمت قريبة مني وزميلة في العمل؟

ما قالوا إنّه تراءى لماما في منامها، وانتشر خلال ساعات، كان يمكن أن يكون كأي حلم يقول فيه المنجّمون والمؤولون تفسيراتهم المعتادة والجاهزة، لولا أنّ هناك من يعتقد، مثلي، أنّ أحلام ماما ليست كغيرها من الأحلام وأنّها بمثابة رؤى قريبة إلى التحقق.

لم تؤكّد ماما ما تناقلوه عنها، لكنها بالمقابل لم تنفِه. حين وصلت إلى الكازينو اكتفت بالابتسام وهي تستمع إلى أسئلتهم حول الحلم. معظمهم بقوا يتحدّثون دون أن ينصتوا انتظاراً لما يمكن أن تقوله.

مكتبة الفكر الجديد

هل هناك طريقة أخرى عرفوا من خلالها الحلم دون أن تخبر به صاحبته؟

بدا لي أنّ الحلم معقّد، فهو حلم داخل حلم. ماما تحلم بأنَّ الملكة تحلم وتغنّي. كنتُ قد ألفت أحلامها وتحققها، أو، بالأصح، مدى وكيفية تحققها. مع هذا فأحلامها قلّت خلال السنوات الأربع التي أمضيناها معاً في العمل في الكازينو، أو أنّها لم تكن تفصح لي عنها. صرنا نلتقي يومياً منذ أن ترك لنا عم شمعون كازينو البندر لنعمل فيه شراكة، ومن حينها لم يرسل إلينا ليسأل عن أحوالنا معه. نحتفظ بالمخصص المالي السنوي له في البنك ولا نعرف متى سنحصل على الطريقة التي وعدنا بها لنوصله إليه. لا نعرف أين هو الآن. سألتُ عنه الكثير من اليهود الذين عادوا إلى عدن. اثنان منهم قالا إنّه فتح كازينو في حيفا، وأن عائلته تعيش في روش هاعَينْ.

قال العارف، حين قابلته وأنا في طريقي لتناول الغداء في مطعم إحسان، إنَّ الزَّبيدي منجّم مدينة بيت الفقيه الشهير لم يكن يعرف بالحلم المتداول، حين أرسل نتيجته السنوية للمطبعة العالمية بكريتر وفيها أعلن عن: زيارة بريطانيا إلى عدن، كابرز حدث متوقّع خلال العام الجديد. "العبارة كانت غامضة ولم أستطع مساعدة سورابجي صاحب المطبعة في تصحيح بروفة الطبع الأخيرة. طلب مني، صباح اليوم، أن أكتب له رسالة بالعربية إلى الفلكي الزبيدي ليستفسر حول ما إذا كانت هناك بعض الحروف أو الكلمات قد سقطت من العبارة سهواً، فاختلّ المعنى فيها" أوضح، ليضيف: "لكن، ما إن أكملت الرسالة ورتّبنا كيفية إرسالها إلى بيت الفقيه حتى جاء من أخبرنا

مكتبة الفكر الجديد

بالحلم، فانزاح غموض العبارة".

لم تجلس ماما في الكازينو كثيراً، كعادتها. حين عدتُ من المطعم، غادرتْ بعد أن ازدحمت الأسئلة حولها ولم تجد غير ابتسامتها لتردّ بها على أصحابها، مع السؤال عن أحوالهم: "قل لي، أولاً، كيف حالك، هل أنت بخير؟".

قبل سنة، بدأت تتشكّل ما صارت تعرف بشلّة الكازينو. كانوا يلتقون قبلها ليلعبوا الورق كلّ مساء، ولم يُعرفوا بهذا الاسم إلاّ بعد أن اتّحدوا للدفاع عن عَبدي الذي أراد صاحب كازينو نايت أن يفصله وفرقته عن العمل. قاموا بعمل وُصِف بالفوضوي حين ذهبوا إلى عبده حجازي الذي اشترى الكازينو من صاحبه السابق ولم يعد يرغب في رقصة الزّار. قالوا له إنّهم سيحرّضون الجميع على عدم ارتياد الكازينو، فأبلغ الشرطة، وقال إنّ شلّة من كازينو البندر هدّدته. المعلّم وعبدي وميجي ومقبل السمّار، وأبو النهار وأحمد الوهطي وشنكر هم من صاروا عماد هذه الشلّة التي صارت تُعرف بعصابة السبعة، مع أنّهم لم يكونوا يشبهون العصابات العنيفة والمسلّحة المتداول أخبارها. هم ينتمون إلى الفن والأدب والرياضة، ولديهم أساليب مقنعة في الحديث، لكنّهم لم يستطيعوا أن يقنعوا بها عبده حجازي. أنا وماما اقتنعنا بسهولة، حين اقترحوا تخصيص ساعة، من يومي الخميس والجمعة، في كازينو البندر لرقصة فرقة الزّار على أن لا يتعارض مع برنامج فرقة الكازينو التي تحمل اسم فرقة شمعة.

سوى المرأة الصامتة التي تجلس في زاوية الكازينو، لم يتراجع أحد من القادمين في المساء عن مواصلة الحديث في الحلم والتنبؤ. ومنهم

مكتبة الفكر الجديد

أفراد الشلّة الذين عادوا ومع البعض منهم نتيجة الفلكي الطازجة الصدور. لم يقرّ المتحمسون للزيارة بتوافق حلم ماما مع حلم الملكة بعدن، وتطابقهما مع التنبؤ، فقط، بل وبدأوا يناقشون كيف يمكن الترتيب لهذه الزيارة، كحقيقة قادمة ومؤكّدة: "هي ملكة. إذا حلمت بشيء ستحققه" قال ميجي. لم يهتموا بطلب مشروباتهم كما العادة، وكأنّ الحلم صار بديلاً للعب الورق والقهوة والشاي والنبيذ والخمر وكلّ شيء.

سمعتُ شنكر وهو ينقل لهم تحذلق المنجّم في حافة الهنود حول من سيأتي: الملكة أم بريطانيا؟ وتفسيره لعبارة فلكي بيت الفقيه، بالقول إنّ زيارة بريطانيا، تعني أنّ عدن ستصبح جزءاً من المملكة وليس مستعمرة، فقط، يحق لها الاستقلال. ظهر لي أنّهم لم يابهوا لما سمعوا. بقي المعلّم يردّد أنّ التفسير الوحيد، الصح والمعقول، هو أنّ صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا العظمى ستزور عدن. وهو إذْ لم يفصح عن اسم من قال هذا التفسير، فقد بدا أنّه، هو نفسه، لا يدري به. بل ربّما كان هو من اخترع هذا التفسير في لحظة مزاج صافية، ولم يعد بإمكانه التراجع عنه بعد أن انتشر وصار متداولاً كحقيقة.

شلّة الكازينو ناقشوا الموضوع بجدّية، غير معتادة منهم كثيراً. المعلّم رأى أنّ من الواجب أن يعملوا للملكة دعوةً باسم أبناء عدن، تقديراً لها، وأن لا تأتي من ذاتها. "أقترح دعوة آخرين، ليشاركونا الرأي في كيفية صياغة الدعوة وشرح التبريرات لضرورة زيارتها" قال. عبدي وميجي وشنكر، إضافةً إلى بعض ممّن كانوا قد انضموا لطاولة الشلة المحصورة، وافقوا على الفكرة، فيما بقي السمّار

مكتبة الفكر الجديد

والوهطي يطالبان بعدم الانجرار وراء الأحلام أو التسرّع في قرار كهذا. أبو النّهار كان مستغرباً هكذا نقاش جِدّي حول حلم. "غير معقول. جميعكم تؤمنون بالخرافات، بالتنجيم والأحلام" قال.

مكتبة الفكر الجديد

حمّى الحب

لا أعرف، هل هي الوحشة التي تداهمني آخر الليل وتحفّزني على مواصلة الكتابة، أم أنّ ما يجري حولي من أحداث هو من أعادني إلى الكتابة؟ منذ رحيل شمعة من عدن وانشغالي في الكازينو لم أعد استطيع أن أكتب. ما تردّد عن حلم ماما بالملكة وهي تحلم بعدن كان المحفّز الأول لعودتي إلى الكتابة، بعد أربع سنوات، أو أكثر، من طي الصفحات التي كنت قد كتبتها للذكرى، لذكرى من أحب وأوّلهم ماما وشمعة. عودتي منهكاً آخر الليل إلى الغرفة لا تدعني أتحمّس لأي كتابة أو حتى تفكير. لكن يمكن القول، أيضاً، إنّني حاولتُ العودة إلى الكتابة من قبل، أثناء مداهمة الحمّى لي فجأةً. فإذ أقعدتني في المرّة الأولى ثلاثة أيّام وليالٍ في الغرفة، فإنّني لم أكن أجد في آخر الليل سوى الورق لتفريغ هذياني الحاد. لكن ما كتبته بقي على حاله بطريقة مشتتة وغير مرتبة تشبه حال الحمّى، ولم أقم سوى أخيراً، مع انتشار الحديث عن الحلم، بتنقيح الأوراق وإعادة كتابتها.

حين داهمتني الحمّى للمرّة الثانية لم أستطع أن أكتب، إذ لم أستطع أن أبقى منفرداً في الغرفة. يومها بقيتُ في الغرفة متغطياً بالبطانية

مكتبة الفكر الجديد

وجاذباً كلّ ملابسي إلى فوقي علّها تدفئني من البرودة المتخللة في جسدي بالرغم من حرارة الجو. كنتُ لا أقوى على أي حركة وفي حال ظننتُ فيها أنّني هالكٌ لا محالة. لهذا فرحتُ بوصول فرانسيسكو، فرغم أنّه طالبني بأن أخلي له الغرفة، حسب وعدي له، إلاّ أنّه في الأخير انتبه إلى مصارعتي الحمّى التي داهمتني منذ منتصف الليل. راح ليأتي لي بأشربة وشاياً بالليمون وفواكه حامضة، قال إنّها ستقضي على الحمّى. كنتُ أحس أنّه سيرجع وقد مت.

كان فرانسيسكو قد طلب مني قبل يومين أن أدع له الغرفة لساعتين فقط، يلتقي فيها من يحب دون أن يقول من هي. "من الساعة الثالثة والنصف إلى الخامسة والنصف لأنها ستقول إنها ستذهب عند أختها الوالدة". بسبب زوجته المعتوهة، كما قال، لا يستطيع استقبالها في بيته. أنستني الحمّى ما وعدت به ولم أتذكّر إلاّ حين جاءني.

أنعشتني المشروبات قليلاً فرحت إلى الكازينو بعد أن راح فرانسيسكو وجاء بحبيبته المغطاة بالشيذر. لم يبالِ بموقف الجيران إذا رأوه قادماً إليّ مع المرأة. طمأنت نفسي بأنّهم سيقولون إنّها عائلة جاءت تزورني. "ساعتان فقط وتعال لنا" قال فرانسيسكو. لكن الساعتين طالتا إلى أربع. فحين رجعت قال لي: "أرجوك روح ساعة، أيضاً، وارجع". أضفت ساعتين، وليس ساعة فقط. مع هذا قال فرانسيسكو حين وصلت: "اضبط ساعتك جيّداً، ما لها تمشي بسرعة؟".

أخذتُ المفتاح وعدت إلى الكازينو. ليتبعني فرانسيسكو بعد أن ودّع حبيبته. ما إن وصل حتى راح يصف ما رآه مما كان مخفياً عنه

مكتبة الفكر الجديد

من حبيبته: "يا الله يا الله على بخور تجنّن رائحته، على خصر، على عيون، على صدر، على شعر، على قوام، ورغم هذا كلّه لا تحب الزواج". فكّرت أن أقول له إنّني ساكون غداً في الغرفة ويمكن أن تأتي بها، أيضاً، بصفتكما زوجين جاءا لزيارتي، سأتركك في الغرفة وأجلس على السطح، لكي لا يشك الجيران في ما حدث اليوم. أردتُ التعرف إليها بحيلتي هذه، لكن ميجي، حين لم يسمع أي جواب من فرانسيسكو، قال: "أنا ساكون ضيفك". هو يحب العلقة ويريد أن يعمل مثله. لا يدري أنّني لم أدعُ فرانسيسكو وحبيبته مرّة أخرى إلاّ بسبب إغرائه بوصفها، ولأحاول أن أعرف مدى التطابق بين الوصف والموصوف. أمّا راقصة الزّار معشوقة ميجي فأنا أعرفها. "انتظرنا بُكرَة في الغرفة، وعندما نجيء رُح لك. سننتظرك حتى تعود" قال ميجي في اللحظة التي كان عليّ أن أتدبّر كيف أواجه الحمّى التي عاودت مداهمتي.

حين صرعتني الحمّى في المرّة السابقة، كنتُ قد بدأت العمل في الكازينو. حاولت أن أتعلّم مهنتي الجديدة من عيشة ونجيب، وهما من بقي بعد مقتل داوود ابن شمعون وسفر برهان إلى مالطا ليعمل هناك مع شركة ملاحية. كنتُ كثير الحركة فسقطت في المرض ثلاثة أيّام. اهتمّت بي ماما كثيراً وبقيت تتردّد على غرفتي لتقدّم لي الأكل والدواء. أتذكّر كيف سقطت في الحمّى والهذيان، ومع هذا لم يختلّ شعوري تجاهها؟ لم أبالغ وأنا أقول لها إنّها عزائي في الحياة. فبدونها ما كنت لأنام ليلتي الأولى مرتاح البال في عدن، وبدونها ما كنت لأصل إلى شمعة والعارف ورقصة الزار، وأنظّف ذاكرتي

مكتبة الفكر الجديد

بالبخور العدني. من دون ماما ما كنت قد خلعت ذاكرتي الماضية، أو أزحت ثقلها، على الأقل، عن كاهلي وعمري.

لم توقف شيرين هذياني حين لحقت بماما بعد ساعة من وصولها. جاءت بصحن وكوب زجاجي ووضعتهما أمامي. "هيّا، انهض واجلس. هذه الشُربة الحامضة ستشفيك من الحمّى" قالت ماما وناولتني ما صبّته في الكأس. "شكراً لكِ شيرين" قلتُ وأنا أحاول أن أتجرّع المشروب الساخن. "الشكر لماما. هي من أعطتني الحاجات، وطلبت مني أن أنقّعها وأطبخها" ردّت.

منذ أن انتقل كيكي مروانجي، مع زوجته وابنته، للعيش في البيت الذي اشتراه من عم شمعون لم أقابله إلاّ حين يخرج متأخراً ويصادف ذلك نزولي من الغرفة. كان يصحو مبكراً ليذهب إلى المحلاوة، حيث يصنع ويبيع الحلويّات في شارع الطويل، ويعود في وقت متأخر. دكّان اليهودي أصبح فرعاً لمحلاوته، مع بيعه بعض الاحتياجات الغذائية الأخرى. يأتي بالحلوى جاهزةً من محلّه الرئيس، في أوانٍ كبيرة مغطاة بشكل بدا لي أنه يحفظ حرارة الحلوى لعدة ساعات. ابنه خسرو هو من يعمل في الفرع مع حلواني عُماني، اسمه الصوري، يتردّد بين المحلين.

جاءتني شيرين مبكرةً، في اليوم الثاني من مرضي. استغربتُ أن أُبقي الباب مفتوحاً. كنتُ غير قادر على أن أفتح لمن يأتي أو أغلق بعده. "خفتُ أن تكون رحت العمل وانت مريض. طول الليل وبالي عندك. قلقت عليك" قالت وهي تزيح غطاءً من القماش عن صحن كبير فيه وعاءين وإبريق وكوب. شكرتها لمشاعرها نحوي ولم

مكتبة الفكر الجديد

أستطع أن أتناول ما أتت به. فقدت الشهية لأي شيء، حتى للاستماع إلى الأحاديث. أردتُ أن أجلس وحيداً وأكلّم نفسي. أنصتُ إلى حديثي لنفسي فقط، أو إلى ماما، إذا جاءت. "أمّي جهزت لك الأكل والشاهي منذ الفجر. من أمس وهي تسأل عنك. طلبتْ من أخي أمس في الليل أن يأتي ليطمئن عليك. قال إنّه وجدك نائماً". أفزعني قولها. "تقصدين خسرو. متى جاء؟" قلتُ لها. "جاء في الليل" قالت.

بقي خسرو يسكن مع زوجته فريال في بيت أبيه القديم، ولم أكن أعرف أي أخبار عن حياتهما سوى تلك المقابلات الخاطفة التي أراه فيها حين أمرّ من أمام فرع المحلاوة، دكان اليهودي القديم. لم أستطع أن أستكشف منها أكثر عن وقت مجيئه. هل سمع ماما أو رآها في جواري فتراجع عن الدخول إليّ؟ لم أكن، أنا نفسي، أدرك ما الوقت حتى أعرف إذا كان قد جاء وهي عندي أم لا. ما أظنّه أنّها رجعت إليّ في وقت مبكر من الليل، لتطمئن عليّ، جالبةً الفواكه والحليب. ماما لا تبدو خائفةً من أحد حين تجيء إليّ، وإنّما أنا الذي أخاف من الأقوال والشائعات. بالأصح، لا أخاف من الشائعات، بل من عواقبها، كأن يطردني كيكي من الغرفة التي صار يملكها ويأتي إلي في اليوم الأخير من كل شهر ليأخذ مني إيجارها. شيرين، هي الأخرى لم تبدُ خائفة حين جاءت ترجوني أن أتناول ما أتت به. رطّبتْ مصرّ رأسها بالماء في الحمّام وعادت لتضعه على جبيني. انتبهت إليها وكأنّني أراها لأوّل مرّة. لم أكن قد رأيتها من قبل في حال تظهر فيها مفاتن جسدها بشكل لافت. "حرارتك لم تعد شديدة مثل أمس" قالت وهي ترفع كتفي بيديها، بعد أن رأتني أحاول أن أرفع

مكتبة الفكر الجديد

رأسي عن المخدّة لأعتدل ولو قليلاً أمامها.

في المرّة الأخيرة التي زارتني فيها عفّورة، قبل أن يُحرَق الدكان والبيت، قالت وهي تتأفف متضايقةً: "الجو كلّه حار وأنت ولا يهمّك. جالس تقرأ في برود". شغلتْ بالي يومها بقولها. ماذا تعني بأنّي لا أهتم بالجو الحار؟ وهل البرود في القراءة أم تقصد أنّه فيّ أنا الذي جالس أقرأ دون أن يحرّكني الجو الحار، جوّها الذي هي منه؟ ولم أنتبه إلاّ بعد ساعات طويلة أنني حين أتعامل مع عفّورة عليّ ألاّ أُحمّل ما تقوله معنىً ثقيلاً أو أكثر من معنى، بل عليّ الاّ أُحمّل ما تقوله أي معنى، فمثلها تبدو كأنّها لا تأبه لإيجاد معنى لأي شيء، بما في ذلك حياتها.

لم يبذل عبده حجازي جهداً في البحث عن عفورة وذهب مباشرةً إلى منزل التاجر مفضل الإسماعيلي. ربّما همست له ليّة بمكان اختفائها أو أنّه تتبع مسار قصتها التي سردتها عن البنت حالية التي هربت ولجأت إلى عائلة الولد الوسيم، الذي صار من المؤكد أنّه هو نفسه الذي أوصلت رسالة ليّة إليه على الشاطئ، فنقل هواه إليها بدلاً من أختها.

توقّعت أن يجبر عبده حجازي عفورة ويرسل بها بأقرب طائرة إلى عائلتها، لكنّه نكث بوعده حين تعرّف إليها عن قرب، وصار عليه أن يعمل جاهداً لإقناعها بالزواج منه والبقاء معه في عدن. لا يُعرف لماذا تخلّت عفورة عن علاقتها بمحمد ابن الإسماعيلي بكل هذه السهولة. فلم تجلس سوى ليلتين في بيت عائلتها القديم، حيث لم يكن كيكي قد انتقل إليه، لتذهب في الليلة الثالثة مع عبده حجازي،

مكتبة الفكر الجديد

إلى بيت ماما المُهدى من شمعة. كانت ماما قد سلّمت عبده مفتاح البيت ليعيش فيها مع عفورة، ودعت عدداً من الأصدقاء ليزفّوهما هناك.

ماما تقبّلت البيت الهدية إلاّ أنّها لم تستطع مفارقة عائلتها التي عاشت معها سنوات الفقر والكدح، كما قالت. لم يبدُ لي أنّ ماما كانت فقيرة في يوم من الأيّام، بل كانت عندي وبقيت، بكرَمها، أغنى مَن رأيت.

شعرتُ أنّني نقهت من المرض، لكن شيرين جاءت مبكرة ومنعتني من الذهاب إلى العمل. ارادت أن تحيطني بذراعيها وأن تجلسني بالقوّة. بدت أكثر جرأةً من قبل وهي تلتصق بي وتدفعني للجلوس، ثم وهي تتحسس رأسي وتقيس حرارتي بأصابعها. رائحة البخور، المنبعثة من ثنايا ملابسها وجسدها، نشّطت كل خلايا جسمي وحفزتني للنهوض. بقيت تسحبني وتشدّني بذراعيها لأبقى. "ارتاح، ارتاح اليوم، ما فيش عمل" قالت وهي تضغط بيدها على صدري. "لا تخف مني. لن أغويك. أمّي قامت من صباح الصُبح وعملت حِرزها" أضافت ضاحكةً. لم أفهم. "أمي قالت إنّك ستكون اليوم بخير. جهزت لك الفطور وحاصرتني بقيودها لمّا رأتني ألبس وأتبخّر". بدت شيرين مدعوكةً بكل أنواع العطور ومبخّرةً ببخور عدني جذّاب. ربّما كنت أبدو أمامها مرتبكاً. "لا تخف، قلت لك. لن ألتهمك" قالت وواصلت ضحكها. استغربتُ أكثر. "قلتُ لك امّي خيّطتني" أوضحت وهي تكشف عن مقاصد قولها. بدت مربّطةً بخرق وخيوط تغطّي وسطها بإحكام. تشدّ الخيوط خصرها وتضغط

مكتبة الفكر الجديد

على لحم فخذيها بشكل بيّن بحيث يصبح من المستحيل الوصول إلى منطقتها الوسطى بأي حال من الأحوال. "ألم أقل لك إنّني في أمان أمّي. وليس في يدي أو في يدك أي حيلة" قالت وكانت روائح العطور والبخور قد تجاوزت حِرز أمها المربوط وفكّت قيوده إلى ما لا نهاية.

"هنيئاً لك رائحة الهنود" قالت ماما حين جاءت في وقت الظهيرة. عنت بقولها بالتأكيد روائح العطور الهندية التي بقيت في أجواء الغرفة، وربّما عنت رائحةً واحدة هي رائحة شيرين. قالت إنّها انتظرتني أن أنهض من المرض. لم أقل لها إنّني حوصرت ومُنعت من الخروج. بالنسبة إلي، ماما هي دليلي إلى كلّ رائحة، دليلي إلى عَرق الحياة، إلى رائحة الحياة وعِطرها. لم أقل لها شعوري هذا. كنتُ اشعر أنّها تدرك مكانتها لديّ. أشعر أنّها تشعر بشعوري نحوها، على نحو ما بدا حلم الملكة. أليست هي من حلمت بصاحبة التاج وهي تحلم بعدن؟

مكتبة الفكر الجديد

الملكة العَدَنيّة

لم تستطع أن تجتمع الشلة مع من دعتهم من خارجها لمناقشة صياغة دعوة إلى الملكة لزيارة عدن سوى بعد أربعة أيّام من انتشار موضوع حلم ماما وتنبؤ الزبيدي. ما انتبهت إليه هو حماس المعلّم للدعوة. ربّما كانت تهمّه زيارة الملكة بأي حال من الأحوال. "علينا أن نساعد اليزابيث الثانية على تحويل حلمها إلى حقيقة ونرسل إليها دعوة من الجميع" قال. لكن من اعتبرهم الجميع أظهروا اختلافهم في أول لحظة جلسوا فيها حول الطاولة؛ فإذ وافق معظمهم على فكرة الدعوة، فإنّ موافقتهم هذه لم تكن سوى بداية لتصادم إجاباتهم بعضها ببعض وهي تحدّد باحتدام من يحق له أن يحمل صفة العدني، وبالتالي حقه في توجيه الدعوة بهذه الصفة، التي تعدّ عندهم بمثابة هوية، شهادة جنسية، مواطنة، حقوق، أو حتى دليل حياة وعنوان وجود.

بقيت أستمع إلى طراطيش أحاديثهم. أبو النهار المجاهر بالقول إنّه شيوعي يرى أنّه يمكن للكادح من روسيا أو اميركا أو اليمن أو من اي مكان في العالم ان يكون عدنياً، وبالمقابل لا يمكن للراسماليين

مكتبة الفكر الجديد

المستغِلين أن يكونوا عدنيين كالبِس والبيكاجي وميسا ومنشرجي وبازرعة والسلطات المتحالفة معهم. وإذ قال إنّ لا سلطة سوى سلطة البروليتارية ولا عدل إلاّ بتثبيت ديكتاتورية الطبقة العاملة، فإنّ أحمد الوهطي، الذي صار يقترب أكثر من أفكار أبي النهار، راح يؤيده بحركات رأسه ويده ولسانه، وهو ينطق بالقول إنّ ما سمعه هو الكلام العلمي الصحيح. فيما اختلف معهما سعيد والسمّار في التفاصيل، فهما إذ يوافقان وجهته ضد الرأسماليين والرأسمالية، فإنّهما يهتمان بالخصوصية القومية، باللغة والهوية والثقافة والاقتصاد.

بدا المعلّم وكأنّه يحاول الابتعاد عن أي تفاصيل خلافية لا تخدم الهدف المرجو، وهو زيارة الملكة، ومع هذا لم يتردّد في القول: "العدني هو من يساهم في تمدّن وحضارة عدن، وهذا لا يحقّقه من لديه هيمنة أيديولوجية، دينية أو شيوعية أو قومية. الرعاع والبدو والخدم لا يملكون الحق في وصف العدني لأنهم ليسوا مواطنيها أصلاً وليسوا مؤثرين في ازدهارها" قال.

بالإضافة إلى سعيد، استجاب آخرون لدعوة أعضاء الشلة، لمناقشة تبعات الحلم. خسرو جاء بالإنابة، ربّما، عن أبيه كيكي، مثل محمد ابن مفضّل الإسماعيلي، مع أنّهما بقيا صامتين، مثل شنكر، سوى بعض الكلمات البسيطة التي لا تكشف عن موقف. كان هناك آخرون لم أعرفهم. أحدهم قال ميجي إنّه من البهائيين.

العارف له رأي مميّز، لكنّه لا يكرّره كهؤلاء الذين صرت أحفظ أقوالهم وأعرفها قبل أن تخرج من أفواههم، بل أظن أنّني صرت أعرف، أيضاً، كيف يفكّرون وما الذي يشغل أذهانهم. رأي العارف

مكتبة الفكر الجديد

لا يبدو لي مكرّراً، ليس لأنّني سمعته مرّة واحدة، فقط، بل لأنّه يختلف عن كلّ آرائهم، بإعطاء تعريف أكثر اتّساعاً لمن هو عدني. "كلّ واحد يمر من عدن هو عدني، لكن ليس بالضرورة أن يكون هو العَدَنِي (بألف ولام التعريف)، العدني صفة جماعية وليست احتكاراً لفرد أو جماعة أو لحزب أو قومية، فالكل هم العدني، وكل عدني هو جزء من الكلّ".

هل تتفق ماما مع هذا التعريف من العارف، الذي يبدو أنّه الأقرب إلى طريقتها. [ألا يكون، بالأصح، أقرب إلى هواجسي أنا وليس إلى ماما؟ إذ ربّما قد صرت الأقرب إلى هواجس ماما، ولهذا أخمّن بما يمكن أن تهجس به] ماذا ترى ماما؟ يبدو أنّه كان سؤال الكثيرين، بعد أن تشعبّت أسئلتهم واحتدّت إجاباتهم.

"كلّ واحد" بدأت بالكلمات الأولى نفسها لقول العارف. "كلّ واحد في عدن أو يمر منها هو العدني (بألف لام التعريف) وليس عبارة عن عدني فرد، وإنما هو العدني، ضمن كل عدن" هكذا ذهبت، في رأيها، بعيداً عن توقعاتي، بعيداً عنهم كلّهم، بمن فيهم العارف. "فالعدني هو عدن، يصيرها منذ أن تلامس قدماه، أو حتى هواه من بعد، ولكن صفة العدني ليست فرضاً، فيمكن للمرء أن لا يكون عدنياً وهو في عدن، حتى وإن ولد فيها، أو ولد فيها آباؤه وأجداده [ولكن كيف؟ هل هي حدود أخلاقية تمنح العدني صفةً حميدةً عن غيره؟ لا، تقول ماما: حتى أولئك الذين يعتبرهم البعض سيئي الأخلاق، أو خاطئين، بل ومجرمين، لهم الحق في حمل صفة العدني]، فعدن لا تعطي صفتها إلاّ لمن يطلبها، ولو كان في طرف

مكتبة الفكر الجديد

بعيد عنها، وهو حين يعمل ذلك، ويقول لنفسه إنّه أصبح عدنياً، فإن لا أحد يستطيع أن ينتزع منه هذه الصفة".

بتعريف ماما هذا للعدني انطلق صاحب القميص الأبيض من الطائفة البهائية ليرى أنّه بموجبه يمكن القول إنّ الملكة إليزابيث عدنية، لأنّ هواها عدني، ليس من خلال ما قيل عن اهتمامها بتنمية المستعمرات، والتي منها عدن، بل ولأنّها غنّت بحلم ماما: يا ليت عدن قريبة.

"ملكة عَدَنيّة، يمكن أن تكون كذلك، ولكن ليست ملكة لعدن، أو مالكة لها. إذا اعتبرت نفسها مالكة لعدن فإنّ هواها لم يعد يبقى هوىً بل سجنٌ تقيّد عدن فيه، هذا من منطلق التعريف نفسه، لا من منطلق تعريفي أنا" قال سعيد، ولم يضف تعريفه إلى ما قاله.

فيما قال أبو النهار إنّ اليزابيث الثانية ستزور عدن كمستعمَرة تتبع رعايتها، أي إنّها ملكة ومالكة لها في الوقت نفسه. "وهذا غير مقبول" أوضح.

لم يكن هناك من يأتي إلينا برأي الشيخ عبد الجبار في وصف الزائرة المتوقعة بالعدنية، لكنّه صار من المؤكّد، عند من سمعه في المقهى، أنّه يرفض الصفة والزيارة معاً.

ماما رأت أن توفّق بين الآراء: "يمكن أن يطلق عليها: الملكة العدنية، لا ملكة عدن، فهي ملكة وعدنية".

أقوال ماما شغلت أفكارهم، ولم يعودوا يعرفون كيف يرتبون شروطهم الخاصة، أو الفئوية، بشأن الرسالة. فهم، في الحقيقة وكما هو واضح، لم يتفقوا على أي طريقة أخرى مخالفة لقناعاتهم، ولو كانت جامعة في شكلها لمعظم القناعات.

مكتبة الفكر الجديد

طاخ طاخ

ذهبتُ سريعاً إلى العارف بعد أن نقل إلي ميجي خبر محاصرة منزله من قبل متشددين يتهمونه بالكفر والزنا. كان هناك خمسة شبّان بلحىً صغيرة وناعمة يصرخون وبأيديهم هراوات. عرفتُ أنّهم يطلبون من العارف وقبوة تسليم نفسيهما ليقيموا عليهما حدّ الزنا. عددٌ كبير من الناس، ربّما من جيران العارف، حالوا دون تقدّم الخمسة. كانوا يمسكونهم ويصدّونهم عن رمي الحجارة نحو العارف الذي كان يطلّ من نافذة في الطابق العلوي لمنزله وبجواره قبوة.

بدت قبوة غير مبالية، بل كانت تضحك بغنج مع كلّ كلمة صارخة يقولها أحد الخمسة، فيما تنتبه إلى العارف حين يتحدّث وتنصت إليه بإعجاب بدا في عينيها ووجهها.

"سلّم نفسك، وسلّم كتابك لنحرقه" قال أحدهم.

"فقط، هذا ما تريدون؟" سأل العارف.

"قلنا لك، هذا ما نريد. هيّا انزل وأخرج معك كتاب التجلّي وإلاّ والله، والله..." أجابه أحدهم بتهديد. وإذ صدرت ضحكة

مكتبة الفكر الجديد

"مكركرة" من قبوة لتهديدهم، زعق صاحب التهديد: "وأنتِ يا زانية يا قوّادة سنقيم عليك شرع الله. سترين".

"هي قائدة، قائدة" ردّ العارف عليه فارتفعت أكثر ضحكات قبوة، مع تصفيق فرح. ليجاوبها بعض المتحلّقين بتصفيق مشجّع من عندهم.

اغتاظ الأكثر صراخاً من بين الخمسة من موقف الحاضرين: "هذا لا يُرضي الله ولا رسوله. نحن ندافع عن شرع الله ودينه وأنتم تصفّقون".

"ألا تخجلون وأنتم تقولون إنّكم تدافعون عن الله؟ تهتفون لنصرته وكأنّه ليس القوي الجبّار القادر المتكبّر" ردّ أحدهم عليه بصوت غاضب. ابتسم العارف وهو يشير إلى المتحدّث: "دعهم يعملون ما يريدون".

"هو زوجها. قبوة زوجته الثانية على شرع الله ورسوله" انتبهت إلى صوت زهرة، أخت قبوة التي وصلت لحظتها وراحت تصرخ ضد الخمسة.

"يعطونا كتاب عقد النكاح، إذا كنت صادقة".

"والله إنّه زوجها، حتى اسألوا...".

"اسألوا الله..." قاطعها العارف.

ازداد التوتر مع زيادة تحلّق الناس. وفجأةً وصل ستة جنود وضابط لتصوّب كلّ العيون نحوهم.

خمسة منهم أمسكوا بالمتشدّدين فيما طلع الضابط وجندي إلى العارف وقبوة.

مكتبة الفكر الجديد

”سنأخذهم جميعاً إلى الشرطة ومن له شكوى ضد أحد منهم يبلّغ بها“.

جاءت ماما متأخرةً، وحين عرفتُ أنّ العارف وقبوة أُخذا إلى السجن، مع المتشدّدين الخمسة، قالت: ”علينا أن نعمل من أجل إطلاق سراحهم. هيّا“ ومضيت أمشي معها. بدت مهمومة وهي تقترح أسماء عديدة لإبلاغهم بما حصل. ثم قرّرت، في الأخير، أن تذهب إلى أبي الفضل في لحج. ”هو الوحيد القادر على التوسط لإطلاق سراحهم من السجن“. طلبتُ مرافقتها إلى لحج وكان لي ما أردت.

أقلّتنا سيّارة إلى منطقة دار سعد ومن هناك اتفقنا مع صاحب سيّارة أخرى ليأخذنا إلى لحج ثم يعود بنا، وقد فضّلت ماما أن نذهب بدون سيارتي.

كان الوقت عصراً ووصلنا مع قدوم الليل. لهذا استطعت أن أرى الأودية على جانبي الطريق المؤدية إلى لحج في ضوء النهار. كلّ شيء كان أخضر. بل بدا لي أنّ الأخضر ليس لوناً واحداً، كما كنت أعرف، أو أنّه مشتق إلى فاتح وداكن، على الأقل، وإنّما عشرات، بل مئات من الدرجات اللونية، كلّ درجة لونية تبدو كأنّها لون لوحدها. كانّ كلّ الألوان خضراء. لكن، إذ وصلنا إلى مشارف البلدة، رأيتُ في الأزهار وعلى ملابس الناس والأواني الألوان الأخرى التي ذكّرتني بأبي الفضل وملابسه. حين وصلنا إليه كتب رسالة وسلّمها لشخص ليوصلها مع صاحب السيارة التي أتت بنا. ”أنتم ضيوفي الليلة. هو سيوصل الرسالة إلى مدير الشرطة. لا تقلقوا“ قال، ولم يرضخ لإلحاح ماما بضرورة عودتنا إلى عدن. ”اطلبْ أن يطلقوا

مكتبة الفكر الجديد

سراح الجميع وليس العارف وقبوة، فقط" قالت ماما. التفت إليها أبو الفضل، وبعد لحظة تفحّص فيها وجهها، وكأنّه اكتشف ملمحاً آخر فيه، قال: "سأفعل ذلك".

كنتُ أعرف، من تلميحات ماما، أنّ لأبي الفضل علاقة وطيدة بسلطان لحج وأمرائها. وقد اتضح لي ذلك حين أُعلن عن تأسيس حزب الرابطة العربية وتبوّئه، بدعم منهم، منصباً كبيراً فيه. يومها أثار تصريح الرابطة، بهدفها توحيد مناطق الجنوب العربي بعيداً عن النفوذ البريطاني، الكثير من الجدل في الصحف، وبالذات تلك التابعة لحزب العدنيين. فالسيّد القالي ومعه السيّد علي، فيلسوف عدن، وكذلك المعلّم، عُرفوا قبل أن يؤسسوا حزب العدنيين بانحيازهم للدعوة إلى الحكم الذاتي لعدن، وهي الدعوة التي وحّدت ضدها حزب الرابطة العربية وجمعية الاعتصام الإسلامي، بقيادة الشيخ المجاهد أبو القاسم المِيزِني والشيخ عبد الجبار السَيُونِي، إذ اتفقت صحف الرابطة والجمعية على نعت الدعوة إلى الحكم الذاتي بالحلم الذاتي؛ وهو ما أثار غضب الفيلسوف، فخصّص مقالاً مطولاً في صحيفة العدنيون لمهاجمتهما واتّهامهما بالسعي إلى إيجاد سلطة لتحكم عدن من غير العدنيين، قائلاً إنّهما يتفقان، في مسعاهما، مع الإدارة الاستعمارية، في تغييب العدنيين عن عَدَنِهم.

راحت ماما لتنزل في جناح خاص بالنساء حسب طلب زوجة المضيف التي أفشت رغبتها من وراء حجاب. بقيتُ أنا مع أبي الفضل في سهرة لا حدّ لوصفها. أخذني إلى بستان بجوار مبنى سكنه وهناك بدأ البعض يتوافد إلينا. قال إنّهم مغنّون وفلاّحون في الوقت نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

تناولنا العشاء أولاً، ثم قام الجميع يرقصون على إيقاع الطبول. بعدها جلسنا في صف دائري. رأيت نفسي غريباً في ملابسي الرمادية أمام حشد من ألوان زاهية في ملابس يُبعث منها ضوء يزيد بهاءً على ذلك الضوء الذي كان ينشره القمر. جاء أحدهم بآلة العود. تناولها أبو الفضل وأشار إلى أحد الجالسين ليأخذها. كانت الأرض مليئةً بالعشب الأخضر. أصلح ماسك العود حجراً أملس بجواره وجلس عليه. بدأ في الدندنة بالعود، ثم بصوته: دان وادان وادان وادان وادان دان دانة. كان عزفه طروباً. انتعش الحاضرون فقام اثنان منهم للرقص، ثم التحق بهم أربعة آخرون. وفجأةً علت الزغاريد لتظهر معها ست نساء شابات بأيديهن مباخر يصدر منها دخان البخور. قَدِمن في صف واحد، وهن يتراقصن على إيقاع العود والطبلات. بينما ظهرت الكثير من النساء، محجّبات الوجوه، على سطح ونوافذ المنزل الكبير الذي كنّا أمامه، كما ظهرت أخريات على سطوح المنازل المجاورة. النساء الست، بسحنات وجوههن السمراء، هن فقط من حضرن إلى البستان وشاركن الراقصين رقصاتهم. طوّفن بالمباخر على رأس أبي الفضل، ثم انتقلن لينشرن البخور فوق رأسي أيضاً. شعرتُ بالبهجة وبحثت عن ماما بين النسوة المتفرّجات لأرى إذا كانت تشاركنا هذه البهجة. لم ألحظ وجودها. كانت هناك امرأة محجّبة الوجه تلوّح لي بيدها. بقيتُ أرقب تناغم أجساد الراقصين والراقصات، ولم أنسَ بين وقت وآخر أن أدير رأسي لأطمئن إلى وجود المرأة التي تلوّح لي. كان الراقصون، مع الراقصات، يمدّون أيديهم إلى الجالسين ليشاركوهم الرقص. وبدا لي أنّ الجميع

مكتبة الفكر الجديد

صار يرقص. مدّت راقصة يدها إلى أبي الفضل، فيما مدّت أخرى يدها إليّ. تحرّجت ولم أجد طريقة فاعلة للاعتذار، ولو كان ذلك بالإشارة إلى عرجي. ليس أمامي غير أن أستجيب للدعوة وأشاركهم الرقص، ولو برجلٍ تعرج. كان المغنّي قد قام من على الحجارة وراح يحتضن العود وهو واقف، يعزف ويرقص، وهو ما عمله ضاربا الطبلة والرقّ. اختلط الراقصون والراقصات بحركات مبهجة صاحبها الغناء وزغاريد النسوة المتفرّجات. التفتُّ فرأيتها تصفّق. ما إن رأتني أنظر إليها حتى زغردت ولوّحت بيدها. بالتأكيد هي تشجّعني على الرقص. ألا تعرف أنّني أعرج؟

ما إن استلقيت لأنام مستذكراً إيقاعات الموسيقى المفرحة التي زاحت عني همّ ما حصل للعارف حتى سمعت أصوات رصاص. لم أتأكد أنّها أصوات رصاص إلاّ حين دق أبو الفضل باب الغرفة ودخل. "لا تقلق. هو يقوم بإطلاق الرصاص في الهواء. يطلقها على الهواء" قال. "حصل له حادث اعتداء. عنده عاهة، في وجهه، تؤرّقه كل ليلة. آخر الليل يقوم بإطلاق الرصاص. لا ينام إلاّ إذا سمعها: طاخ... طاخ. ينتقم" أضاف ولم يكشف عن اسمه. هل كان ينتقم من الهواء ليشفى؟ ممن كانوا ينتقمون الذين جاؤوا إلى العارف؟ لم أنم إلاّ بعد تقلّب أفكار وأسئلة، آخرها كانت عن اليد التي كانت تلوّح لي من وراء حجاب؛ اليد التي لم تكن سوى يدها؛ يد ماما التي كانت تنتظرني في الصباح.

مكتبة الفكر الجديد

رسالة إلى لا أحد

"قُلْ له طلّقني، ارجوك، وإلاّ ساشكوه إلى الملكة" قالت عفّورة ما إن دلفت غرفتي في وقت مبكر استغربت أن يدق بابي فيه وعلى ذلك النحو الشديد والمتسارع. لم أكن قد صحوت من النوم أو من تلك النقاشات التي تدور حول حلم الملكة في الكازينو وتصاحبني حتى غرفتي. تستعيدها هواجسي فيما أكون منسجماً مع أغاني شمعة أو أسطوانات فيفالدي وموزارت، بل وتختلط أحياناً مع أحلامي وهي تتجلى في لحظات نومي الأخيرة. عفورة التي لا تعبأ بأي شيء بدت هي الأخرى متيّقنة من تحقق حلم الملكة إذ ستشكو زوجها إلى إليزابيث الثانية حين تصل. قلتُ لها: ليست لي خبرة في معالجة الشؤون العائلية؛ لكنّها أصرّت على أن أقوم بهذا الدور: "عبده حجازي يحترمك ويقدّرك". اقترحتُ عليها أن تحدّث ماما فهو يحترمها أكثر. قالت إنّها لا تستطيع أن تطلب منها ورجتني أن أفعل ذلك. لم تكن متأنقة، كما عهدتها في معظم الأحوال التي رأيتها فيها. "سأعود حالاً. لقد خرجتُ من البيت خلسةً. هو جاء مع الفجر سكران. يسهر ليلياً مع عشيقته. نام ولن يصحو إلاّ قبل

مكتبة الفكر الجديد

الظهر" قالت ونزلت الدَرَج وهي تردّد "مع السلامة... مع السلامة" بصوتٍ مرتفع.

مللتُ من نقاشات الشلّة ومن تبعوهم في الاهتمام بحلم الملكة. لم أنصت إلى ما دار في جلستهم السابقة، لكنّني حرصت على أن أتابع ما سيجري في الجلسة الجديدة التي بدا أنَّ البعض قد تغيّب عنها.

ما خرج به اجتماعهم السابق عرفته من المعلّم: "اتفقنا أن نصوغ رسالةً من كل الطوائف والمذاهب والأحزاب والنوادي والجمعيات والشخصيات البارزة ونجوم عدن وأقمارها وشموسها"، ضحك، "على أن تقوم كل جهة بكتابة عشرين كلمة بلغتها دون مغالطة في المحتوى".

"كيف؟" سألته.

"اختلفنا على لغة الكتابة. كلّ من كان موجوداً اقترح لغة، لكن قرّرنا في الأخير أن يكون نص الرسالة بكلّ اللغات على أن نلتقي بعد ثلاثة أيّام لصياغة الرسالة".

بدت الطريقة لطيفة بالنسبة لي، لهذا استقمت إلى جوار طاولتهم حين عادوا حسب الاتفاق. أردتُ أن أتابع ما يجري من مسافة لا تزعجهم. أبو النهار التفت إليّ وناداني بصوتٍ عالٍ أن آتي بكرسي وأجلس إلى جوارهم، فأيّده كلّ المتحاورين. سالم جاء هو أيضاً إلاَّ أنّ الجميع نَهَرَه. "حسبتكم تقولون الدعوة مفتوحة" قال عازف الطبلة والمغني الشعبي الذي لا يجيء إلى الكازينو إلاّ نادراً، وعاد إلى مكانه في الزاوية ليواصل الشُرب. "مشكلته أنّه أمّي وإلاّ كان

مكتبة الفكر الجديد

بإمكانه أن يشاركنا" قال أبو النهار وهو ينظر إليّ وكأنّه لاحظ أنّني لم أتوقع هذا الموقف منه تجاه مَن يصفونه بالخادم.

المعلّم اقترح إشراك كل من في الكازينو في النقاش لعلّ أفكاراً جيّدة تأتي منهم. "إذا كانت المسألة قد خرجت من نطاق العدنيين" قال، فالتحق معظم الموجودين سوى سالم الذي رفض أن يقترب منهم مجدداً والمرأة الصامتة وثلاثة أشخاص لم يكونوا مهتمين بما يدور حولهم من نقاش. أعيدت الخلافات من جديد ولم يقبلوا ما تمّ الاتفاق عليه من قبل. تجاوزوا، فقط، فكرة من يحقّ له حمل صفة العدني واعتبروا أنفسهم كلهم عَدَانيَة، مع تحفّظ معلن من قبل المعلّم وصاحبه محمد الذي كان قد بدأ يجيء معه إلى الكازينو.

"دعونا أولاً نناقش كيف ستكون صيغة التحية في البدء، إلاّ إذا رأيتم أن تبدأ الرسالة بدون تحية" قال عبدي وهو يبتسم وكأنّه أراد أن يخرجهم من النقاش حول ما تمّ الاتفاق عليه، ولكن ليس إلى طريق محدّد، بل إلى طرق متشعبة أكثر لكي لا تتصادم. وهكذا راحوا يناقشون طريقة صياغة التحيّة التي سيبدأون بها الرسالة. وإذا لم تكن هناك من تحيّة، فكيف ستصاغ العبارة الأولى في الرسالة. ومع هذا وجدوا أنفسهم في الأخير مختلفين، قبل كل شيء، حول إذا كان من المناسب توجيه الدعوة إلى اليزابيث الثانية وليس إلى شخص آخر. وقام كل طرف بتقديم مداخلته، وصارت الملكة كوجهة وحيدة للرسالة ليست مسلّمة، كما كان يظن بعضهم، مع أنّ المبرّر لكتابتها كان الحلم المتعلّق بها. فمنهم من طمح إلى وجهات أخرى، هي مرجعيتهم الدينية أو الثقافية، وصار الحاضرون يتداولون أسماء

مكتبة
الفكر
الجديد

مقترحة لتلقي الرسالة: جمال عبد الناصر، خروتشوف، حاخام أورشليم، سلطان البهرة طاهر سيف الدين، كاهن النار الزرادشتي، ناشر دعوة بهاء الله البهائي؛ بل وتردّدت حتى أسماء الأولياء الذين صاروا مجرّد ذكرى كالشبزي وابن علوان والعيدروس.

مقترحات ميجي ساعدت في الخروج من حدة النقاش حول المواضيع المحددة، إذ أشار إلى أن هناك ما يجب بحثه قبل معرفة وجهة الرسالة، أو طريقة صياغتها، وأنّ عليهم أن يفكّروا بما سيقولونه أولاً. وهكذا طُرح الحكم الذاتي لعدن كموضوع للرسالة، كما طُرحت مواضيع الاستقلال، عُمّال الميناء، مشكلة فلسطين، طلب التدخل عند الإمام أحمد لإصلاح النظام اليمني، إدخال الفريق العدني لكرة القدم في كأس العالم، إتاحة الفرصة للعرب ليعملوا في بناء مصافي النفط. واحد طالب بتوسطها عند حبيبته البريطانية، وآخر بتطليقه من زوجته وتعويضه عن الخسائر. وإذ بدت المسألة تنحو إلى الهزل، رأى المعلّم أن توجّه دعوة لزيارة الملكة فقط، وأن يكون الطلب الوحيد هو تشريفها بقبول الدعوة. فبدا، مع قوله هذا، وكأنّ مشكلة الوجهة التي سترسل إليها الرسالة انتهت، إذ إنّ معظمهم وجّهوا مطالبهم إلى الملكة، بمن فيهم الرافضون لزيارتها. مع هذا بقي المتحفظون على الوجهة التي سترسل إليها الرسالة متمسكين بمواقفهم، ولم يقترحوا اي وجهة أخرى، وكأنّهم سيبعثونها إلى لا أحد.

مكتبة الفكر الجديد

سيما فون

لم أستغرب ان ارى عفَورة وهي تخرج من شقّة كيكي مروانجي، في بيت عائلتها السابق، لتقابلني وأنا في طريقي إلى العمل. ربّما جاءت إليهم ليساعدوها في الطلاق، كما جاءت إليّ. ما استغربت منها هو طلبها أن أرجع إلى الغرفة في أول الليل لكي اكتب لها رسالة. أردتُ أن أقول لها إنّني لم احصل على فرصة لأكلّم ماما بشأن طلاقها او أذهب إلى عبده حجازي بنفسي، لكنّها سرعان ما راحت من أمامي وهي تقول: "انتبه، عد بالمغرب، ها، أرجوك ضروري".

العمل في الكازينو أكثر حركةً في الليل، مع هذا كان عليّ أن أرتّب لأعود إلى الغرفة قبل توافد السهرانين إليه. قالت ماما إنّها ستقوم هي بعملي ولم تسألني لماذا عليّ أن أعود. ما استغربت منه، ايضاً، انّ عبده حجازي جاء إلى الكازينو قبل ساعتين او أقل من الموعد الذي حدّدته للعودة إلى الغرفة وملاقاة من تطلب الطلاق منه. والتي ربّما، قد تطلب مني أن اكتب رسالة أخيرة إليه.

"أخبِرْني. كيف عبده ويهودي؟" أعدتُ عليه السؤال القديم.

قال إنّه من اسرة يهودية وأنّ اسمه الحقيقي سعيد بن إسرائيل.

مكتبة الفكر الجديد

"أمّي ماتت وأنا في السابعة من عمري وأبي هاجر إلى أورشليم ولم يعد ليسأل عني. رعتني خالتي التي أسلمت وتزوّجت من مسلم. أسمتني عبد الله. كان عمري عشر سنوات حين كنت أجلس في ميناء التواهي لأخدم بعض القادمين. أدلّهم إلى الفنادق أو أشتري لهم السجائر والماء. جاءت إحدى السفن وكان على متنها حجّاج هنود، من البهرة، في طريقهم إلى مكّة. أوصلتهم إلى الفندق وبقيت في خدمتهم. أحدهم اهتم بي، حين قلت له إنّني يتيم، وطلب مني مرافقتهم إلى مكة". صمت وكأنّه راح يتذكّر تلك اللحظة: "وافقت خالتي، على أن أرجع مع عودتهم. أيّام وليالٍ أمضيتها معهم مشياً أو ركوباً قبل أن نصل إلى مكّة. كانوا طيّبين في معاملتي. في مكّة سألوا عن صاحب فندق اسمه حجازي. هذا الحجازي أعجبه، هو أيضاً، سلوكي وخدماتي. سألني هل أستطيع أن أمكث معه، أخدمه في الفندق. كنت أخبرته، فقط، عن اسمي عبد الله واستعرت اسم زوج خالتي لأقول إنّ أبي ميّت واسمه أيضاً عبد الحي. اسم عبد الله عبد الحي لم يكن رنّاناً لدى صاحب الفندق فاختصره إلى عبده، وأضاف المنادون اسمه إلى اسمي، هكذا: عبده حجازي" أوضح.
"أحبّني كثيراً الشيخ حجازي وعاملني كابنٍ له. كان بدون أطفال، لهذا حين مات وصار عمري تسعة عشرة سنة كنتُ الوارث الوحيد له بوصيّة منه. زوجته ماتت قبله بثلاث سنوات. أحببت أن أرجع إلى عدن وأزور خالتي وأماكن طفولتي. وحين رأيت الناس يقبلون على الأسطوانات الغنائية فكّرت بالمتاجرة بها وهذا ما حصل" أضاف.

كان عبده حجازي قد اشتهر بنشاطات تجارية كثيرة، وأهمها

مكتبة الفكر الجديد

منافسته على توريد سيارات رويال وماكسويل، وشراؤه كازينو نايت، وإعلانه قبل أيّام تأسيسه شركةً جديدة للأغاني والأفلام، والتي بدأ حديثه معي عنها. "أريدك أن تشتغل معي مستشاراً لشركة سيما فون" قال. "الاسم مأخوذ من كلمات سينغ وسينما وفون". كنتُ أعرف أنّ هذا المصطلح اشتهر قبل سنوات لاستخدام الشيخ عبد الجبار له بقوله إنّ هذا رمز خراب الإسلام. لا أعرف إذا كان عبده قد اختاره لشهرته أم لمعناه. قال إنّ الشركة ستكون لإنتاج وتوزيع الأسطوانات الغنائية وتوريد الأفلام لدور السينما التجارية والخاصة وتصوير الأفلام الوثائقية لمن يطلب. "أنت أفكارك هائلة ولا أنسى إنتاجك أسطوانة أغنية سوداء للأخدام". مضى يشجّعني على العمل معه. قال إنه سيدفع لي المبلغ الذي أريده مقابل عمل ست ساعات في الأسبوع، ثلاث منها في يوم الخميس وثلاث في يوم الاثنين. ولم ينتظر قليلاً لأردّ حتى طلب أيضاً مشاركتنا في الكازينو، واتبع طلبه بإغراءات لزيادة النشاط: استقدام فرقة غنائية بريطانية، استجلاب أنواع أخرى من الأشربة الفاخرة، إقامة حفلات موسمية للفنانين، بناء طابق ثانٍ، تأثيث غرف محترمة تجمع الشخص بمن يحب، أو لتسكن فيها نساء يمارسن حرّيتهن. وبدا لي أنّه يفكّر بمواصفات ماخور محترم، لا مثيل له.

خفّف عبده عن عفورة الشكوى به عند صاحبة الجلالة حين تصل. قالت، حين عدت وقابلتها، إنّه صحا من سكره في وقت متأخر من الليل على غير عادته، ولم تكن قد رجعت من مقابلة معشوقها الذي تلتقيه خلسةً، في طرف من حديقة البيت. قالت لعبده

مكتبة الفكر الجديد

إثر صياحه سائلاً عنها إنّها ستقول له أين كانت بصدق لو أمّنها، ففعل ذلك ومنحها ما طلبت. وصار عليه أن يلبي رغبتها الملحّة بالطلاق وقد اعترفت له بما تعمله كلّما مضى في غيبوبة سكر. "سأعيش مع عائلة كيكي مؤقتاً. لو تأخرت عن المجيء إليهم في الليل سآتي إليك دون أن يدري أحد. لكي لا تتضايق زوجته الملعونة، سارمي بحجارة إلى شبّاكك لتفتح لي الباب الخارجي" أضافت عفورة. طلبتْ مني أن أكتب لها رسالة إلى محمد، ابن الإسماعيلي. أوضحتْ أنّ أباه كان قد رفض زواجه منها: "لم أكن حينها أحبّه كثيراً، حسبت عبده أحسن منه فتزوجته".

"قُل له في الرسالة إنّ عليه ألاّ يذهب ثانيةً إلى بيت عبده، ويجيء يقابلني على الشاطئ في العصر". لم تقل أي تفاصيل أخرى، وأضافت: "قُل له لقد صرت حُرّة".

مكتبة الفكر الجديد

بُرقع صاحبة الجلالة

فيما انشغل الناس ببرقع الملكة، كنت مشغولاً ببرقع عفّورة الذي تتخفى فيه. صار يقلقني معاودة الشعور القديم بأنني أعيش متخفياً، أو أنَّ هناك ما أخفيه. كأنّني، أنا أيضاً، ألبس برقعاً غير مرئي. لم أجد لفوضى عفورة من بديل. خفتُ من مشاكل يمكن أن تسبّبها لي، مع هذا لم أشأ أن أتركها تواجه محنتها وحيدة. في البدء شعرتُ أنّها تواجه محنةً عابرة، ولم أدرك إلاّ مع الأيّام أنَّ الحياة كلّها، بالنسبة إليها، عبارة عن محنة، تحاول أن تعيش فيها كما تهوى، لا كما يرسمها لها الآخرون. فضول التشابه، لا فضول الاختلاف، كما يقال عادةً، هو ما حفّزها على مغامرة الزواج. "عشتُ مع عبده كتجربة. كنت أريد أن أعرف هل كلّ الناس مثل أبي" قالت.

ما خوّفني هو تهديدات السيدة لورا. جاءت عفورة قبل أسبوع لتسكن مع عائلة كيكي مروانجي ولم تغب سوى ليلة قضتها على الشاطئ مع محمد وليلة أخرى جاءت لتنام عندي لأنّها تأخرت عند صديقتها وخافت من غضب زوجة كيكي. هدّدتها بالطرد، إذا تأخرت مرّة أخرى، حفاظاً على سمعة بيت العائلة التي تسكن معها.

مكتبة الفكر الجديد

"البيت الذي لا يوجد فيه من يسهر في الخارج حتى وقت متأخر من الليل" ردّدت عفورة ما سمعته.

هل يشبه برقع إليزابيث الثانية المقترح برقع عفورة؟

انشغل الناس ببرقع الملكة منذ أن اقترح الشبامي أن يُعمل لها حجاباً يقيها في زيارتها. جلبوا لها حجاب رأس ووجه، برقع ومقرمة وشيذر، فيما كان متصوف حضرموت يقصد بالحجاب كتاب رقية يقيها الأعين الحاسدة، يعمله لها وليٌّ من أولياء الله الصالحين. لم تقتصر فكرة البرقع على المناقشة في الكازينو، وسخرية السهرانين، في آخر الليل، من الهيئة التي ستبدو فيها اليزابيث الثانية بالبرقع؛ إذ بقي شنكر، بين لحظة وأخرى، يقوم من على الكرسي، ليمثّل دور الملكة وهي تمشي متمايلةً، لابسةً البرقع والشيذر، تلوك اللبان بغنج، وتلوّح بيدها، مع ابتسامة فاترة، غير مبالية، للجماهير التي اصطفّت لتحيتها. بل اتّسع الاهتمام بالبرقع ووصل إلى الشيخ عبد الرحيم، أو الشيخ الصغير، كما يصفونه، وهو ابن الشيخ عبد الجبار الذي تناقل كثيرون في الكازينو ما قاله في خطبته بمسجد الاعتصام. "أبوه جاء به من سيئون ليعمل أميناً لمكتبة جمعية الاعتصام الإسلامي، الذي يشغل فيها منصب نائب الرئيس. حرّضه على كثرة الاطلاع والاستماع لخطبه، ليتعلّم منه كيفية الخطابة" قال سعيد. "في المسجد الذي افتتحته الجمعية، في الشيخ عثمان، كانت فرصته للتدرب على القيام بهذه المهمّة" أضاف. "ذكي. وجد موضوع زيارة إليزابيث الثانية مناسباً للإعلان عن اسمه كخطيبٍ لديه قدرة تضاهي قدرة أي خطيب آخر، ولو كان أباه" قال ميجي. "أي ذكاء. يخطب بوجوب لبس

مكتبة الفكر الجديد

الملكة البرقع والسروال الطويل؟" قال المعلّم. "هو قال إنَّ لبسها البرقع والعباءة والسروال ضرورة دينية خوفاً من الفتنة، فتنة المسلمين بها وضياع بقية دينهم" قال ميجي. "خاف أن يفتتنوا ويسلّموا أمرهم لها بدلا من الله" أضاف أحمد الوهطي.

ما عكّر فكرة الشيخ المتدرّب أنَّ أباه لم يتح له فرصة للزهو بطرحه هذا، إذ فاجأ الشيخ عبد الجبّار المصلّين، في المسجد نفسه، بتحديه أوامر منعه من الخطابة وقام ليردّ على ابنه: "موقف الشريعة الصحيح هو أن نقف ضد زيارتها من الأساس. خروجها من بيتها كحرمة غير جائز أصلاً. ناهيك عن عدم صحة ولايتها: ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة. ألم تسمع بهذا الحديث النبوي".

ميجي اهتم كثيراً بمقاس سروال الملكة واقترح مقاسات كثيرة تختلف عن ما نادى به الشيخ الصغير. "نحن لا نعرف مقاسها. لم نرَ سوى صورها" قال المعلّم وراح يتذكّر ما سمعه عن سروال الملكة فيكتوريا، ناقلاً عن صديق نقل عن صديق آخر كان قد سمع أباه يقول إنَّ صديقه أخبره أنَّ أباه عرف من خيّاط الملكة أنَّ سروالها الداخلي يبلغ عرضه ٧٦ سنتمتراً ويزيد محيط خصره على ١٥٢ سنتمتراً. "ليس لي علم بمقاس سروال إليزابيث الثانية. الملكة فيكتوريا كانت سمينة" أضاف المعلّم بابتسامة مازحة. وقد تشعب النقاش ليخلص إلى سؤال: هل من المناسب أنّ يفصّلوا لها سروالاً حضرمياً، أو لحجياً، أو هندياً، ليهدوه إليها؟ نبّه شنكر، بشكل جاد هذه المرّة، إلى أنَّ الجو حار في عدن ولا يحتمل السراويل، فأخذوا كلامه بالحسبان. أجّلوا النقاش حول سروال الملكة وتحوّلوا إلى

مكتبة الفكر الجديد

الحديث عن إمكانية تخييط فوطة فضفاضة لها، ملونة وخفيفة.

تصرّف كثيرون وكأنّ الزيارة صارت مؤكدة الحدوث، فناقشوا الأماكن المتوقّع زيارتها من قبل الملكة، ومنها قلعة صيرة التي شهدت معركة الدخول الأولى للبريطانيين إلى عدن، والصهاريج المنقذة، بمائها المحفوظ، أولئك الجنود الذين لم يجدوا من يقدّم لهم شربة ماء وكادوا أن يموتوا عطشاً. قال ميجي إنّها من المؤكدّ قد سمعت بـ"الشاهي العدني المُلبَّن"، وستطلب أن يأخذوها لتشربه في مقهى زكّو، فيما ظنّ شنكر أنّها قد ترغب في السهر بسينما هيركن، تكريماً لاسم المقاتلة الجويّة العدنية التي تبرّع العدنيون لشرائها أثناء الحرب، وصارت السينما تحمل اسمها.

ووصل النقاش إلى الهدايا التي ستقدّم إلى اليزايث الثانية، كبرهان على الكرم العدني، وما يمكن أن تتناوله من أكل. اختلفوا في كلّ شيء، مع هذا اتفقوا على ضرورة أن تذوق العسل الدوعني، وتشم قبوة كاذي وتلبس عقد فلّ؛ ولم ينسوا، قبل كلّ شيء، انتقاء المبخرة التي ستشم الملكة عبرها، ولأوّل مرّة ربّما، البخور العدني.

لم أكن بعيداً عن أجواء الاستعدادات لاستقبال الملكة، أو بالأصح الحلم، وقد كُلّفت بإعداد الأسطوانات الغنائية التي ستسمعها في جناحها رقم ١٢١ بفندق كريسنت الذي صار جاهزاً لاستقبالها مع زوجها الأمير فيليب مونتباتن. كانت الأغاني المقترحة تشمل أغاني عربية، يمنية وعراقية ومصرية، وعدنية وهندية وفارسية وتركية وإنجليزية. أوّلها: لقد زارني المحبوب يا سيدي. وآخرها أغنية فرنسية اخترتها أنا وعنوانها: ليس هناك من حب سعيد. أعرف أنّها قد لا

مكتبة الفكر الجديد

تكون مناسبة لزوجين ما زالا في مقتبل زواجهما. لكن الملازم الثاني إليزابيث وندسور، التي أدّت الخدمة العسكرية الاحتياطية النسائية وحملت رقم ٢٣٠٨٧٣، ستتفهم ماذا يعني الحب مع الحرب أو بعدها، وأي سعادة يمكن الحديث عنها في ظلّ هذا. حذّروني حين أعطوني قائمة الأغاني أن لا أضيف أغنية ألمانية أو إيطالية. ولم تكن هذه الأغاني متوفرة، إذا فكّرت في تجاوز حذرهم. كان يمكن لعبده حجازي موزّع الأسطوانات الأشهر أن يأتي بأي أغنية مختارة، أو أي أغنية ستفضّلها الملكة، لكنّه يعيش، كما عرف الكثيرون، أيام عرسه الأولى بعد أن تزوّج تسنيم بنت الإسماعيلي، أخت محمد، عشيق عفورة، إثر إعلانه إسلامه ليرضى أبوها الذي لم يقبل بفكرة الزواج ولا بإسلامه إلاّ بعد توسط ثلاثة تجّار، أحس أنّ مصالحه مهدّدة معهم إذا لم يوافق، كما ستكون مهدّدة مع عبده الذي يستورد من خلاله الكثير من بضاعته.

"عبده مشغول في تأثيث بيته الجديد. اشتراه بجوار بيت كيكي. انتقل إليه من منزل شمعة القديم، بعد أن قرّر تأجيره، مع أنّه ملك ماما" قالت عفورة التي كانت قد رفضت البقاء معه، معلنةً نفاذ قدرتها على مواصلة التخفي، مع أنّها صارت بقناعٍ آخر.

مكتبة الفكر الجديد

حزب تحيّة كاريوكا

الفتنة التي لم يستطع الشيخ عبد الرحيم أن يقاومها لم تكن سوى شيرين. لقد افتتن بها، وصار عليه أن ينفّذ كل ما يتعلّق بها من مطالب، بما في ذلك تغييره لأرائه، بل وحياته.

كان الشيخ الصغير، حسب ما صاروا يلقّبونه، قد أثار انتباه المصلّين في مسجد الاعتصام منذ أن دعا في خطبة إلى لبس ملكة بريطانيا للبرقع مع سروال طويل، إذا هي جاءت إلى عدن. لكن "عدم موافقة أبيه على طريقة طرحه دعته إلى استرضائه، بخطب عن مواضيع صارت مألوفة" قال ميجي وهو يشرب قهوته في الكازينو. "هكذا اتبع نهج أبيه الشيخ عبد الجبار في تحريمه الغناء واعتباره صوت المرأة عورة وراح يخطب ويخطب، وحدث ما حدث ليسكت تماماً" أضاف. "ما رآه أمام عينيه ولو عن بعد أذهله. فغر فمه ولم يستطع إغلاقه حتى الآن" ضحك. "المسجد الذي بُني حديثاً في الشيخ عثمان ما زال سقفه مكشوفاً، وفي جواره بيت، بلكونته قريبة جداً من منبر المسجد. في البلكونة كانت بنت كيكي مروانجي واقفة تتفرّج على الشارع" أوضح. "لكن بيت كيكي في

مكتبة الفكر الجديد

كريتر وليس في الشيخ عثمان" قال أحمد الوهطي. "انتظر، انتظر، لا تستعجل" أجاب. "هي كانت في زيارة لبيت خالتها" أوضح ميجي. "توقف الشيخ عبد الرحيم فجأةً، بعد نظرة طائشة منه راحت إلى البلكونة، لترتدّ إليه مصيبةً قلبه بالخفقان ولسانه بالخرس. بقي ينظر إليها ولم ينكّس رأسه إلاّ بعد صياح عدد من المصلّين: صلّي عليه... صلّي عليه. فاستعاد انتباهه ونزل عن المنبر ليقيم صلاة الجمعة، دون أن يكون قد أكمل الخطبة".

كنت قد عرفت من العارف أنّ عبد الرحيم الذي استدعاه أبوه ليعمل أميناً لمكتبة الجمعية، ثم أصبح ضمن تلاميذه المتشددين، هو أحد أولئك الخمسة الذين جاؤوا إليه ليتّهموه بالخلوة بامرأة أجنبية، وحاصروا بيته.

قالت لي شيرين حين سألتها مرّة عن عدم سماع حركتهم في الشقة، في معظم الأيّام، إنّها تروح مع أمّها إلى الشيخ عثمان عند بيت خالتها جالا. "أمي مولعة بالقات والتنباك، لا تصبر على تركهما وأنا مجنونة بحكايات بوران، بنت خالتي" أوضحت. "تروح لتناولهما عند خالتي لأن أبي لديه حساسية من رائحة التنباك. والقات في كريتر ممنوع، لهذا نجلس هناك ثلاثة أيّام في الأسبوع أو أكثر".

ما بات معروفاً، بعدها، أنّه أُتيح للشيخ الصغير أن يرى عن بعد فتاة البيت الوحيدة بوران، حين تقصّى عن تلك التي أبهرته. لكنّه أنكر أن تكون هي. قام بتحقيق آخر استند على الوقت الذي كانت فيه بالبلكونة، وقد استعان بأهل خبرة ودراية، ليكتشف أنّ تلك التي أذهلته وأربكت حياته لم تكن سوى زائرة للبيت واسمها شيرين ابنة

مكتبة الفكر الجديد

كيكي مروانجي، صاحب حلويات الهندي.

شيرين لم تقبل فكرة زواجها من الشيخ الصغير، حين جاء بكل تسرّع إلى أبيها ليخطبها. أيعقل أن تتزوّج خطيب مسجد؟ وأي خطيب، إنّه ابن عبد الجبّار المتشدّد؟ لم يتراجع الشيخ الصغير وبقي يلحّ على أبيها، بعد أن أعدّ الكثير من أسانيد الإقناع الدينية، وهي أسانيد بدت للأب خاليةً من كل معتقد، وإن غُلّفت ببعض الرتوش المبرّرة. "الأصول تقول إنّ أباك هو من يخطب لك، وإلى أن يأتي فلكلّ حادث حديث" قال له كيكي، ليكون بهذا التصرف قد تخلّص من عبء الوقوع في إشكالية اختلاف المعتقد بين الخاطب والمخطوبة، والتي صار من الواضح أنّ الخاطب لم يعد يأبه بها. أرجعه، إذ هو لم يرفض طلبه أو يوافق عليه، إلى أبيه. فالإشكالية ليست لديه، وحده، وإنّما هي عند الشيخ عبد الجبار، أيضاً، الذي لن يكون سهلاً في تعامله مع موضوع كهذا، لا يخصّ أحداً من الناس، بل يخصّ ابنه، تلميذه النجيب، يخصّ بيته هو، في عقيدته وموقفه.

"لن أتزوّج من خطيب مسجد ولو تاب" ظلّت شيرين تردد بصوت مرتفع كان بإمكاني سماعه وهو يصعد إلى غرفتي من الباب والشبّاك. أكّد لها أخوها خسرو أنّ هذا الخطيب قد اتّبع هواه وبطّل التشدّد، لكنّها لم تنصت لأي حجج.

لم ينتظر الشيخ الصغير كثيراً فسارع ليخبر أباه الذي هاله الأمر ولم يصدّق ما سمعه. "أجننت. ماذا تقول. تتزوج من كافرة بنت كافر؟" قال له. "ليست كافرة. لهم معتقدهم الخاص" قال الشيخ الصغير. "معتقد خاص؟ أنت تقول هذا؟ هل أنت ابني؟ ماذا حصل

مكتبة الفكر الجديد

لك؟" قال الشيخ الكبير. ولم يجد الابن وسيلةً ليقنع أباه، لكنه لم يتراجع، وكتب قصيدة حب تحدّث عنها كثيرون وإن لم يأتوا بنصها، تصف شيرين كملكة للكون وسيّدة للحياة، وإنّه هو عبد هذه السيّدة المتوسّل قربها. ولإبداء حسن النيّة - قال ميجي - ضمّن خطبةً له في المسجد أبيات شعر عن الحياة والجمال. وأدهش المصلّين وهو يكرّر أنّ الأصل في كل شيء هو الحلال. ما قاله من أنّ "الزواج يعمّق التعايش بين أهل الأرض، ولا ضرر من اختلاف عقائد ومذاهب الأزواج لأنّنا كّلنا أهل الله" أصبح منتشراً ولم يُصدّق أنه صدر من ابن الشيخ عبد الجبار، المتشدّد ابن المتشدّد.

في البداية كانت معارضة أبيه له أمراً لا شك فيه، لكن الشيخ عبد الجبار سرعان ما تراجع عن الحديث كثيراً في هذا الشأن، مما صار بإمكان روّاد الكازينو القول إنّ الشيخ الصغير قد أقنع أباه ليوافق على زواجه من ابنة كيكي الزرادشتي. ولكنّهم انشغلوا كثيراً في معرفة كيف استطاع أن يقنعه. وإذ لم يصلوا إلى إجابة مقنعة، أصغوا إلى ما قاله المعلّم: لأم عبد الرحيم سطوة على الشيخ الكبير لا يستطيع أن ينفذ منها، فالزوجة الغائبة لها مكانة خاصة لدى الخطيب الجوّال الذي يكاد يعيش من مخصصها المالي، المحوَّل إليه شهرياً عبر وكيلها لبيع العسل في عدن. "كان عبد الجبّار هو من يقوم بمحاسبة الوكيل شهرياً ويأخذ مصاريفه من عوائد البيع، ثم يرسل الباقي إلى دوعن" أضاف المعلّم. "غيّرتْ رايها وطلبتْ من الوكيل أن يعطي عبد الجبار مائة شلن بالشهر، ويرسل إليها قيمة جالونات وشمع العسل التي ترسلها إليه أسبوعياً".

مكتبة الفكر الجديد

كيكي مروانجي بدا وكأنّه غير معنيٍّ بتقرير مصير طلب الزواج. أحال الأمر كلّه إلى شيرين وأمّها. لقد تصرّف بما يليق بسمعته المعروفة، كرجل متسامح يسعى إلى الصلح بين الناس. هكذا كان على الأم التي جاءت من سيئون لأول مرة إلى عدن أن تقوم، هي وحدها، بإقناع شيرين والسيّدة لورا، وهذا ما حصل. لبّت السيدة فاطمة، التي صارت تشعر بالغبطة حين ينادونها بأم الشيخ الصغير، كلّ الشروط والمتطلبات، بما فيها تلك التي كان واضحاً أنّها وضعت لإعاقتها عن الوصول إلى مرادها في تحقيق رغبة ابنها. لقد دفعت المطلوب من مالها الذي ورثته عن أبيها وأخيها اللذين توفيا في إندونيسيا، ومن عوائد مئات خلايا النحل في مزرعة الوادي التي تضعها في المكانة الأولى لمنتجي العسل. "أمّه تحبّه. دفعت مهراً مرتفعاً لبنت كيكي. هو وحيدها" قال المعلّم. "كيف ستنجب أبناء غيره، وعبد الجبار مشغول في عدن بالجهاد ضد الأغاني والأفلام وسيقان النساء العارية وبخورهن" قال ميحي.

كان الحديث عن الوصول إلى اتفاق بين العائلتين محل اهتمام شلّة الكازينو. لكن شنكر وميجي وعَبدي لم يرق لهم تراجع عبد الرحيم عن مواقفه المتشدّدة التي اعتبروها نوعاً من الطرافة. فالشيخ الصغير، الذي فاز أخيراً بموافقة شيرين وحدّد موعد العرس إلى يوم وصول الملكة اليزابيث الثانية، كان يحفظ أسماء الأغاني والأفلام والفنانين، ولا يتحرّج من ذكرها أو التلميح إليها في خطبه المحرّمة للفنون: "انظروا إلى نرجس، هذه الهندية. يسمونها النجمة وهي جمرة من لهيب جهنم..."، حتى ظن البعض أنّه يدخل السينما

مكتبة الفكر الجديد

متخفياً مع أن أخبار الأفلام تُنشر في الصحف، والأغاني تُسمع في المقاهي والأعراس ويمكنه التقاط ما يصل إلى أذنه ليكون مرجعه في اعتبار أنّ فساد الأخلاق وراؤها سيما فون، متّبعاً المصطلح الذي نحته أبوه. "الشيخ الصغير تاب" كان متابعوه يقولون بحسرة، وهم يتذكرون التشويق الذي كان هذا الخطيب يحدثه عندهم ليتابعوا خطبه وأخباره، كما كان أبوه يفعل من قبل.

كيف يمكن لهم أن ينسوا سخريته بأداء عبد الوهاب في فيلم "الوردة البيضاء"، وبأداء نادرة في فيلم "أنشودة الفؤاد"، بأداء ليلى مراد ونجاة علي ورجاء عبده في الأفلام والأغاني، أو تناوله الأفلام الهندية وأداء راج كابور وآشوك كمار وممتاز شانتي وسيتا ديفي؟ وكيف لأحد منهم أن ينسى ما عمله، قبل هذا كلّه، حين نعت مرتادي السينما بحزب تحيّة كاريوكا، الرّاقصة الشهيرة. ليأخذ كثيرون هذا التصنيف ويطلقونه على مجموعات منهم في جلسات المقاهي والكازينوهات والبارات والنوادي، مع إضافة أسماء راقصات غيرها. وأمسى من المعتاد سماع شنكر أو ميجي يقول: "أنت من حزب تحيّة كاريوكا وهو من حزب نعيمة عاكف، أمّا أنا فيشرّفني أن أكون من حزب سامية جمال". وكانت هذه الأخيرة تمثل آخر صيحة في الرقص الشرقي الذي امتلأت به الأفلام المصريّة.

بدا لي أنّ السينما صارت قناعاً لكثيرٍ من القصص الواقعية، وإن كانت لا علاقة لها بها، كما حدث مع عفورة حين نامت مع محمد الإسماعيلي في بلكونة بيت أخته تسنيم خلسةً عن عبده الذي كانت زوجته الجديدة ستقول له إنّ أخاها زعلان لأنّ أباها لم يزوّجه من

مكتبة الفكر الجديد

يحب وهو يجلس في البلكونة منزوياً وحده، لكنّ عبده إذ جاء سكرانَ فإنّه لم يحس ولم يسأل، فربط محمد عفورة بحبل لتتدلى منه إلى الزقاق وتجيء إليّ قبل الفجر. زوجة كيكي مروانجي التي رأتها وهي تتدلى بحبل من بلكونة البيت المجاور نفّذت تهديدها فجاءت بثياب عفورة المتروكة عندها، بعد دقائق قليلة من وصولها عندي، وكأنّ السيّدة لورا، النابهة طوال الليالي بسبب القات، كانت تراقبها لحظة بلحظة. طلبتُ منها السماح لها حتى تحصل على سكن جديد فلم تقبل. أخذت عفورة صرّة ثيابها ومضت. قلت للسيدة لورا: "على الأقل تجلس عندي ساعة حتى تطلع الشمس"، فراحت تناديها لترجع. فرشتُ لها في الممر بين الغرفة والحمّام. قلت لزوجة كيكي: "شكراً لتفهمك" ودخلتُ الغرفة وأغلقت الباب خلفي لأطمئنها، قبل أن ترجع لتواصل سهرها، أنّها لن تكون بقربي. لكنني لم أستطع الرجوع إلى النوم، فعفورة لم تقرّ في مكانها سوى لحظات حتى طلبت منّي أن أفتح الباب لتكلّمني.

مكتبة الفكر الجديد

وصول الحلم

"حلم الملكة لعبة. لعبة ضحكوا بها على الناس" قال السمّار وهو يصافحني في الطريق. كان يشير إلى أولئك الراكضين باتجاه التواهي، حيث سيشهدون تحقق الوعد الإنجليزي بوصول الحلم المتمثل بصاحبة الجلالة رئيسة الكنيسة الأنجليكانية، متيحين لعيونهم النظر إلى ملكة، في فرصة قد لا يجود الزمن بمثلها. "لم أتوقّع من ماما أن تسكت عن اللعبة" قال. "هي لم تؤكّد أنّه حلمها" قلتُ له. "ولم تقل إنّ هذا ليس حلمها" قال.

أبطأت في خطواتي بعد أن قلت له "أراك بخير"، لكي لا يظنّني سأتبع الراكضين لملاقاة الملكة، فيغضب اكثر، مع أنني كنتُ، في الحقيقة، ماضياً مع الجموع لاستقبال الحلم.

اصطفّ الآلاف على قارعتي طريق شارع الهلال، رجال ونساء وشيوخ وأطفال وشباب، ظهروا بملابس متنوعة محلّية وأخرى لها طابع سلطنات ومشيخات وإمارات عربية مجاورة. سالم جاء مع زوجته وابنتيه، وعلى غير العادة شاركه كثيرون الغناء والرقص، بل والعزف من خلال التصفيق بإيقاع منتظم. معظم من انتظموا في

مكتبة الفكر الجديد

الصفوف الأولى، بناءً على تعليمات الشرطة، ظلوا يترقبون مرور إليزابيث الثانية بلهفة كانت باديةً في لفتاتهم. فيما بقي البعض حريصاً على بقاء هندامه مرتباً من عبث الأطفال الحفاة الذين يزحمونهم من الخلف ويدفعون بأجسادهم ورؤوسهم بين جنباتهم علّهم يحظون بنظرة يرون فيها الملكة.

أردتُ القول للمعلّم، وأنا أقترب منه، إنَّ الحلم قد تحقق، كما أردتَ، لكنّه بدا مغتاظاً وهو ينفض بنطلونه من الغبار، منزعجاً من احتكاك رؤوس الأطفال المتّسخة بثيابه.

كان هناك استقبالٌ رسمي إلاّ أنه ظل غير مرئي لهؤلاء الذين احتشدوا ليتأكدوا أنّ الحلم صار حقيقةً في عدن، وربّما ليؤكّدوا، أيضاً، للملكة أنّ عدن صارت قريبة منها وأنّها ليست بعيدة كما تبدو في الأحلام.

كان من الواضح أنّ المشرفين على التنظيم جهدوا كثيراً، إذ أزاحوا الأطفال ومعهم العديد من العمّال وصغار موظفي المستعمرة إلى تلّة مرتفعة في الجوار ليروا عن بُعد الموكب وهو يمرّ، إلاّ أنّ هذا الجهد لم يعد بالإمكان تحققه في اللحظة التي عُمل من أجلها. فما إن لمح بعضهم موكب الملكة، وهو يقترب من الجموع المحتشدة، حتى اندفعوا نحو الطريق لملاقاتها، بمن فيهم أولئك الحفاة، ومنهم الأطفال، المرقّعة أحلامهم بمشهد صاحبة الجلالة وهي تلوّح لهم، من على سيارة لاندروفر سوداء، بتحيّة ملكية.

كانت الأعلام الملكية قد رُفعت منذ يومين على أعمدة ورافعات الطريق المسمّى رصيف أمير ويلز تذكاراً لزيارة الأمير إدوارد إلى عدن،

مكتبة الفكر الجديد

حين كان يحمل هذا اللقب قبل أن يصبح إدوارد الثامن ملك المملكة المتحدة ودول الكومونولث وإيرلندا والهند، إثر وفاة والده الملك جورج الخامس الذي كان قد سبقه في الوصول إلى هذا الرصيف بعشر سنوات، وتحديداً قبل تسع سنوات وأحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً، كما قال أحد الهَرِمين المبتهجين بزيارة الملكة، وهو نفسه من حدّد اليوم الذي وصل فيه أمير ويلز إلى عدن قبل اثنين وثلاثين عاماً وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً. بدا لي أنّ العدنيين مع تذكّرهم حكايات من وصلوا إلى الرصيف في ما بعد، سواء كانوا قراصنة وأصحاب سفن مستجيرين بعدن من تعسف الموانئ الأخرى أو مصلحين وثوّار وملوك كالمهاتما غاندي والملك الايطالي فيكتور إيمانويل الثالث، إلاّ أنّهم أعطوا حكاية أمير ويلز مكانةً خاصة في ذكرياتهم، وهي ذكريات لا تتعلّق بزيارته إلى عدن وإنّما بموقفه حين أعلن تنازله عن المُلك لأجل الأميركية واليس سمبسون، المرأة التي أحبّها. هذا الموقف كان يكفي ليحفظوا صفة أمير ويلز كلّما تذكّروا هذا الرصيف. وهاهي إليزابيث الثانية ستمرّ من الرصيف نفسه بعد أن تنزل من اليخت سوربرايس مصحوبةً بإعلان بدء الحفاوة بها، من خلال إحدى وعشرين طلقة من بطاريات الشواطئ متبوعةً بتحيّة من حرس الشرف المكوّن من السرب الثامن للطيران الملكي البريطاني. ومن هناك ستصل إلى شارع الهلال، مارّةً بجوار تمثال الملكة فيكتوريا، حيث منصّة الشرف التي ستسمع منها الكلمات الترحيبية، وسترى الوحدات العسكرية العارضة أمامها، تتقدّمها كتيبة من الطيران الملكي البريطانيRAF تليها كتيبة من جيش محمية عدن مع الفرقة الموسيقية العسكرية وفرقة الحرس الحكومي

مكتبة الفكر الجديد

والبوليس المسلح وفرقة من الكشافة الصومالية وشرطة الصومال وفيلق من قوات البادية الحضرمي والهجانة المسلحة والحرس القبلي. وكما تقرّر من قبل، ستكرّم في المنصّة المخلصين لحكومة جلالة الملكة، بمن فيهم ذلك الحضرمي الذي سيتساهل منظمو الزيارة معه، ولن يفرضوا عليه أن ينحني أمام الملكة، تبعاً للتقاليد، حين يتسلّم الوسام لأن الدين الإسلامي يحرّم عليه الركوع أمام أي مخلوق. وإذ سيتناقل المحتفلون وصف إليزابيث الثانية لعدن بأرض الشمس المشرقة والألوان البرّاقة، فإنّهم سيهرعون ليروا حجر الأساس الذي ستضعه لمستشفى يحمل اسمها.

كان الكثيرون قد تجمّعوا مبكراً لاستقبال الملكة بعد أن تردّد أنها ستصل في السابعة من صباح ذلك اليوم الحار من شهر أبريل. ولهذا راح معظم أولئك الذين لا يملكون ساعات إلى مكان قريب من برج ساعة ليتل بن ليرقبوها بدلاً من مراقبة البحر وهو يجود على أنظارهم باليخت الملكي قبل خمس دقائق من الموعد المتوقّع، وهي المرّة الأولى التي يخدعهم فيها الوعد الإنجليزي الذي يضربون فيه المثل. وقد ظلّوا طوال اليوم والليلة، يلوّنون بهجتهم بوصول الحلم بطرق شتى، فبعد أن وُزّعت لهم الحلوى في الطرقات وقدّمت بعض المطاعم وجبات غذائية مجّانية وتلقى العاملون من أرباب أعمالهم أجر يوم عمل كإكرامية بالمناسبة، أمسوا يتحلّقون حول الأعراس في شوارع عدن وحاراتها، في مَخادِر لا عدّ لها. إذ بدت عدن وكأنّها تحوّلت إلى مَخْدَرِة كبيرة. بعد أن نفّذ كثيرون ما كانوا قد أعلنوه، فتزوجوا بهذه المناسبة النادرة، بل إنّ بعضهم قام بتجديد

مكتبة الفكر الجديد

عرسه كحال نبيهة ابنة الفيلسوف وحسن ابن القالي. لقد حضرت زفافهما قبل ثلاثة أشهر وها أنا ألبّي الدعوة وأذهب مرّةً أخرى إلى أمام منزل القالي حيث تجمّع حشدٌ كبير داخل وأمام مخدرة فيها دكّة كان العريس والعروس يجلسان عليها. وفي مقربة منهما كان هاي هتلر وفنّانة أخرى يقومان بالغناء، في حفلة تشبه الحفلة السابقة، كأنّني كنتُ في حلم وتحقّق، كأحلام ماما.

ما تفاجأت به هو زواج وليم من حلاها. كانت حلاها قد صارت تتاجر بالبخور مع أمّها بعد أن أنهت دراستها، وتقوم، إلى جانب ذلك، بالتطوّع في حملة محو الأمّية مع ابنتي القالي، نجيبة ونجلاء، فيما ظل وليم في عمله غير الظاهر في الأمن البريطاني الداخلي.

ذهبتُ لأحضر العرس وقد استقبلتني ماما وكأنّها ربّة الحفل، أو أم العروس والعريس معاً. كان إلى جوارها فارح وحوّاء وميجي وجامع الذي أراه يحضر عرساً لأول مرّة. لقد ظل كثير العزوف عن حضور الأفراح، مع أنه بدأ يخرج من عزلته منذ أن أصبح يعمل في مطبعة سورابجي، ويبدو أنّه لم يقم بهذه الخطوة إلاّ لأنّ العروس أخته. بدا لي وكأنّ من الصعب لكثيرين تقبُّل خبر زواج بريطاني من صومالية. اعتبره سعيد كحلم الملكة، الذي كان يشك بوجوده، لكنه مع حضوره العُرس كان بإمكانه التشكيك بتحقق هذا الزواج ولا يمكنه التشكيك بالحلم والزيارة. بدا هذا الزواج كأنّه عطر في أجواء صراع، ما إن يُظن أنّ أحد جوانبه قد انتهى حتى يبدأ جانب آخر، فلقد وحّدت العروس الصومالية ثلاث فئات متناحرة من الصوماليين كان من السهل الصلح بينها ولو بتوسط إليزابيث الثانية.

مكتبة الفكر الجديد

فقد انشغلت هذه الفئات في صراعات اعتبروها مبدئية، واعتبرها ميجي لا معنى لها. المعنى الذي رآه فارح يتمثل في الخلافات بين صومال إيطاليا وصومال فرنسا وصومال بريطانيا. عَبدي كان ينصت للمجادلات بدون أي انفعال أو اهتمام، حتى حين يسمع العلقة تتحدث عن مؤامرة دولية ضد الصومال، ولا تتوقف إلاّ إذا سمعت ميجي يقرأ نشرة أخبار جديدة عن تجّار عدن، ومعظمهم من الأموات: "هنا البي بي سي. وصلنا الآن هذا الخبر العاجل والهام. تفيد الأنباء الواردة من عدن أنَّ التاجر بيكاجي قهوجي حقق اختراعاً كبيراً، سيؤثر على تطوّر حركة الملاحة ومستقبلها، حيث أعلن عن استخدام فَسْو الغربان لتموين السفن البخارية. والجدير ذكره أنَّ بيكاجي كان قد جاء بغُرابين معه من الهند، وحين تكاثرت في سماء عدن ألهمه فكره بمثل هذا الاختراع العظيم". ولا تتوقف عن الضحك وهي تسمعه: "وفي تطوّرٍ لاحق، أقدم التاجر أدلجي كووفرجي بتيل على الزواج من الحيّة التي كانت تبيض له ذهباً وفضّة، وقد أفادت الأخبار، بعد أيّام من العرس الكبير، بانعدام الذهب والفضّة في عدن لأنّ الحيّة لم تعد تبيض". وبالشغف نفسه تنصت إليه، فيما يتحلّق حوله كثيرون: "مصادرنا السرّية تسللت إلى ذهن محمد عمر بازرعة، واكتشفت أنّه يقوم حالياً بالتفكير في إيجاد وسيلة لزراعة الجلود بدلاً من جلود الحيوانات". ولم يكن ميجي يتراجع عن مغادرة الجلسات إذا رأى وجود أشخاص ما زالوا يعكّرون الأجواء، لكنّه، في حال كان مزاجه أكثر انبساطاً، يتحول إلى التنكيت على المختلفين، أو المتعاركين، أنفسهم، أو عن أحزابهم،

مكتبة الفكر الجديد

أحزاب تحية كاريوكا ونعيمة عاكف وسامية جمال.

ظل عدد الوافدين إلى عرس وليم وحلاها يتزايد في كلّ لحظة. كلّ من يسمع عن زواجهما يسرع في المجيء. بقوا يسمعون أغاني إيزانا إلى وقت متأخر، وكأنّهم أرادوا أن يديموا تأكّدهم ان ما يحدث أمامهم يحدث فعلاً. تذكّرت ماما عرس شمعة وهاي وهي تلاحظ، في وجوه من حضروا، البهجة المختلطة بالاستغراب.

كان هناك آخرون تزوّجوا بمناسبة زيارة الملكة ونذروا، قبل وصولهم إلى ليلة الدُخلة، أن يسمّوا بناتهم إليزابيث. ميجي بقي يرفض أن يتزوج ولم يتراجع عن مبدئه. وإن ظن سعيد أنّه قد يعملها ويخون هذا المبدأ بعد أن رآه مرّةً على الشاطئ مع ماري الصغيرة قبل أن تسافر، كما اعتقدت أنا ذلك حين كنت أراه مع العلقة، أو حين أتى مرّةً ومعه عفورة إلى الكازينو. ميجي لا يختلف في عزوبيته عن كثيرين كعبدي وشنكر ومطلّقي شمعة الأربعة، وأنا أيضاً. أمّا عزوبية فرانسيسكو فإنّها مختلفة، ومن نوع آخر. فقد عاش سنوات طويلة مع زوجته، المرأة الصامتة، دون أن يجمعهما فراش واحد، مع هذا صار يبدو شبه خالٍ من ضحكاته المعتادة بعد أن توفيت.

آخر مرّة رأيت فيها المرأة الصامتة، كانت تجلس وهي تدخن السيجارة أمام مكتبة الإرسالية الدنماركية في شارع اسبلانيد. أعلنت المكتبة حينها في الصحف عن وجود التوراة والإنجيل فيها، فدخلت لأقتنيهما دون أن أحدّثها. لكنّني حين خرجت سألتها لماذا لم تعد تجيء إلى الكازينو. مصّت سيجارتها بشغف ونفثت دخانها على هيئة كثيفة. لم أكن أعرف قبل موتها أنّها كانت زوجة لفرانسيسكو،

مكتبة الفكر الجديد

مع هذا كنتُ ألاحظ اهتمامه الدائم بها، حين كانت تجلس صامتةً في الكازينو، إذ كان هو من يدفع ثمن شرابها. قال ميجي إنّ فرانسيسكو هو من كان، أيضاً، يدفع أسبوعياً ثمن وجباتها من مطعم روما وسجائرها الجولد فليك من كشلك اليوناني. "تروح إلى بيته في آخر الليل، وتخرج في العصر، دون أن يتدخل في حياتها التي صارت صامتة في كل تصرفاتها". ما سمعته من عائشة عاملة الكازينو، عن المرأة الصامتة، لم أسمعه من أحد غيرها: "جاءت أختها من إيطاليا لتزورها، وفي مرّة راحت زوجة فرانسيسكو إلى السوق لتشتري احتياجات البيت وتركت أختها مع زوجها وحيدين. حين رجعت رأت ما هالها وأخرسها. لقد كانا يخونانها".

لم تنتهِ الليلة وبدا أن لا نوم سيهدئ من صخبها، ومع قرب الصباح بقي أن أعرّج على عرس الشيخ الصغير وشيرين. رحتُ إلى منطقة الشيخ عثمان، حيث منزل أبي العريس، لكنّهم قالوا لي إنّ الحفلة في بيت كيكي. وهكذا، حين عدت وجدت شارعنا ممتلئاً بالناس والأغاني والزغاريد. لم أكن قد لاحظت في الصباح أي استعداد لعرس. ربّما لم يكن الشيخ الصغير متأكداً من وصول الملكة، الحلم. فهو إذ انشغل من قبل ببرقع وسروال الملكة، فإنه قد حرص، بعد أن وصل إلى مراده المتمثل في شيرين، على أن يتزوّج في ليلة تكون فيها أنفاس الملكة تعبق عن قرب لتطوف فوقهما كسحابةٍ مباركة. وصلتُ والفنان خان يغنّي في المخدرة المنصوبة أمام المنزل: "قُمري شَلّ بنتنا. قُمري شَلّها وراح" وسط تصفيق الحاضرين. استقبلني كيكي وخسرو وقد فرح الشيخ عبد

مكتبة الفكر الجديد

الجبار لمجيئي ولم يكن يعرف أنّ غرفتي على سطح البيت نفسه إلاّ حين أخبرته. مع هذا قلتُ له إنّني ذهبت إلى منزله في الشيخ عثمان، وإنّني كنت سأجيء أبارك له وأحضر العرس في أي مكان كان. بدا لي أنّ سعادة الشيخ عبد الجبار بحضوري كانت أكثر من سعادته بعرس ابنه نفسه. عرّفني إلى الكثير من الأشخاص الحاضرين. اهتمّ بجلوسي في مكان مميّز بجوار العريس والعروس، وظلّ يحيّني باحتفاءٍ ظهر فيه كأنّه لا يدري ماذا يعمل من أجلي أو يقدّم لي. قدّم لي قهوة وشاي وبيبسي في الوقت نفسه. قلتُ لنفسي ما كنت أكتشفه لحظتها: النّاس طيّبون، ولكن علينا أن نمد أيدينا إليهم لكي نستكشف هذه الطيبة التي لا نستطيع أن نراها من بعيد أو مع المواجهة.

قال إنّها إرادة ابنه في الزواج من عابدة النار وإنّه لم يؤيده. بدا الشيخ عبد الجبار، وهو ينكّس رأسه بجواري، متضايقاً من اختلاط الرجال بالنساء، وروائح البخور والأغاني، لكنّه ظل بين وقت وآخر يلتفت إلي بابتسامةٍ بدت لي أنّها غير مصطنعة. بعد خان غنّى فنّان آخر، لقّبوه بالحضرمي، بصوتٍ جميل: "لقد زارني المحبوب يا سيدي". ومع هذا الزحام وتدافع الناس جاء فتى وسحب يدي إلى حيث كانت امرأة مبرقعة تنتظرني. قالت: "أنا الملكة. هَبْ لي مفتاح غرفتك لأسبقك إليها". ناولتها المفتاح وأنا مندهش من طريقة تنكّرها بالصوت والبرقع.

عدتُ إلى مكاني وأنا ألاحظ استغراباً في عيني الشيخ عبد الجبار من قيامي بمحادثة امرأة مبرقعة، هي مسلمة، على الأرجح، لكنّه لم

مكتبة الفكر الجديد

يفصح عن أي استياء. في آخر الليل دعوته إلى النوم عندي في الغرفة بدلاً من أن يذهب إلى منزله البعيد، خاصةً وأنّ العريس سيبيت مع عروسه في الطابق الأول من بيت كيكي. لم أتذكّر أن الملكة كانت قد سبقتني إلى المكان نفسه إلاّ بعد أن اعتذر.

"هم اعتقدوا أنّني جئت إلى العرس فقط حين رأوني" قالت عفورة وهي تضحك بعد أن خلعت برقع الملكة. "ظننت أنّ إليزابيث الثانية رغبت في تشريف غرفتي بزيارتها" قلتُ. واصلت الضحك، لكنّها سرعان ما استعادت جدّيتها لتخبرني أنّها عادت من البحر بعد أن حاولت الهرب مع محمد الإسماعيلي. "استأجرنا قارباً لنهرب إلى مصوّع أو عصب. لكن شرطة السواحل تابعونا وألقوا القبض علينا. قلنا لهم إنّنا سنقوم بجولة في البحر، فلم يصدقونا. أعادونا وأخذوا الحبيب إلى أبيه مُفضّل الإسماعيلي. تعرفه؟ أكيد كان قد أبلغهم بأنّنا سنهرب".

لم تهدأ عفورة ونزلت تتنصت على عبده حجازي وزوجته تسنيم في البيت المجاور. لا أعرف ما الذي يدفعها إلى التجسس على زوجها السابق وأخت عشيقها. تصرّف كهذا سيكشف لعائلة كيكي قناعها وقد لن يكون بإمكانها التخفي عنهم مجدّداً.

بقيت قلقاً من تصرّفها إلى ان عادت بخفة وحذر كي لا يلحظ، أو يسمع، حركتها أحد. لكن ما إن دلفت إلى الغرفة وصارت بجواري حتى راحت تقهقه بشكل هستيري. وفي الأخير لم تجد من طريق سوى محاولة إغوائي. تمنّعتُ. "ما بك؟ اعمل بمقابل. ادفع لي مبلغاً" قالت. "هذا يعني أنّني سأتعامل معك كسلعة، لها قيمة مالية" قلتُ لها.

مكتبة الفكر الجديد

لا أنكر أنّ هناك ما جذبني إليها، إلاّ أنّ طرحها موضوع المال نفّرني منها وربّما أطفأ رغبتي. "المال يذيب الخجل" قالت. حاولتْ أن تحوّل الموضوع إلى ضحكة: "أنا قصدي أطلب الله أنا وأنت ونجيب ناس إلى هنا". "قوّاد يعني، مثل محلاّت السيسبان. كيف ستكون طلبة لله؟" قلتُ. استغربتْ من أنّني قد سمعت بالسيسبان، موضحةً أنّ الكثير من البيوت والحارات صارت تقوم بالعمل نفسه وتبيع المتعة، أمّا السيسبان فيرتاده الفقراء وحدهم. "الله ليس له دخل. طِلبة الله تعني العمل. افهم يا نصراني" قالت. "تمام يا يهوديّة" قلتُ. ضَحكتْ قبل أن تضيف أنّها قررت الذهاب إلى السيسبان لتعيش هناك بأي عُشّة تقبل بها. "لم يعد لي من مكان أو أناس يقبلون بي كما أنا" قالت، وقلبت جسدها لتنام على جنبها موجهةً ظهرها إليّ. لم تضف أي كلمة. في الصباح، فقط، قالت: "إلى السيسبان، وليس غيره" وجمعت ثيابها ومضت.

مكتبة الفكر الجديد

اختفاء الملكة

لم ينته الحلم مع عودة الملكة إلى قصرها في باكنغهام، بل بقي يراود محبّيها والمهتمّين بعلاقتها بعدن عبر أشكال متعددة. يوم الملكة وليلتها، بل وكلّ لحظاتها في عدن، كان الموضوع الوحيد لأحاديث مرتادي الكازينو، ولم تتغيّر تفاصيل الأحاديث إلاّ حين جاء من يقول بعد أيّام إنّ اليزابيث الثانية اختفت في عدن ولم تواصل رحلتها إلى المدن الأخرى، كما زعموا. "إلى هذا الحد لم يعد الحديث عن الأحلام مقبولاً" قال السمّار.

كانت تفاصيل الزيارة محفّزة ليبدأ شخص الحديث معك حولها، في الشارع، أو في الحي، أو يأتي إلى سكنك ليسألك عن معلومة سمعها، كأن يتأكد إذا كانت الملكة تعطّرت بعطر "يا مسهّرني" أو تبخّرت ببخور الملكة الذي صنعته حواء بمواصفات خاصة ليحمل اسمها، وهذا ما سألتني عنه السيدة لورا حين نادتني من باب شقتهم. ابنتها شيرين أرادت من جانبها أن تتأكد من أنّ الملكة سمعت أغنية العشق الفارسية عن مجنون شيرين.

الشيخ الصغير وشيرين صارا يعيشان في الطابق الأول الذي كان

مكتبة الفكر الجديد

عبارة عن مخزن لبضائع دكّان اليهودي. لا يُسمع لهما أي ضجيج. كان الشيخ الصغير يخرج لأداء الصلوات في مسجد ابن علوان، ومنها صلاة الصبح، دون أن يحسّ به أحد. لم يفرّط كيكي بالإيجار لصالح صهره، أو ابنته، واتفق مع السيدة فاطمة على دفع إيجار شهري لم يعلم به أحد غيرهما. بقيت أمّ الشيخ الصغير تعيش مع ابنها وزوجته، بعيداً عن زوجها الشيخ عبد الجبّار الذي يسكن في الشيخ عثمان. تردد أنّها بقيت لأنّها أعجبت بطبخ شيرين، وقيل إنّها أدمنت القات بعد أن اعتادت الجلوس مع الأختين لورا وجالا.

وكانت السيدة لورا قد بدت وكأنّها نقلت سكنها من الطابق الثاني إلى عند ابنتها، حيث تستطيع أن تتناول القات المُهرّب وتدخّن المداع بعيداً عن حساسية كيكي. ومع أنّ روائح التنباك كانت تملأ البيت وتصل إلى غرفتي، فإنّ كيكي لم يكن يجيء سوى في آخر الليل، إذ تكون الريح قد خفّفت من اكتظاظ الروائح، وحينها تُسمع جلبة تنبئ بأنّ لورا ستصعد إلى زوجها. بدت شيرين بكامل أناقتها وهي تسألني عن مصير إليزابيث الثانية. في اليوم التالي رأيتها وهي تكنس أمام الشقة بشعر منكوش. قالت لي: "صباح الخير"، ورددت عليها: "هكذا أنتِ أجمل". لا أدري كيف فلتت مني العبارة وأنا أنظر إليها. بدت مرتبكةً ولم تقل شيئاً. لم تعد شيرين هي نفسها تلك المندفعة إلى الحب. ربّما حصلت على مبتغاها عند الشيخ الصغير ولم تعد تفكر في أحد غيره.

كان البعض قد قال إنّ إليزابيث الثانية غادرت من مطار عدن، صباح اليوم التالي لزيارتها، متجهةً إلى محطّتها التالية، إلاّ أن كثيرين

مكتبة الفكر الجديد

من الذين رأوها مقبلةً من البحر، في اليخت الملكي سربرايس، لم يصدّقوا أنّها ستغادر من غير الطريق التي جاءت منها واعتبروا ما سمعوه مجرّد تضليل أو تشكيك لما قد صار بائناً، وهو أن الملكة اختفت في عدن.

موضوع اختفاء أو بقاء الملكة بقي، منذ أكثر من شهرين، حديث معظم من أقابلهم أو أسمعهم في الكازينو. قال ميجي: "المشكلة لو تكون الملكة قد اختطفت". فيما قال المعلّم، وبدا هذه المرّة في حال مزاح، إنّها أحبّت عدن فبقيت فيها متخفيةً وتركت بديلةً لها في لندن. "لكن، أين بقيت؟" سأله شنكر، وراح يضحك ويجيب هو نفسه عن سؤاله: "هي أحبّت شخصاً في عدن فهربت معه". "في هذه الحالة، العلم سيكون عند عفورة" قال ميجي وأشار إلى من ذكرها، وكانت لحظتها قد وصلت إلى الكازينو مع فرانسيسكو. ردّدت عفورة، ببساطة، ما يتداول أنّ الملكة اختفت في عدن، ولم تبخل بأن تزيد بالتفاصيل وكأنّ لديها الخبر اليقين. قالت إن إليزابيث الثانية سمعت الأغنية البدوية "اخطفني واهرب بي" وتأثرت بها؛ فلبست الشيذر والنقاب على غفلة من الأمير فيليب وتسللت من جواره وهو نائم لتخرج دون أن يعرف أحد من الحرس من هي. "أنا رأيتها في آخر الليل تمشي لوحدها. تتلفّت خائفةً من أهلها لكي لا يتبعونها" قالت عفورة دون أن تضحك، فيما ضحك كل من كان ينصت إليها. وبدا لي أنّ أحداً منهم لم يعد بحاجة ليسألها: "أين رأت الملكة؟" لأنّهم جميعاً صاروا يعرفون أنّ عفورة تبات في السيسبان.

باغتتني عفورة وجاءت فجأةً إلى الغرفة بعد فترة من الغياب.

مكتبة الفكر الجديد

عرفت منها أنّها حاولت أن تُقوّد على شيرين، تجمعها مع رجل طلب منها ذلك، إلاّ أنّها لم تنجح.

"أنت وسيم، سترضى بك تسنيم بنت الإسماعيلي" قالت. ابتسمتُ مستغرباً أن تقوم زوجة عبده حجازي بهذا الفعل. كنتُ قد تعرّفت إليها في عرس خسرو وفريال، وفي يوم الجمعة الماضي عزمني حجازي إلى الغداء في بيته. رأيت في سلوكها احتراماً لزوجها لم أره في غيرها، كما هو احترامها الذي أبدته لي، بل وللقطّة التي ظلّت تخاطبها بلطف وهي تقدّم لها الطعام. حين فارقنا عبده بضع لحظات، ربّما إلى الحمّام، قلتُ لها: "ألا تزالين تحلمين بالزواج من فرنسي؟"، ضحكت واكتسى وجهها خجلاً لم تعد قادرةً معه على أن تجب عن سؤالي.

"الحاجة يا أخي" قالت عفورة ردّاً على استغرابي. شعرتُ أنّ كلمة أخي صدرت منها نتيجةً لموقفي المتشدّد معها. "ولكن لماذا تسنيم محتاجة؟" قلتُ. "الحاجة مُش كلّها فلوس، ولجسدك عليك حقّ، كما قال مولانا الشيخ عبد الجبّار" ضحكتْ.

"وما عرّفك أنت بحاجتها، ما دامت لم تبح برغبتها؟" قلتُ.

"أنتَ نسيت أنّني كنتُ زوجة عبده حجازي" أوضحت. وراح حديثها بعيداً: "السيسبان تجمّع للنساء المحتاجات" قالت. "المحتاجات لكلّ شيء، ليس للمال، أو لبيع أجسادهن، أو للذة عابرة، فقط" أضافت، وبعد لحظة صمت عادت تقول: "هن يقمن بذلك، أحياناً، هكذا، مزاج".

مكتبة الفكر الجديد

أحلام خائنة

بدا لي أنّ حلم الملكة لم ينتهِ، رغم مرور السنوات. قال المعلّم إنّ نبيهة بنت الفيلسوف غيّرت اسم ابنتها بعد أن خوّنوها وخوّنوا أباها وزوجها حسن وأباه القالي. "الذين تزوّجوا أثناء زيارتها ونذروا أن يسمّوا بناتهم إليزابيث، تراجعوا وأسموهن مليكة. تصغيراً لاسم الملكة" أوضح. مع أنّ هذا لم يخفّف من غضبهم، لكن كان من الصعب التخلّي عن الاسم تماماً، إذ كان هذا يعني التخلّي عن ذكرى فرح جمعهم بمن أحبّوا.

صار المعلّم يقترب من السخرية أكثر في أحاديثه. لم أكن ألحظ هذا الملمح في سلوكه إلاّ ما ندر. "قالوا إنّ نبيهة خائنة لأنّها توحّمت بالزائرة، ولهذا أنجبت طفلة تشبه الملكة" ضحك "وإلا كانت، لو لم تسعى للوحم، أنجبت ولداً، رجلاً يعصر شواربه ويهتف لاستقلال وطنه حين ينزل من بطن أمّه ولا يبكي كالآخرين".

لم يعد هناك من يصمت في الكازينو منذ الأيام التي سبقت غياب المرأة الصامتة، ثم خبر الحصول عليها ميتة على الشاطئ، أسفل جبل صيرة. صخب الأغاني اليومية لم يؤدّ إلى تهدئة النقاش حول انضمام

مكتبة الفكر الجديد

عدن إلى الاتحاد الفيدرالي، اتحاد إمارات الجنوب العربي. السمّار اعتبر الاتحاد خيانةً ومؤامرة ضد الوحدة العربية، فيما قال له محمد، الذي يجيء عادةً مع المعلّم، بلهجةٍ ساخرة إنَّ الوحدة وهمٌ من أوهام العرب. وإذ شارك آخرون في النقاش، فقد تطوّر اختلافهم إلى عراك بالأيدي خرّب أكثر مواد وأدوات الكازينو، وكاد ألاّ يتوقف لولا تدخل المعلّم وسعيد.

كان سعيد قد أصبح زعيماً بارزاً في نقابات العمّال، وبدا أنّه لا يوجّه مع السمّار نقابة مصافي تكرير النفط، فقط، حيث صارا يعملان، بل وسائر نقابات العمال. ولهذا لم تمضِ فترة قليلة على اتساع نشاطهما، حتى أُعلن عن تشكيل حزب اتحاد الوطنيين، وهو تحالف يضم وطنيين وقوميين وشيوعيين، كما تردد؛ فأصبح من الممكن أن تتجاور أسماء عديدة إلى جانب الاسمين، كالوهطي وأبو النّهار. وهذا الأخير سرعان ما خرج من الاتحاد ليؤسس حزب الكفاح، ويترأس تحرير صحيفته.

أحاديث السمّار وأحمد الوهطي الليلية، في الكازينو، باتت كثيرة التأكيد على أنّهما لن يتهاونا مع كلّ ما له علاقة باستذكار حلم الملكة وتمجيد تحققه. وصارت عبارتهم الأكثر ترديداً: "سنقف، مع كلّ الوطنيين الشرفاء، ضد من يخون الوطن ولو بالأحلام. سنطرد كل العملاء الخونة". وكانا في أقوالهما هذه يكشفان عن انشقاق عميق أصاب شلّة السبعة، وصار من غير الممكن ترميمه.

مع هذا، لم يتجرأ أحد على مساءلة ماما التي نُسب إليها الحلم المُحقَّق. وبقي أبو النهار يقول: "لندعها تكون حكماً بيننا"، إلاّ أنَّ

مكتبة الفكر الجديد

أحداً لم يسمعه أو ينصت إلى ما قد تحكم به ماما. "حتى وإن حلمت، فإنّها قد حلمت بأن الملكة تحلم فقط. لم تقل ما الذي سيحدث بعده" قال ميجي. "وهل حلمها كان هو الخلاص المطلوب؟" قال الوهطي.

أنا، أيضاً، جئت كأنّني من حلم ماما. فهل أنا حلم خائن؟ ألم أخن ذاكرتي التي لم تعد فيها سوى فقاقيع تظهر فجأةً لتختفي في الوقت نفسه. فقاقيع لا تذكّرني سوى بخيانتي لأبي وأمّي، خيانتي لأحلامهما أن أكون... لا ادري. صحيح، ماذا كانا يريدانني أن اكون؟ ألم أخن آلبر وتوصياته الوطنية. ألم يكن آلبر نفسه يخون البِس الذي لا يتفق معه على إرسال الشباب إلى القادة العسكريين ليتحكّموا بهم؟ هل كان أبي يخون امّي أم أمّي تخون أبي؟ من المؤكّد أنّهما كانا يخونان نفسيهما ويقمعانهما كلّما رغبتا بالتمرّد، بمبرر الحفاظ على كيان العائلة. ألم تخنّي شانتال؟ من شانتال هذه؟ أي فقاقيع في الذاكرة تظهر هنا في الكتابة؟ ألسنا كلّنا أحلاماً خائنة، أو خونة نعيش في الأحلام التي لا نستطيع أن نقاومها؟

مكتبة الفكر الجديد

النفحة الرابعة

كريتر... كريتر

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة الفكر الجديد

أنتَ الذي لم تعد هو

تقول لنفسك إنَّك لم تعد الذي كانه هو. لم تعد فرانسوا أو ميشيل، ولا ميشيل الآخر، ميشيل جراهم، ميشيل العدني. لم تعد أنتَ ذلك الحلم أو الآخر الحلم. تحاول أن تقنع نفسك بأنّك لم تعد هو، لكنّك لا تستطيع أن تتخلّص من الاسم؟ وأي اسم من أسمائك تريد أن تنساه؟

هل أنت ميشيل؟ هل هو اسمك، أم أنّك استعرته ليتمرّد عليك، أو لتتمرّد على من كان هو اسمه؟

وإن كان ميشيل هو اسمك، فإنّك لم تعد ميشيل. لست هو نفسه، أو الآخر؛ بل انت آخر. آخر الآخر، الذي يسمع الناس ينادونه بهذا الاسم، فيما هو لا يعرف مَن كان وما يكون.

ألم تعد تشعر بأنّك عدني بعد أن اتخذت عدن صفة العربيّة؟ وصيَّرها معتنقو الصفة وطناً محدّد الملامح والوجهة؟ هل صارت عدن هكذا بالفعل؟ وأنت ماذا ستصير؛ هل ستبقى عدنياً؛ في الوقت نفسه الذي لن تستطيع فيه أن تكون عربياً؟ لسبب بسيط، وهو أنّك لست عربياً، ولن تستطيع أن تكون كذلك في يوم من الأيّام؟ فالعروبية

مكتبة الفكر الجديد

لا تشبه العدنية في حال من الأحوال؟ فالأولى لا يمكن اكتسابها أمّا الثانية فيكفي أن تشعر بأنّك عدني لتكون كذلك؟ ولكن، ألست تتحدث عن ماضٍ لا عن حاضرٍ مختلف؟ فأي عدَنيٍّ تتحدث عنه؟ ألم يتحوّل الكثيرون من أصدقائك العدنيين إلى مروجين لهذه الصفة العروبية؟ ألم تسمع القالي، بعد أن خرج من حزب العدنيين وأسس حزبه الجديد، حزب العروة، يقول لإذاعة عدن، وقد أصبح مسؤولاً كبيراً في الحكومة، إنَّ انفصال عدن عن اتحاد الجنوب العربي يعتبر كارثةً لأبناء عدن؟ وقد خلص، بعد تحليل مفصّل، إلى القول إنَّ عدن إذا لم تدخل في الاتحاد ستجعله يعتمد على نفسه في جميع الخدمات التي يحصل عليها من عدن. "سيعملون ميناءً لهم، وهذا ليس صعباً عليهم" قال.

أنت لا تستطيع أن تصدّق أنَّ من تسمعه يقول إنَّ انفصال عدن هو الجنون نفسه وإنَّ البقاء في الاتحاد والفناء في الانفصال، هو نفسه القالي، الذي دعا من قبل إلى الحكم الذاتي؟

كيف يمكن أن تتفهم قوله "إنَّ الوحدة بين مستعمرة عدن والاتحاد الفيدرالي سوف ترضي المطامح الطبيعية لوحدة أعظم بين الشعوب العربية في هذه المنطقة"؟

ألم يكن أبو الفضل قد سبقه بسنوات إلى القول نفسه؟ ما الذي يخيفك في الاتحاد أو الوحدة؟ ربّما، أنت تخشى أن تضيق عَدَنيّة عَدَن مع هذا الاتحاد. ولا تدري أنّ هذا الاتحاد قد يعزّز النهج العَدَني. لكن، متى كان لعدن من قبل نهج تمضي عليه؟ ألم تكن مقصداً لكلّ من ليس له منهج أو طريق؟

مكتبة الفكر الجديد

فيلسوف عدن ما زال على نهجه ذاته، حتى بعد أن خرج من حزب العدنيين، كالقالي، وأسس حزباً جديداً أسماه "العدنيون الأحرار"، إذْ بقي يكتب المقالات الداعية إلى استقلال عدن ابتداءً بالحكم الذاتي. لكنّه مع هذا لم يجد أي غضاضة في امتداح العروبة، باعتباره منتمياً إليها، كما هو المعلّم الذي لم يؤسّس حزباً آخر كرفيقيه في حزب العدنيين، وإذ ظل على علاقة حميمة مع الاثنين، فإنّه بدا وكأنّه العضو الوحيد الباقي في الحزب القديم. أنت لا تستطيع أن تكون مثلهما، لأنّك لست عربياً، كما صرت تعرف وتكرّر القول، لكنك مع هذا لست وحدك، فهناك من هو مثلك، أيضاً، لا يستطيع حمل الصفة الجديدة، ككيكي وسورابجي وعبده حجازي وخان وإيزانا وشنكر؟ هم يحملون، مثلك، صفة العدني، لكن ليس من المؤكّد لك، ولا لأي واحد عدني، أن يبقى حاملاً هذه الصفة، ويستمتع بمزاياها [أي مزايا لهذه الصفة أكثر من كونها البديل عن الوطن والمواطن والوطنيّة؟]، فالصفة المعتمدة في الحكومة الاتحادية الفيدرالية هي العروبة لا العدنية، وقد صار العدني، وليس كلّ عدني، هو العربي الذي يعيش في عدن، أمّا ما عداه فهو من الجاليات الوافدة إلى عدن.

هل صارت عدن غريبة عنك إلى هذا الحدّ؛ أم أنّك أنتَ من صرت غريباً عنها؟ كأنّك لم تتخذها يوماً بديلاً عن وطن. لقد اعتقدت أنّ كلّ وطن منفى، أمّا إذا تحوّل من لا يحمل صفة الوطن إلى وطن فإنّه يصير منفىً مضاعفاً، وطناً مضاعفاً، غربةً مضاعفة.

مكتبة الفكر الجديد

كومة أسئلة

بعد سنوات على انتشار قصّة حلم الملكة، ظنّ المعلّم أنّ من الصعب القول بأحلام جديدة. صار يؤكّد أن لا حلم سوى ما يعاش، وما يعاش كان في عينيه أكبر من حلم. لكنّ ماما، التي لم تؤكد أو تنفي حلمها بالملكة وهي تحلم، بدت واضحة التصريح بما حلمت به أخيراً، ولم تتراجع عن ترديده لكلّ من تقابله: "كان هناك طائر يطير، ترافقه سكّين بدون يد تمسك بها. كلّما هوت السكين في الفضاء التقطها الطائر لتواصل مرافقته. السكين تقوّت وانتصبت، وفي الأخير اغتاظت وبقيت تلتف حوله بسخط. رأيتها وقد انغرست، بعدها، في رقبة الطائر الذي بقي يطير والدم يتقطّر من جرحه. بقيتُ أتبعه. أتلقّف قطرات دمه في راحتي وأنا أركض. ثمّ رأيت نفسي كأنّني وصلت إلى حافة هاوية، ومنها تهاوى جسدي متتبعاً أثر الطائر الذي لم أعد أرى سوى جناحيه وهما يرتعشان ويهويان بريشهما في حال فزع، كحالي وقد صرت فوق بحرٍ من نار يثور بجمرات كالجبال، أفزعتني من النوم. وما زلت في حالِ فزَع".

"أوّل مرّة أرى ماما قلقة" قال المعلّم. أنا أيضاً، لم أسمع، من

مكتبة الفكر الجديد

قبل، مثل هذا القلق في كلماتها. لقد بدا ما روته كابوساً، لم يفارق هواجسي طول الوقت.

كان يمكن أن يفسّر تحقّق الكابوس بمقتل من تعتبرها أمّها، ماري الكبيرة، التي قيل إنّ رصاصات طائشة أصابتها فيما كانت تركب سيّارتها وهي في الطريق لزيارة أسرة بريطانية في خور مكسر. لكنّ ماما، إذ انزعجت لمقتلها وراحت تتذكّر سنوات عاشتها في رعايتها، فإنّها عادت بعد أيّام العزاء لتروي من جديد حلمها، أو كابوسها المخيف، فتيقنتُ أنّها لا ترى تحقق تفسيره بمقتل ماري الكبيرة التي صارت ترقد في مقبرة اليهود، كما أوصت وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. كما لا يمكن أن نجد تفسيره في ما حدث لابنتها. فماري الصغيرة التي لم أكمل لها دروس اللغة الفرنسية، وبقيتْ ترفض الزواج من أي أحد، جاءت سريعاً من بريطانيا لتزور قبر أمّها. راحت مساء يوم وصولها إلى المقبرة ولم تقل أي شيء، بما في ذلك الصلوات التي انتظر مرافقوها أن تتلوها. طلبتْ منهم أن يتركوها لحالها ومضت في طريق مختلف. ولم تمر سوى ساعات حتى أعلن المتنزهون في ساحل التواهي مشاهدتهم إيّاها وهي تسبح بعيدةً في البحر، حتى اختفت. أثار انتحارها بعد موت أمّها مباشرةً الكثير من الأسئلة حول حياتها والأسباب المحتملة لإنهاء عمرها بتلك الطريقة، لكن كلّ ما قيل لم يكن سوى تكهنات وظنون.

بقيتْ ماما تحضر ليالي العزاء في بيت جراهم ولم تعرف أنّ سعيد تزوّج وقتها بابنة أبو النهار عضو شلة الكازينو ورئيس حزب الكفاح. بدا لي أنّ معظم اليمنيين لم يشاركوا في حفل العرس، أو لم يدروا

مكتبة الفكر الجديد

به، لأنّهم كانوا مشغولين ليلتها بعراكٍ نشب بينهم وبين الصوماليين.

كنتُ أظن أنّ العروس الصومالية قد وحّدت الفئات المتناحرة من الصوماليين، إلاّ أنّ ظني خاب وسرعان ما نشبت الكثير من المشاجرات بينهم، كما نشبت بينهم وآخرين أيضاً، وأصبح إحصاء المشاجرات التي تحدث غير ممكن لكثرتها. ما حدث بين اليمنيين والصوماليين من عراك كان ملفتاً، ولم يعرف كثيرون الأسباب التي أدّت إليه، بمن فيهم بعض من الذين شاركوا فيه.

ليلتها لم يكن الناس قد ناموا، بمن فيهم الأطفال، إذ كانوا في الليلة السابقة لنهار الأحد الذي يستمتعون فيه عادةً بالراحة. لكن وقت الراحة هذه المرّة كان مختلفاً، فقد سهر الناس وناموا على أصوات معركةٍ طاحنة، بالعصيّ والحجارة. ليصحوا على رؤية بقع دم وخطوطٍ وقطرات سالت وتناثرت من رؤوس العشرات في ليلةٍ مظلمة لم يكن باستطاعتهم فيها أن يحدّدوا أهداف حجارتهم وضربات هراواتهم. وإذ كان الساهرون في الكازينو مازالوا يستغربون حجم آثار المعركة في الليلة السابقة، فإنّهم انتبهوا إلى بدور معركة أخرى كانت على وشك الحدوث أمامهم بين أحمد الوهطي ومقبل السمّار من جهة والمعلّم وصاحبه محمد من جهة أخرى، إثر نقاش حاد عن انشقاقات في عدد من الأحزاب، كلّ جهة تؤيد أطرافاً منشقة بعينها وتعتبرها القيادة الشرعية.

صار فرانسيسكو لا يجلس سوى في الزاوية التي كانت تنزوي فيها زوجته الصامتة. يحرصُ على أن يجلس على الكرسي نفسه وأمام الطاولة الصغيرة نفسها، إلاّ أنّه لم يحرص على وراثة صمت الراحلة.

مكتبة الفكر الجديد

وبقي ينتقي، في كلّ ليلة، أحد روّاد الكازينو ليأتي ويجلس أمامه؛ يشرب معه ويسمع هذيانه اللامحدود. لكن، إذ صاروا يضيقون من كلامه ويتهرّبون من الجلوس أمامه، فإنّه لم يعد يجد سوى عائشة لتنصت إليه. فحين تأتي بطلبه من الشراب، كان يبقيها واقفةً أمامه ولا يدعها تمضي حتى تسمع ما أمكنها سماعه من أحاديثه التي بدت، في الآونة الأخيرة، مليئةً بالأسئلة، بل بدا هو نفسه كومةً من الأسئلة؛ أسئلة لا يوجّهها إلى أحد ولا ينتظر إجابتها من أحد. وكلّ سؤال يقوله يولّد سؤالاً آخر، كالسؤالين اللذين بقيت عائشة مهووسةً بهما. تردّدهما، حتى وهي تعمل لوحدها، وكأنّها تردّد أغنية: ألم تتغيّر عدن؟ ومتى كانت عدن غير متغيّرة؟

مكتبة الفكر الجديد

ابن العمّة

رحت أنا وماما إلى هاي بعد أن تغيّب عن الكازينو لمدّة أسبوع، وخفنا أن يكون مريضاً. "اشتقت للغناء في الشارع" قال لنا حين وصلنا إليه في ميدان كريتر. "خفنا عليك" قالت ماما. اقترحتُ عليه أن أسعى عند سيما فون ليسجّل اسطوانةً لأعماله القديمة مع شمعة. ابتسم ففهمت أنّه موافق.

رأيت أنّ تسجيل هاي لأغانيه القديمة سيخلّصه من المشاكل المالية. فمقابل تسجيل الأغنية الواحدة سيكسب مئات الشلنات، بعد أن كان يحصل على القليل من الروبيات، أيّام العملة القديمة. أخبرني خان، قبل أسبوع، أنّه تقاضى الكثير من المال مقابل أسطوانته الأخيرة، لكنّه لم يفصح عن المبلغ. قال إنّ أجور التسجيل زادت لتشمل التخت المصاحب للفنان، من عازف كمان وضارب إيقاع وعازف على الرق أو الدف.

فاجأنا سعيد بمروره أمامنا في الشارع، ونحن نجلس بجوار هاي. ناديناه فجاء وسلّم علينا. هنأناه بالزواج وعاتبناه لأنّه لم يعزمنا. لم يتح لنا المتحلقون حول هاي فرصةً لنتحدّث. وعَدنا هاي بأنّه سيرجع

مكتبة الفكر الجديد

ليغني في الكازينو. أمسك العود وقال إنّه سيهديناأغنيةً عراقية، فبقينا لنسمعه:

هذا الحلو قاتلني يا عمّة
فدوه إشقد أحبّه وأريد أكلمه
وإنتِ اشلون عمتي
بيّا ما افتهمتِ
روحي كلها يمّه
يا عمّة يا عمّة
هو بالحسن باليني بلوى
أحلى من القمر وشوية أضوى
توّا بالعشق يا عمّة توّا
قلبي شلون أصبّره
نار العشق قبره
ما ينحمِل همّه
يا عمّة يا عمّة.

واضح أن لفتتي هاي الوحيدتين كانتا مصوبتين خطفاً إلى ماما وإلى من تدعوه ابن عمتها وحدهما، كأنّني غير موجود، أو أنه ليس معنياً بي. شعرتُ باغتياظ وأنا أراها مبتهجةً بالأغنية.

سعيد كان قد انشقّ عن حزبه، حزب اتحاد الوطنيين، في الفترة الماضية. وإذ صار في حزب الكفاح، الذي سبقه أحمد الوهطي في

مكتبة الفكر الجديد

الالتحاق به، فقد دعا إلى ماركسية يمنية تراعي الخصوصية المحلّية، مستبقاً بهذه الدعوة زواجه من ابنة رئيس الحزب. لكن، لماذا بقيت ماما مهتمةً به رغم زواجه؟

فكّرت بأن أختبر مشاعرها نحوي، وأعرف هل ما زالت على حالها. قلتُ لها إنّني حلمت بها، معيداً الحيلة القديمة نفسها، لكنّها لم تدعني أن أكمل وراحت تقترب مني وهي تضحك.

مكتبة الفكر الجديد

كاديش للذكرى

كانَ متوقَّعاً أنّ يوم عيد الأضحى سيكون هذه السنة مختلفاً عن كلّ الأعياد، بعد أن أُعلن في يوم الوقفة الكبرى عن وصول أغنية لشمعة: "سيتاح للجميع سماعها عقب صلاة الأضحى في ميدان كريتر"، وقد انتشر الإعلان في كل مدن وشوارع وحافات عدن.

وعلى الرغم من وضوح الإعلان فإنّ عشّاق الصوت الغائب لم يحتملوا الانتظار من بعد، وجاؤوا مبكرين إلى الميدان، قبل الموعد بساعات؛ وقد يكون ذاك الكهل النحيل الأسمر هو من أتى قبل الجميع، إذ ظل يدعو الله، بصوتٍ مسموع، أن يسامحه لأنّه لم يذهب لأداء صلاة العيد، ولبّى شوقه الجارف لسماع من كان لا يفرّط بأي حفلة لها. رأيتُ هناك عفورة بعد سنوات من الغياب. كان السيسبان قد صار المأوى والسلوى لها. حاولتُ أن أقترب منها لأكلّمها لكنّها ابتعدت وكأنّها لم تعرفني.

وصلتْ الأغنية وتلهف الناس لسماعها، وحين قال لهم منظم الحفل إنّ شمعة أرسلت رسالةً صوتية مع الأغنية إلى أهل عدن انتشوا وراحوا في صمت مترقب.

مكتبة الفكر الجديد

"آح يا عدن" بدأت رسالتها، ثم صمتت للحظة. بدت في صوتها مجروحةً ولم تقل ما جُرحها، هل هو من عدن أم عن عدن، أم أنَّ جرحها هو عدن؟ مع هذا بانت على وجوه بعض المتحلقين لسماع رسالتها آثار غصص وألم وكأنَّهم لامسوا هذا الجرح، وإن ظل معناه غير واضح: "يا أحبّتي وأهلي. أعيش في روش هاعَينْ، لكنَّ عقلي وروحي تركتهما عندكم في عدن. لو جاءت الآن طائرة وقالت لي: هيّا إلى عدن، لما تأخرت لحظة، وجئتُ إليكم بملابسي التي فوقي. ياسين عليك يا عدن. نقلنا عاداتنا كلّها معنا. نقلنا الغميقة والكوفية ومَصَر الرأس والمخمُق والزَنّة والقرقوش واليَلَق والكهْرَب والفضة والجَزْع والعَقِيق اليماني، آه منك يا العَقِيق اليماني. نقلنا الزُرْبِيان والصالونة والمَنْدي؛ السَمْرَة والمَدَاعة والقات والهَذْرَة. نقلنا عدن واليمن كلّها إلى روش هاعَينْ. نقلنا دكّان اليهودي"، وهنا اهتاج الحضور بصخبٍ صارخ، إذ ذكّرتهم بأشهر دكّان كان للكثيرين منهم معه ذكريات. "عم شمعون وبنت الذماري يسلّمان عليكم. ليّة تزوّجت وصارت مغنية مشهورة. أسمت ابنتها الأولى عَدَن. ياسين عليك يا عَدَن. يا عيني عليك يا عَدَن"؛ قالت عبارتها الأخيرة مع تنهدات هيّجت عواطف المستمعين. انفجر أحدهم بالبكاء وكاد الآخرون أن يتبعوه لولا مواصلة شمعة: "أمّا أنا فلم أتزوّج. أحبتي الأربعة كلّهم في عدن. أزواجي الأربعة، كما كنتم تقولون" وهنا ضحكت، لتختلط ضحكتها مع ضحكات المتحلّقين التي أنزلت الدموع من عيونهم بعد أن تركتها تنهداتها السابقة طارفة ومهيأة للسقوط. هكذا اختلط الحزن بالفرح، البكاء بالضحك.

هيّجت كلماتها الأخيرة الجميع فمضوا في هرج لم يستطيعوا

مكتبة الفكر الجديد

معه أن يسمعوا تحيّتها الأخيرة. وبدا أنّه من الصعب أن يتوقف لولا مبادرة عبده حجازي، الذي جاءت الرسالة والأغنية عبره، بإدارة الأسطوانة المرسلة في الفونوغراف، بحركة كانت كفيلة بتثبيت آذان وعيون وأفواه المتلهفين لسماع الصوت الذي ظل الأقرب طرباً إليهم سنوات طويلة رغم فراقه.

بدأت شمعة أغانيها بدعاء ترحّمت فيه على الموتى:

لأهلنا البعيدين في قبورهم كاديش
للمعذَّبين في محارق الدهر كاديش
للمفقودين والقتلى كاديش
لمن قُتلوا بسبب أوهامهم كاديش
ولمن لم يقتل واكتفى بالصمت والسلام حتى مات كاديش
لليهود ولكلّ المسلمين وأتباع المسيح كاديش
لكلّ الناس والأعراق والعقائد كاديش
لكلّ من تذكّر ومات، أو مات ولم يتذكّر، كاديش.

بعدها غنّت أغنية بتوزيع موسيقي جديد، يعرف العدنيون موضوعها وكلماتها المتعددة اللغات وبالذات العربية والعبرية والهندية:

هيلاجي صور منوثي
صور منوثي وحمدات
هيلاجي.

مكتبة الفكر الجديد

صور منوني
وحمدات هيلاجي

أتْشَا بهارات
شَلوْ طَيْحَة سَقِيْ.

ولم تنسَ ان تذكّرهم بالأغنية الشهيرة "أمّون يا بنت بازرعة وياحلوى قد قال لك الهندي اللقاء للحارة" وأغنية "حبيبي حِبّني وارحم لحالي".

وما كاد ينتهي الحفل حتى تجمّع الكثيرون حول العربة المتنقلة التي أحضر عبده حجازي عليها ألاف النسخ من أسطوانة شمعة. لقد اندفعوا لشراء كلّ النسخ، بمن فيهم الشباب الذين لم يكونوا قد تعرّفوا من قبل إلى صوت شمعة، وأولئك الذين لا يملكون فونوغراف ورغبوا أن يحتفظوا بشيء يذكّرهم بها.

مكتبة
الفكر
الجديد

سوق البُهْرَة

لم أهتم في البداية بخبر فتح محل لبيع البخور والعطور لحلاها في سوق البُهْرَة، فأمّها من أشهر بائعات البخور في السوق الذي صار يزدحم بمختلف أنواع البضائع التجميلية. لكنّ وليم قال لي بعد خمسة أشهر من افتتاحه إنّ حلاها تصرّ على أن أزور دكّانها. "الأم حواء اشترت سيّارة مستعملة من تاجر يوناني وصارت تعمل فيها كتاكسي" أخبرني، ثمّ أضاف: "يعجبها تثرثر وتسمع الثرثرة. عملها كسائقة تاكسي سيحقق لها هوايتها".

كانت موضات ملابس المركني والكرنمبلي والمزركش والشنن قد انتشرت، منذ سنوات، بشكل واسع في سوق البَز، ولدى البائعين المتجولين، كما انتشرت أحذية نسائية من جلود الثعابين. وفي سوق البُهْرَة تفنّن عبد النبي عبد الحسين وحواء وسوامي في صناعة البخور، وجلبت محلات غلام والملا من الهند الند والعود ومن باريس العطور.

فوجئت بازدحام كبير على دكّان حلاها. كانت هناك لوحة خشبية لامعة تعلو الباب، كُتب عليها اسم المحل "عطر البُهرة"

مكتبة الفكر الجديد

باللغات الإنجليزية والعربية والهندية ورابعة لم أعرفها، مع أنها مكتوبة بحروف لاتينية.

النساء المزاحمات في الباب كنّ يصحن على عامل يقف داخل المحل بجوار حلاها: "هَبْ لي ليلة ولا ألف ليلة"، "هَبْ لي عَذْبَني حُبُك"، "هَبْ لي واعِذْنِي"، "هَبْ لي لا تتأخر". انتبهتُ إلى أنّ أحدهم بقي يصيح على بعد مسافة من النساء: "هَبْ لي شمعة"، ولم يسمعه العامل أو حلاها. كان العامل يقوم بإعطاء كلّ واحدة مضرباً بدا لي أنّه عطر يحمل الاسم الذي طلبته. إحداهن تناولت كيساً ملفوفاً من العامل، وشمّته وهي تقول: "إش دا، إش دا. ما في أحلى من بخور اليهودي".

بقيتُ ألوّح دون أن ينتبها إلي، أو ربّما رآني العامل ولم يأبه ظانّاً أنّني واحد من المشترين الذين عليهم أن يزاحموا ليصلوا إلى ما يريدونه. وإذ كنتُ غفلت عن ملاحقة حلاها بعيني، انتبهتُ إلى صوتها وهي ترحّب بي وتطلب من النسوة أن يفسحن الطريق لأدخل إلى المحل، بعد أن أزاحت الحاجز الخشبي الذي كان يفصلها عنهن. أجلستني على كرسي وسكبت لي فنجان قهوة من قشر البن. "صار اسم شمعة عطراً في سوق البهرة" قلتُ لها. "ايوه. انا ركّبت عطراً يحمل اسمها. أحلى عطر" قالت. "عندي معمل لا اقول لأحد اين هو. ركّبت فيه أكثر من عشرين عطراً" اضافت، فيما كنتُ اقرأ اسماء عطور أخرى، كُتبت بخط عربي عادي: "عَرَقي"، "جَنّتي"، "ناري". رايت أيضاً اسم "الملكة". "هذا بخور الملكة. ارسلتُ منه هديّة للملكة إليزابيث الثانية وأنتظر ردّها. انا واثقة أنّه سيجنّن بها"

مكتبة الفكر الجديد

قالت. "لا نريدها أن تجنّ" قلتُ ضاحكاً. "أقصد أنّها ستعجب به كثيراً" أوضحتْ لتضيف: "طبخته على نار هادئة من عود الصندل المطحون، المخلوط بالمسك والعنبر والعفص والظفر والقرنفل والزباد وحبوب هيل وماء عطري". أشارت إلى رفوف رتِّبت فيها أنواعاً من العطور والبخور في زجاجات وعُلب صغيرة: "بمقاييس مختلفة، صنعتُ أربعة أنواع من البخور العدني: بندر عدن ودكان اليهودي، لتذكير العشّاق ببخوره، وحلم الملكة وكريتر". رأيتُ الأسماء مختصرةً في الكتابة: البندر، اليهودي، الملكة، والرابع بقي كما هو. "الناس اختصروا الأسماء. وأصبحنا نكتبها، هكذا، بسرعة" قالت وأضافت ضاحكةً: "كريتر، آخر بخور عملته. يناسب أصحاب الأمزجة المتقلّبة. يزيدهم فوران، كالبركان".

ما الذي يدفع حلاها إلى هذا التأجيج، وقد صرتُ أرى عدن، كلّ يوم، كأنّها على فوهة بركان قادم، إذ لم يعد يعلو أي صوت سوى صوت الكفاح، الكفاح ضد الاستعمار بكل الأشكال: مظاهرات، إضرابات، دعوات للكفاح المسلّح من أحزاب وجمعيات وخطباء، ومنشورات تهدد قوّات الاستعمار، وصحف تعلن، في مانشيتات، أنْ لا خيار سوى الكفاح. وتنقل عن القالي تصريحه: نرفض المفاوضات وسنمضي نحو الكفاح.

مكتبة الفكر الجديد

محاكمة عطر

أشعل أمين المحامي قطعة البخور في المبخرة التي جاء بها معه إلى قاعة المحكمة، وقال: "ها هو البخور أمامكم. شمّه يا سيادة القاضي، إذا كان له الأثر نفسه الذي أحسستم به". إلاّ أنّ القاضي صرخ: "أطفئ الجمر"، وأمر باحتجازه بدعوى تشويش مجرى العدالة.

كان سوامي قد رفع دعوى ضد حلاها، يتّهمها فيها بسرقة العلامة التجارية "حلم الملكة" منه، مذكّراً أنّه استخدم العلامة، المسجلة في الإدارة التجارية، منذ زيارة إليزابيث الثانية، إذ أطلقه حينها على زجاجة عطر كتحيّة لقدوم الملكة.

جاءت حلاها لتدافع عن نفسها، لكن القاضي لم يتح لها الفرصة وصرخ فور جلوسه على الكرسي: "ما هذا العطر الذي يفوح منك. هذا عطر قوي. يشوّش مجرى العدالة. خذوها. احتجزوها أربعاً وعشرين ساعة".

أراد المحامي أن يبرهن للقاضي أنّ ما كان يفوح من حلاها، في اليوم السابق، بخور وليس عطراً، وأنّ هناك فرقاً بينهما، كما هناك

مكتبة الفكر الجديد

فرق بين عطر سوامي وبخور حلاها، مع أنّ الاثنين يحملان اسم حلم الملكة. لكن القاضي أدخله الحجز هو الأخر لمدة أربع وعشرين ساعة بالتهمة نفسها.

هكذا صار على حلاها ومحاميها أن يأتيا إلى المحكمة بدون رائحة عطرة، أو اي رائحة أخرى.

بقي حلم الطائر يحوم في الأجواء، ويتردّد مع أحاديث ماما، إلاّ أنّ كثيرين تغافلوا عنه وراحوا يستعيدون الحديث عن حلم الملكة الذي يتنازعون حوله في المحكمة بعد تشكّله على هيئة عطر وبخور.

اعتبر أحمد الوهطي المحاكمة إلهاءً عن القضية الوطنية، فيما قال ميجي إنّها عقاب متأخر لحلاها، لكونها صومالية تزوّجت من بريطاني. انتبه فرانسيسكو إلى حديثهما بعد أن ارتشف قُطر كاسه الأخير: "ليس عقاباً لحلاها. المحاكمة والعقاب للعطر. سيصدر القاضي حكماً عادلاً بإعدام العطر. إذا تعطّرنا سيعدم رائحته. سيحكم بإطلاق النار على الروائح في أجسادنا. على الروائح فقط. في صحّة القاضي العادل"؛ ورفع الكأس من زاويته بيد مرتعشة. وليم الذي جاء ليلتها إلى الكازينو مبكراً، على غير عادته، نبّههم إلى أنّ القاضي العجوز ذا المرجعية البريطانية، الذي لم يتم تغييره، كزملائه الأقدمين، لم ينزل في يوم من الأيّام إلى سوق البهرة "لهذا لم يفرّق بين العطر والبخور".

بقي المحامي يؤكّد أن لا صحّة للدعوى من الأصل وأنّ أم حلاها كانت هي الأخرى قد ركّبت معمولاً أسمته بخور الملكة إلاّ أنها لم تسجّله، كما فعل سوامي بعطره: "يمكن للمحكمة أن تطلب شهادة

مكتبة الفكر الجديد

الملكة إليزابيث الثانية التي أهدتها حواء من هذا البخور أثناء زيارتها عدن".

كانت النقاشات خارج المحكمة أكثر جدّيةً وصخباً من المداولات داخلها، وبقيتْ عدة أسابيع على هذه الحال، حتى بعد أن صدر الحكم القاضي بتعويض سوامي بمبلغ خمسة آلاف شلن، تكفّل مناصرو حلاها بالتبرع به خلال يوم وليلة.

"العطر منشقّ عن البخور، والعكس صحيح" قال أبو النهار. "لكن انشقاق الأحزاب والجمعيات هو الأكثر خطورةً. على الجميع أن ينتبهوا ويتوحّدوا ضد سلطات الاستعمار" أضاف. "قُلْ لصِهرِك الذي انشق" ردّ عليه المعلّم. "الانقسامات إلهاء ومؤامرة" قال أبو النهار.

كان سعيد آخر المنشقين، في سلسلة الانشقاقات عن الأحزاب والجمعيات. فبعد أن أمضى ثمانية أشهر في حزب الكفاح، الذي التحق به إثر انشقاقه عن حزب اتحاد الوطنيين، لم يتراجع عن إعلان خروجه من الحزب الذي يترأسه أبو زوجته، وقد وجد نفسه مع أحمد الوهطي وهما يعلنان التحاقهما معاً بجبهة الوطن، الأكثر حضوراً في مانشيتات أخبار الكفاح المسلّح ضد الاستعمار، بدون أن يصرّحا بأي أقوال ضد حزب رفيقهما الشيوعي.

"اتحاد الوطنيين خسر كل قيادته التاريخية، لم يعد فيه سوى مجموعة قليلة. السمّار والوهطي وسعيد أصبحوا معنا في جبهة الوطن. وهناك آخرون انشقّوا عنه وأسّسوا مع مجموعة جبهة الحرّية" قال حارسنا في الكازينو.

مكتبة الفكر الجديد

كان عبد الله كالإسفنجة يمتصّ ماء الأخبار الواصلة إلى الكازينو ساعة تدفقها. تحدّث عن معارك مسلّحة تدور بين فصيلين ثوريين في الشيخ عثمان وأمكنة أخرى ولم يذكر اسمي الفصيلين وكأنها معارك سرّية أو غير لائقة بالمتقاتلين، ولهذا أسرع شنكر، الذي التزم الصمت أثناء النزاع بين أبيه سوامي وحلاها، في الحديث وكأنّه يكشف عن هذا الغموض: "المعارك تدور بين حزب تحيّة كاريوكا وحزب نعيمة عاكف. كلّ واحد منهما يرى نفسه الممثل الشرعي والوحيد للشعب، والمؤهل لقيادة الوطن بعد نيل استقلاله المؤكد".

"وأنتم ما موقفكم؟".

"نحن في حزب سامية جمال ندعو إلى إيقاف نزيف الدم بين الأخوة الأعداء وإلى ممارسة الاعتدال في نهجيهما والالتزام بالوسط، فلا أحلى من الوسط" قال ضاحكاً.

مكتبة الفكر الجديد

جزّة سكّين

كان المشهد مهولاً عند كل من هرع إلى أمام مقهى زكو ليرى العارف وقبوة في حال لم يرهما فيه من قبل. فبائعة الفُل والكاذي، الأنيقة المظهر، بدت عاريةً هذه المرّة وبلا ملابس، كرفيقها الصوفي. وسوى قطعة القماش المقطّعة التي يبدو أنّ هناك من أخذها من القمامة ووضعها فوق عضويهما الجنسيين، فإنّ طعنات السكاكين وجزّاتها كانت هي الظاهرة في كلّ أجزاء الجسمين المقطّعة والملطّخة ببقايا دم يبدو أنّه انسكب في مكانٍ آخر.

لقد ذُبح العارف مع قبوة ووجدوا رأسيهما مرميين إلى جوار جسديهما في ميدان كريتر، مع ظهور أوّل ضوء من نهار يوم ربيعي حار.

بدت ماما مفزوعةً ولم تقل شيئاً، فيما كان أبو الفضل الذي وصل قبلي يحاول أن يهدّئ من روع زهرة. "انشغلوا في محاكمة العطر، ولم يدروا أنّه سيتم ذبح العطر نفسه، مصدر العطر" قال المعلّم.

رجال من الشرطة أحاطوا بالمكان وقاموا بإبعاد المتفرّجين، إلاّ أنّهم لم يجرؤوا على الاقتراب من زهرة، حيث كانت تعصر شعر

مكتبة الفكر الجديد

رأسها بيديها وتصرّخ مذكّرةً بأنَّ قبوة هي زوجة العارف، الذي عاند ولم يعترف لهم. وفي اللحظة التي وصل فيها رجال شرطة آخرون بسيارة خاصة ليلمّوا الأشلاء، كان أبو الفضل يسحب زهرة إلى فوق سيّارته بمساعدتي.

مضيتُ مع أبي الفضل وماما إلى بيت زهرة، ولم تمرّ سوى ساعات حتى جاء من يخبرنا أنَّ أهل العارف في لحج طلبوا إرسال جثته ليقبروه هناك. وافقت الشرطة بسرعة، مع أنّها لم تكمل تحقيقاتها، ولم تنجح في القبض على من أحرقوا في ساحة كريتر كتاب العارف المخفي، التجلّي، بعد ساعة من لَمّ أشلاء كاتبه في المكان نفسه.

كان هناك من يسعى لتمييز أشلاء قبوة، ليرسلوا لحم وعظام ورأس العارف، وحدها، إلى لحج. إلاّ أنَّ ماما اقترحت أن يضمهما قبرٌ واحد، وهو ما رآه أبو الفضل بحجة أنّ بعض الأشلاء صارت مقطّعة بشكل لم يعد بإمكان أحد أن ينسبها إلى واحدٍ منهما. مع هذا لم يتحقق المقترح وأصر القادمون من لحج أن يأخذوا أشلاء العارف وحدها، مهما تناقص منها يد أو أصبع، او زادت بقطعة لحم من قبوة.

هكذا، كان علينا أن نذهب مع أشلاء العارف إلى لحج لندفنها هناك، ثمّ نعود في الليلة نفسها وندفن قبوة في عدن، بعد أن طلب أبو الفضل من أسرتها تأجيل دفنها حتى نعود.

كانت الطريق إلى لحج غير الطريق، ولحج غير لحج. كيف لها أن تبقى على حالها وقد فقدنا العارف؟ قال لي أبو الفضل إنّه ينوي السفر إلى تعز ومنها سيغادر إلى القاهرة. "قد لا نلتقي مرّة أخرى"

مكتبة الفكر الجديد

أضاف وهو يحدّثني عن عائلته التي هاجر معظم أفرادها إلى الخارج، دون أن يكشف عن وجهتهم.

شارك كثيرون في تشييع قبوة، كما قاموا بمرافقة أشلاء العارف من عدن إلى لحج. وشعر أولئك الذين اكتفوا بتشييع واحد منهما، في لحج أو عدن، أنّهم قد شيعوهما معاً، إذ تداخلت أشلاؤهما في كتلة واحدة، راح نصفها إلى لحج ونصفها الآخر نُزّل إلى تراب عدن.

عزّى الجميع بعضهم بعضاً، بفقدان العارف. بدا لي أنّ عدن كلّها قد فجعت بمقتله، مع قبوة التي صار من المؤكد للجميع أنّها كانت زوجته وعشيقته، وليست عشيقته فقط، كما ظنّ القتلة.

لم أرَ الناس يظهرون حزنهم على أحد من قبل بهذا الشكل، سوى حين وصلهم، قبل ما يزيد على خمسة عشر عاماً، نبأ وفاة أنتونين بس في لندن. يومها تذكّر العدنيون ذلك الشاب القادم من كاركاسون في جنوبي فرنسا، قبل اثنتين وخمسين سنة، إلى عدن والذي أجاد اللغة العربية وتاجر بالبن مع Bardey—co ثم أسّس شركته الخاصة التي تشعّبت من عدن إلى الحديدة والمخا وجيبوتي والصومال وأثيوبيا ووصل صيت طائراته مع رائحة بخور عدن والبُن اليمني إلى لندن ونيويورك وبومباي وكوبنهاجن وبروكسل والصين، وإلى كل الموانئ التي أوصل إليها الجلود والأنسجة. تذكّروا سيّاراته الأجرة التي نظّمت خطوط السير ومواعيدها في شوارع عدن لأوّل مرّة، وكيف كانوا قد عرفوا معه وعبره، في وقت مبكر، سيّارات فورد ورويال وشيفروليه وماكسويل وفولفو وصولاً إلى أوبل كابتن.

وهكذا لم يكن أمامهم من طريقة ليعبّروا بها عن الفقد سوى أن يغلقوا

مكتبة الفكر الجديد

دكاكينهم ومكاتبهم ويتوقفوا بعض الوقت عن صخب التجارة التي كان بِس عدن، كما يسمونه، أبرز صوت فيها، ويذهبوا إلى كنائسهم الكاثوليكية والبروتستانتية وإلى مساجدهم الإسلامية ومعابدهم اليهودية والهندوسية والزرادشتية، ليُصلّوا على روح العدني الذي لم يفارق بحر عدن وجبلها منذ أن خطا خطوته الأولى فيها.

مكتبة الفكر الجديد

قتل طائش

مع كلّ حدث مهول أقول لماما: "هذا تأويل لحلمك"، لكنّها لا تجيب وبدأت أتساءل إذا كان لديها تأويل آخر أكثر إيلاماً.

لم أفهم مقصد سعيد حين ظلّ يردد رفضه التضييق والتخلّص ممّن أسماهم "الوطنيين من رأس مال وصحافة ورجال فكر وقادة سياسيين". قال إنّ هناك تهوراً ثورياً يمارَس دون وعي. مع هذا استعدت في ذهني ما قاله، وأنا أتلقى أخبار فجيعةٍ أخرى: "قصف منزل القالي بالمدفعية، وقتل أربعة من عائلته، كانوا مجتمعين في الصالة: ابنته نجلاء وولده حسن وزوجة ابنه نبيهة، ابنة الفيلسوف، وحفيدته مليكة". لم تقل الأخبار من قام بتنفيذ العملية أو من وراءها، لكن الكثيرين استعادوا حال التجاذبات الأخيرة بين زعماء حزبي العروة والأحرار العدنيون من جهة والثوريون الصاعدون من جهة أخرى.

صارت المواجهات المسلحة بين الثوريين وقوات الاستعمار في كلّ مكان، تتبعها تفجيرات واعتقالات، أصبح معها الطلاب يذهبون للدراسة في سيارات مصفّحة، والموظفون يبقون في بيوتهم خائفين

مكتبة الفكر الجديد

من اي أعمال مفخخة. وهكذا لم تمر سوى ساعات قليلة من قصف بيت القالي حتى أخبرني عبد الله، حارس الكازينو، عن مقتل وليم. قال إنّه قتل أحد العرب بطريق الغلط، ودون قصد، فقتلوه في كمين. لم تصدّق حلاها ما قيل كما لم يصدّق ميجي وفرانسيسكو والمعلّم. كانوا مثلي لا يتوقعون أن يروا وليم، ضابط الأمن الداخلي، الذي كانت تقلقه أعمال القتل، يطلق رصاصةً في اتجاه أي شخص.

شعرتُ بغصّة وأنا أتذكّر السنوات والأيّام الطويلة التي جمعتني مع وليم، فانهرت باكياً حين رأيت حلاها تصرّخ مفجوعةً وهي منكوشة الراس. تذكّرت، أيضاً، تلك الجلسات التي جمعتني مع المقتولين من عائلتي القالي والفيلسوف، ولم أستطع أن أواسي الأبوين بأي كلام. فقط مددت يدي لمصافحتهما، حين رحت لأعزيهما.

مكتبة الفكر الجديد

حتى النصر

"سأذهب للسلام على أبي جراهم، قبل أن يسافر" قالت ماما. بعد أن ظلّت لفترة تجلس، ويدها على خدّها، تنظر إلى باب الكازينو. بقيت تأتي إلى العمل مبكرة في النهار، وتذهب مبكرةً في الليل فيما كنتُ آتي متأخراً وأعود متأخراً، وقد أربكتنا الأحداث وصارت عاداتنا غير ما هي عليه. حتى عيشة ونجيب لم يعودا يأبهان لمواعيدهما. "سأجيء إليك في الغرفة بعد أن أرجع. عُد مبكراً إليها. أريد أكلّمك" قالت وطلبت من ميجي أن يأخذها بسيارتي المهداة من شمعة إلى بيت جراهم.

لم أكن قد رأيت احتفالات مبهجة كتلك التي رأيتها في شوارع عدن. كان الكثيرون يغنون ويرقصون احتفاءً بمغادرة آخر جندي بريطاني. ولم تتردد ماما في دعوتي لمشاركتهم الفرح. ألستُ عدنياً؟ ألم أزل أحمل هذه الصفة، مثل كلّ العدنيين؟ ما الذي يميّز الآخرين، الذين غلّبوا صفة العروبة والعربي على صفة العدنية والعدني، عني؟ ألستُ أقدم، في عدنيتي، من الكثيرين؟ صفة العروبة نتاج للثورة والاستقلال، فهل ستلغي كلّ ما سبقها؟ هل كانوا سيقاومون

مكتبة الفكر الجديد

الاستعمار ويطردون أعوانه لو كان أعطاهم الحق بأن يكونوا عدنيين؟ ألم يكونوا كذلك؟ وإذ لم يكونوا كذلك فإنّهم قد غيّروا صفة عدن تماماً، أو اعتبروها جزءاً من صفات أخرى كبيرة، بدت لهم بمثابة الوطن. كانت عدن بالنسبة إلي هي الصفة الأقرب؛ صحيح أنّني لم أرها وطناً كما يرونها هم، لكنني رأيتها أكبر وأهم من وطن، لسبب بسيط، وهو أنّ عدن، كما قلتُ أكثر من مرّة، كانت لا وطن، أو أنّها كانت البديل عن الوطن.

جراهم كان قد مال كثيراً إلى اللهو، إذ تردّد أنّ العَلَقة صارت تذهب إليه مع فتيات تختارهن له. أراد أن يمضي سنوات تقاعده من العمل في الجيش البريطاني في عدن التي عاش فيها معظم سنوات حياته، إلاّ أنّه قرّر، أخيراً، المغادرة بعد أن صار واضحاً لديه، كما لدى كلّ البريطانيين، أنّه غير مرغوب فيه. ألم أسمع سعيد وهو يخطب في ميدان كريتر معلناً: عدن عربيّة وستبقى عربيّة. قال إنّ الثوّار في شمال اليمن "أطاحوا قبل سنوات بالنظام الإمامي الكهنوتي الرجعي، وها هو جنوب اليمن، وعلى طريق الوحدة اليمنية، يتحرّر من الاستعمار، كما تحرّر الفلاّحون من استغلال السلاطين والمشايخ". وإذ أضاف بصوتٍ جهوري: "ها نحن نحقق الثورة، ثورة الجياع الفقراء، ثورة العراة المساكين" راح المتحلّقون حوله يصفّقون بحرارة، فيما زغردت النسوة الحاضرات. ووسط هذا الحماس شرح كيف كان القادمون من وراء البحار، الرأسماليون الاستعماريون، يتحكمون بإرادة الوطن والشعب، ويمتصون عَرَق العمّال والكادحين. "وها هو الشعب، شعبنا العظيم، هو من يحكمنا ويقرّر مصيرنا. لقد طردنا

مكتبة الفكر الجديد

المستعمرين وإلى الأبد" أضاف ، ليردّد مع هتافات المتجمعين: "وسنمضي في الثورة حتى النصر".

لم يكن هناك من أخبار ترد إلى الكازينو، أو يتناقلها الساهرون، سوى مغادرة كبار المسؤولين والضباط البريطانيين وعائلاتهم عدن. صدّيق الضابط والرياضي الهندي لم يغادر، وبقي مع زوجته زهرة ولكن بدون عمل. وكان وليم، صديقي الضابط، قد غادر، من قَبلهم، ولكن عن الحياة بشكل عام. لم يتردّد في أي يوم عن إعلان رفضه ممارسة القتل، أو قمع المظاهرات حتى من زملائه المنفذين لتوجيهات سلطة الاستعمار، مثل روبرت الذي لا أدري كيف نجا من القتل مع أنَّ الثوّار أعلنوه هدفاً لهم.

حلاها، لم يعد لها سوى الذكرى، تستعيد حياتها مع من تجاوز التقاليد وتزوّجها، لكنّها لا تستطيع أن تحوّل هذه الذكرى إلى شيء ملموس وله رائحة، كما كانت تفعل من قبل. لا تستطيع أن تركّب عطراً جديداً يحمل اسمه. فاسم وليم لا يلبّي المرحلة الثورية، مثله مثل أسماء البخور والعطور التي كانوا قد طلبوا منها تغييرها إلى أسماء ثورية؛ لم يتردّدوا في كتابتها على ورقة وإعطائها إياها: الشعلة، الاستقلال، الحرّية، الثورة، النضال. لم تجد حلاها أي مبرّر لتغيير الأسماء مع بقاء التركيبات القديمة نفسها. حين ذهبتُ إليها لأشجّعها على إبقاء دكّانها مفتوحاً بقيتْ تتساءل عن أي نضال يمكن أن تحققه لهؤلاء الثوريين في العطر، إلاّ إذا كان النضال الذي يجمع الحبيبين فوق الفِراش، وهو ما عُمل العطر من أجله.

"للأسف أبي جراهم سافر دون أن أسلّم عليه" قالت ماما حين

مكتبة الفكر الجديد

وجدتها تنتظرني أمام باب الغرفة. "سمعتُ من أبي فارح أنّه سيتأخر قليلاً، لكنّه سافر فجأةً" أضافت.

"رآوني بين أعشاب خضراء، نبتت بالقرب من صخور تمتد إلى قلعة صيرة وساحلها. كنتُ لا أزال رضيعة، لكنّهم قالوا إنّني بدوتُ متعافية، ولم أكن أبكي حين التفتوا إلى تأتأتي وحركة يدي الطريتين. لا أدري مَن وجدني أوّل مرّة". لم أستوعب ما تقوله ماما وبدت لي وكأنّها تهذي، حتى قالت: "هناك من أخبر أبي جراهم وأمّي ماري أنّ هناك طفلة وجدوها على الشاطئ. أمرا أبي فارح بالبحث عن العائلة التي عثرت علي وشرائي منها". أدركتُ أنّها القصة التي وعدتني ماما بها منذ اليوم الذي رأيتها فيه أوّل مرّة: "ابنهما ديفيد كان يطالبهما بشراء بنت صغيرة ليلعب معها، أو ليلعب بها بالأصح، ولا تكون ممنوعة عليه كماري الصغيرة، كما أخبرني أبي فارح. ظنّ أنّ الأطفال يشترونهم من محلاّت خاصّة، وهذا ما كان". بقيتُ منتبهاً لما تقوله: "عشتُ سنوات كثيرة معهم. تعلّمت الإنجليزية من أحاديثي مع ديفيد وماري الصغيرة وأبي جراهم، والعبرية من أحاديث أمي ماري. في أغلب الأحيان لم تكن تتكلّم سوى العبرية. كانت مخلصة لأصولها اليهودية أكثر من أي شيء آخر. تعلّمتُ، أيضاً، القليل من اللغة الكجراتية، من خلال المدرّس الذي كان يأتي ليعطي دروساً لماري الصغيرة في الرياضيات التي لم تكن تفهمها". توقفت، ثمّ راحت في صمت بدت معه أنّها تحاول أن تختار ما يمكن أن تقوله لي من ذكرياتها: "كنتُ في العاشرة حين رآني ديفيد أتحدّث مع سعيد فطردوني. رحتُ أعيش مع أبي فارح وأمّي حواء،

مكتبة الفكر الجديد

ومنهما تعلّمت اللغة الصومالية. كما علّمني سعيد العربية. كنتُ أذهب مع امّي حواء لأساعدها في تنظيف فندق كريسنت، ثم فندق مارينا في التواهي. أمشي معها يومياً إلى هناك لكي نستفيد من أجرة التاكسي أو جاري خيل. قابلتُ في الفندقين ما لا يحصى من النّاس. من الدنيا كلّها. شدّتني لغاتهم وأصواتهم وبقيت أردّدها وأحفظها. وفي مرّة حييت تاجراً صينياً باللغة الصينية ففرح وطلب مني مرافقته إلى المدينة، ومن ذلك اليوم صرتُ أرافق كلّ من يأتي إلى عدن. أعني الكثير منهم".

بدت حائرةً بما ستضيفه، لكنّها استعادت توازنها وقالت بنبرةٍ مبهجة: "قال لي أبي فارح إنّ العائلة التي أخذني من عندها قالت له إنّني رجعتُ ببركة ولي الله العيدروس بعد أن خطفوني الجِبرْت" وإذ أوضحت أنّ هناك من يعتقد أنّ الجبرْت، السود، يقومون بخطف الأطفال في شهر صفر من كلّ عام، فإنّها أضافت: "حين لقوني كنتُ أردّد: ماما... ماما... فاسموني ماما. هكذا، لا أعرف من أين جئت، أو مَن اكون".

مكتبة الفكر الجديد

الأعداء

"أبلغوا الفيلسوف أنه غير مرغوب فيه، وأنّ عليه مغادرة عدن" قال المعلّم قبل أن يرتشف قهوته في الكازينو. "معقول؟" قلتُ. "القالي أبلغوه قبله، لكنّهم منعوه من المغادرة ومن بيع أملاكه" أضاف. "ماذا يعني هذا. لقد تحقق الاستقلال؟" قلتُ. "يعني أنّهم سيمضون في تأميم كلّ شيء. بعد أن أمّموا الأحزاب والجمعيات وأسكتوا الصحف، سيؤممون البيوت التجارية والممتلكات ويسكتون الناس" قال.

"كلّ النّاس؟".

"نعم، كلّ الناس" قال، وراح يوضح بأنّه لن يكون هناك سوى حزب واحد، هو حزب جبهة الوطن، وصحيفة واحدة، هي صحيفة الوطن، وشركة واحدة بدون شركاء، هي شركة الوطن. "كيف أكتب قصائد للثورة، وهي لم تعد تعنيني؟" تساءل، وهو يستذكر قصائده القديمة الداعية إلى استقلال عدن وحرّيتها. "طلبوا مني أن اكتب قصائد لتأييدهم ولم أستطع. طلبوا من الفنانين أن يغنوا للثورة ويهاجموا أعداءها".

مكتبة الفكر الجديد

"من هم أعداؤها؟".

"أنت تسأل أسئلة صعبة. ألا تعرف من هم أعداء الثورة؟ كلّ واحد منّا مشروع عدو".

"الشيخ الصغير صار مسؤولاً كبيراً للشئون الدينية في الحكومة".

"غيّروا صفته من مسؤول عن الشؤون الدينية إلى مسؤول عن الشؤون الإسلامية".

"لكنّ أباه، الشيخ عبد الجبار، هاجر إلى مكّة بعد أن سُجن لمدّة شهرين".

"العداوة الثورية ليست عداوة عاطفية، قد تكون بين الأب وابنه أو بين الأم وابنتها".

"هل وافق الشيخ الصغير على سجن أبيه؟".

"ألا تعلم أنّ أم الصغير الحجّة فاطمة راحت تحج للمرّة الثانية؟".

"ماذا تعني؟".

"كان يمكن أن تسألني: هل وافقت الحجّة على سجن زوجها؟".

"لا أفهم".

"ولا عُمرك ستفهم" قال وضحك.

"ضايقوا سورابجي أيضاً. كان يطبع للثوار منشوراتهم السرّية. ينفذ مطالبهم بمقابل مالي متكئاً على مبدأ: الثورة تجارة مربحة، يجب أن يستفيد منها الجميع" قال المعلّم بضحكة بدت ساخرة.

سعيد لم يعد يجيء إلى الكازينو. لقد صار مشغولاً بقيادة جبهة الوطن مع رفاقه. كان يرى مع أبو النهار أنّ هناك طرقاً أكثر فعاليةً لإخراج الاستعمار من العمليات المسلّحة التي "لا تحقق الهدف

مكتبة الفكر الجديد

المنشود وتخلق أعداء جدداً للثورة الوطنية وقيادتها" كما قال لمقبل السمّار في تلك الليلة التي شهدت نقاشاً حاداً كاد أن يتحول إلى عراك بالأيدي. بقي شنكر ليلتها يهدئهم بقوله: "صلّوا عليه... صلّوا عليه". "هؤلاء لا يصلّون على النبي ولا يعرفون الله" قال ميجي مازحاً وقام مع الآخرين بفكِ العراك بينهما.

سألتُ عنه مقبل السمّار فلم يجب. أشار إلى أحمد الوهطي كمصدر سيجيب عن سؤالي، لكنّه سرعان ما خرج عن صمته، وقال: "انصحه. انصح صاحبك سعيد. قل له يطّل الهبالة حقّه. نحن في حال ثورة، ما تحتاج إلى تنظيرات وكلام فارغ". "لم أفهم" قلتُ له. "سعيد رجع إلى كلامه القديم. اعترض على توجهات قيادة جبهة الوطن في استكمال بناء الدولة الوطنية المستقلّة" أوضح. "قدّم ورقة انتقد فيها الاغتيالات العشوائية للسياسيين المخالفين لسياسة الجبهة" قال. "هل هو ضد الاغتيالات العشوائية، أم ضد كل الاغتيالات؟" سألته. "ماذا تقول؟ كيف ستنجح الثورة إذا لم تتخلّص من كلّ أذناب الاستعمار وعملائه الخونة" قال. ولم يوضح إذا كان سعيد يشاركه الرأي ولا يختلف معه سوى في كيفية تنفيذه. أحمد الوهطي، زميل سعيد في لعب الورق بمقهى زكو، ورفيقه في نقابة العمّال واتحاد الوطنيين وحزب الكفاح، لم يتردّد، بتشدد غير مسبوق منه، في إعلان براءته من صديقه القديم، مع أنّهما لا يختلفان، وقد صارا في جبهة الوطن، سوى في كيفية ممارسة النهج الثوري. وقد أبقاه هذا التشدد في حال نقاش حاد مع المعلّم. بدا خلاله وكأنّه يريد أن يسكته، إذ تحدّث عن مخاطر عدم اتّباع أهداف الثورة، قائلاً أنّ

مكتبة الفكر الجديد

ليس المطلوب من أي أحد، أو جماعة أو حزب، أن يفكّروا في أي شيء، مع وجود قادة الوطن، منظّري الثورة، الذين يفكِّرون للجميع، ويوجهونهم إلى طريق الثورة الحقيقي، طريق التقدّم والحرّية.

"أخبره عن صاحبه سعيد" قال السمّار للوهطي. "قيادة الجبهة وجُهت إليه إنذاراً اليوم. زاد بشطحاته وصدّق نفسه" قال الوهطي، ولم يضف أي شيء. "والجبهة من تكون حتى تظن نفسها الوحيدة على حق؟" قال المعلّم بغضب. "هي قائدة الثورة. جبهة الوطن، تمثّل كلَّ الوطنيين الشرفاء" أجابه السمّار. "الاستقلال تحقق بفضل الجميع، ولم يعد هناك أي مبرّر لادّعاء الوطنية واحتكارها على جماعة واحدة" قال المعلّم. "نحن لسنا جماعة. نحن نمثّل كلَّ الوطن" قال السمّار. "الاستقلال ليس نهاية كلَّ شيء. لا بدّ من تطهير الوطن من أعدائه" قال الوهطي. "من هم أعداؤه؟" سأل المعلّم. "أنتم" أجابه الوهطي سريعاً. "أعداء الوطن هم أذناب الاستعمار وعملائه الخونة" أضاف السمّار. "سمعتُ هذا الكلام منك أكثر من مئة مرّة" قال المعلّم.

"هو مُش كلام. أصدرنا قرارات بحصر كل أعداء الثورة. بحصر العملاء والرّافضين للقرارات الثورية. بحصر المشكّكين والخانعين الذي قد يصبحون طعماً للأعداء" قال السمّار. حرّك المعلّم رأسه إلى الأمام والخلف، وتمتم: "الرحمة على العارف. ماذا كان يقول؟". صمت لحظة ليتذكّر، ربّما، وأضاف: " تتخلصون الآن من منتقديكم والمختلفين معكم بالقوّة. سيجيء يوم تبحثون فيه عن أعداء جدد ولن تجدوا غير رفاقكم. لن يكون هناك غيرهم، غير أنفسكم".

مكتبة الفكر الجديد

سلام مربّع

كنتُ أتغافل دائماً عن سؤال سعيد، ماذا يقصد بتحيّته المعتادة: سلام مربّع؟ أمّا وقد حدث ما حدث فإنّ من الصعب أن أحصل على جواب مقنع غير ذلك الجواب الذي كان يمكن أن أسمعه من صاحب التحيّة نفسها. "لقد قتلوه..." قال المتحلّقون حول جمعية الأحرار إثر انفجار مدوي هزّ أكثر البيوت المجاورة لشارعي الطويل والزعفران. كان من القوّة إذ هدّم مبنى الجمعية تماماً، وأضاع جثث ثلاثة عشر شخصاً، هم قادة الجمعية وحارس مبناها وسعيد واثنين من رفاقه. "كان سعيد يعقد اجتماعاً مع إدارة الجمعية" قال أبو النهار وهو يواصل البحث بفزع عن أشلاء صهره بين الجدران المهدّمة وأكوام الحجارة والأخشاب. "هل كان اجتماعاً معادياً لجبهة الوطن؟" سألتُ. "لا يذهب ظنّك بعيداً. هو راح الاجتماع، مع رفيقيه، بتكليف من قيادة الجبهة. كلّفتهم بعقد اللقاء من أجل الاتفاق حول توحيد المواقف السياسية والنضالية بين الجبهة والجمعية" أوضح.

"لكنّهم أنذروه، قبل أيّام، في الجبهة" قلتُ. "ها. هكذا، أنت تفهم" قال ولم أدرِ ماذا فهم ممّا ظنّ أنّني فهمته.

مكتبة الفكر الجديد

"هذا ليس تفسيراً للحلم" قالت ماما. "بل بعضه" أضافت. كنتُ سألتها إذا كان حلمها قد تحقق. شعرتُ أنّ لدي أسئلة كثيرة، لكنّي لم اتجرأ على قولها في اللحظات التي ما زال فيها البعض يحاول أن يجد أشلاء سعيد أو أي أثر لجثته. شدّت ماما على عضدي. "سعيد لم يكن ايّ اسم أو أيّ شخص. سعيد..."، قالت وبدت أنها تحاول أن تقاوم البكاء، "كان طفلاً حين رأيته، ولا يكبرني سوى بسنوات قليلة. كنتُ اعيش في بيت أمّي ماري وأبي جراهم. رآني ابنهم ديفيد أشفق عليه فزعل. كان سعيد بملامح يمنية عربية، يجلس بجوار البيت حافي القدمين وبثياب وسخة ومقطّعة. رأيته من الشبّاك ونزلتُ لأعطيه خبزاً وبطاطا. ثمّ عدت وأسقيته ماءً ومسحت على شعر رأسه الأجعد. ديفيد يكره العرب مثل أمّه فطردني من البيت". بقيت صامتاً أترقّب ما ستضيفه: "شكوته إلى أمّه ولم تجبني. فهمت أنّها موافقة على طردي. لم أدرِ اين اروح. خرجتُ من الباب وأنا في حيرة، لكن أبي فارح، حارس البيت، غمز لي أن أنتظره في مكان خفي. وهكذا رحت اسكن عنده وعند أمّي حواء". لم أسألها لتكمل القصّة، أو تفصّلها، وحسبتُ أنني بهذا التصرف أراعي حزنها. "سعيد، ابن عمّتي، كان جزءاً من حياتي. ذكرياتي معه كانت ذكريات. سنوات وسنوات مضت" قالت، وقد بدت في حال هذيان، راحت تنثر كلماته وهي تمشي بعيداً عن أولئك الذين ما زالوا يبحثون عن أشلاء سعيد وزملائه بين الركام. كانت الشمس على وشك أن تغيب، وفي وقت كهذا يخرج الناس ليتلمّسوا بعض الهدوء في خفوت الحرارة. في ركن الميدان كان هاي يغنّي لمن تحلّقوا حوله. لم تتجاوزه ماما

مكتبة الفكر الجديد

وتوقفت لتنصت إليه. انتبه إلينا فجأةً فتوقّف عن الغناء. صافحنا بيديه الاثنتين ورأسه منكس. بدا مرتبكاً، وهو يشعر، ربّما، بالمصيبة التي حلّت بماما. أراد أن يقول لها شيئاً ولم يستطع. أجلسنا إلى جواره واحتضن العود للحظات، ثم حرّك أوتاره بأصابعه، وبدأ يعزف:

هذا الحلو قاتلني يا عمّة
فدوه إش قد أحبّه واريد أكلمه
وإنتِ اشلون عمتي
بيّا ما افتهمتِ
روحي كلها يمّه
يا عمّة يا عمّة...

لم يستطع هاي أن يواصل إذ بدأ يتداخل نشيج بكائه مع الأغنية. أراد أن يواسي ماما بفقد من كان يعرف أنّها تناديه: ابن عمّتي؛ لكنّه لم يستطع ورحنا مع المتحلقين نتبعه في البكاء، فيما بقيت ماما تندب فقيدها، وتنادي: يا عمّة... يا عمّة.

مكتبة الفكر الجديد

غير مرغوب فيه

لم يكن خبر مغادرة القالي، رئيس حزب العروة والمسؤول الحكومي السابق هو الخبر الوحيد المتداول، فقد غادر في الوقت نفسه الكثيرون. قالوا إنّه سافر إلى القاهرة، من تعز التي هرب إليها. "كان قد سمع أنّهم سيحاكمونه بتهمة الخيانة" قال عبد الله. سألته عن صحّة تأميم مطبعة وصحيفة ومجله ومكتبة فيلسوف عدن الذي صار هو الآخر في الكويت. "هذا صحيح، لأنّها معادية للثورة" قال. كان الفيلسوف، الذي ظل متمسكاً بتسمية حزبه: العدنيون الأحرار، قد غادر بعد أن ظلّوا يهاجمونه في صحيفة الوطن عدّة أسابيع ويقارنون تسمية حزبه بتسمية جماعة الماسونيين: البنّاؤون الأحرار.

ذهب القالي والفيلسوف مع أسرتيهما دون أن أودّعهما، كما لم أودّع الشيخ عبد الجبار حين غادر قبلهم مع السيد أبو القاسم رئيس جمعية الاعتصام الإسلامية الذي وزّع أتباعه منشوراً يحمل توقيعه؛ حذّر فيه من النهج المغاير لمشروع الدولة الإسلامية. أبو الفضل اللحجي صار في تعز، بعد أن استولوا على ممتلكاته، وهربت قيادة حزب جبهة الحرية وقيادة حزب اتحاد الوطنيين دون أن يعرف أحد

مكتبة الفكر الجديد

إلى أين. كان مفضّل الإسماعيلي قد سبقهم مبكراً وغادر إلى دبي، ترك لابنه محمد فرصة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أملاكه قبل تأميمها، مستسلماً لما قد يحصل في قادم الأيّام. سوامي غادر إلى لندن وترك محل العطور في سوق البهرة ومسرح الحكايا في التواهي لابنه شنكر، الذي صار غائباً عن الأنظار ولا يعرف جيرانه أين ذهب. كما لم يعرف أحد أين اختفى المعلّم وميجي.

عبده حجازي غادر، مع زوجته تسنيم، بعد أن حاول التفاهم معهم بشأن أملاكه دون جدوى. طلب من صهره محمد الإسماعيلي، الذي استقر في مغامراته العاطفية بعد أن زار حَرَاز، في شمال اليمن، وتزوج من امرأة رآها هناك، أن يبقى يتابعهم. قال محمد: "طلبوا منه أن يغيّر اسمه الرسمي، سعيد بن إسرائيل، الذي كان قد صار يستخدمه في شركته إلى اسم عبده حجازي أو أي اسم عربي آخر". "أرادوا أن يبعدوا اسم إسرائيل من اسمه. قالوا إنّهم سيتركون له محلاً صغيراً ليعمل فيه ويصادرون كل ممتلكات شركته" أضاف. كيكي غادر هو الآخر وبقي خسرو يشغّل محلّه، حلويات الهندي، فيما الصُوري العُماني فتح محلاً خاصاً به لعمل الحلويات وبيعها. كان خسرو قد طلّق زوجته فريال قبل سنوات ليتزوج من بوران، بنت خالته، إلاّ أنّ هذه الأخيرة غادرت مع أخيه فرهاد إلى دبي دون علم أحد. أمّها السيّدة جالا بقيت لتؤنس أختها لورا في عدن، برعاية شيرين التي صارت تعشق التُنبل والقات والتنباك كأمّها.

سورابجي ترك مطبعته لجامع وهو لا يعرف كيف سيكون مصيرها. ابنته فريال طلبت منه أن يسمح لها بالبقاء مع السيدة لورا،

مكتبة الفكر الجديد

أم زوجها السابق، طالبةً منه ألاّ يصدّق الشائعة المنتشرة عن علاقة تجمعها مع الفنان خان.

غادر كثيرون وبشكل جماعي، لكن هناك من بقي، فإلى جانب خسرو وشيرين وفريال ولورا وجالا ومحمد مفضّل، بقي أيضاً إيزانا، مغنّي الثورة، وخان، وفرانسيسكو الذي صار مفلساً بعد أن نفدت مدخراته. بقي هاي وسالم وفارح وحواء وحلاها وجامع وعبدي، وعفورة. أين عفورة؟

صحيح أنهم قليلون، لكنّهم بقوا، على اي حال. ألم تبقَ ماما، وهذا يكفي؟

وكيف يمكن نسيان الباقين؛ من يمسكون علم الوطن ويحرّكون جبهته، جبهة الوطن، وقد صاروا كلّ شيء، أو البديل عن كلّ شيء. وها هو عبد الله غير بعيد عنّا، كما هو غير بعيد، طبعاً، عن رفاقه الثوريين. رفاقه الذين لم يعودوا يجيئون إلى الكازينو. كان أبو النهار، هو آخر من جاء ليسألني إذا كنتُ، أنا أيضاً، ساغادر. ولم أستغرب سؤاله، لكنّني لم أعرف كيف أردّ عليه. قال إنّه جاء ليطمئنّ علي؛ وبقي إلى أن سمع ماما تقول: "عدن ليست سجناً، له جدران وباب واحد. عدن بحر. بوّابة من البحر وإلى البحر، لا يمكن لأحد أن يغلقها".

ولكن اين المعلّم وميجي وشنكر، ألا يقال إنّهم غائبون عن منازلهم منذ أيّام، وأنّ المكان الوحيد، المحتمل تواجدهم فيه، هو السجن؟

مكتبة الفكر الجديد

رائحة الموت

لم يقل هاي إنّهم هدّدوه، لكنّ من سمعوا ذلك هم من أوصلوا المحبّي صوته الخبر. "طلبوا منه أن يغنّي للثورة. هذا كلّ ما في الأمر" قال عبد الله، حارس الكازينو، الذي صار "متحمّساً للثورة ونهجها في تأميم الشركات والممتلكات من المستغلّين البرجوازيين" كما قال. "أعداء الثورة غادروا عدن دون رجعة" أضاف.

"وماذا عن المعلّم؟" سألته. "لا تقلق. المعلّم لن يغادر عدن. لكنّهم استضافوه مع ميجي وشنكر" قال. "ماذا تعني؟" سألته. "استضافوهم في السجن لأنّهم لا يسكتون. يحرّضون ضد الثورة وقادتها" أوضح. "ما الذي سيضرّ المعلّم لو كتب قصيدة للثورة بدلاً من قصائد الغزل والهبالة" أضاف.

كان المعلّم قد أخبرني، قبل أن يختفي فجأةً، أنّه سيلوذ بالصمت. فهل سجنوه لأنّه صمت، أم لأنّه استمع إلى سخريات ميجي وشنكر؟

يومها دعاني، مع هذين الساخرين لنتناول الغداء في مخبازة التحالف. وهناك كان شنكر يشرح الوضع: "قيادة حزب تحيّة كاريوكا تبدو منقسمة منذ أوّل يوم أعلنت فيه عن تحالفاتها مع

مكتبة الفكر الجديد

التيّارات الأخرى، بدون أن تظهر ذلك. المشكلة أنّ الانقسامات ليست إلى فريقين أو تيّارين، وإنّما إلى فرق وتيّارات. أقواهم هم جماعة كريستينا. اعتبروها واقعية، من لحم ودم. رأوها ترقص في سينما بلقيس وفي الكازينوهات وليس عبر الشاشة. تجمع بين الرقص الشرقي والغربي وليست كتوحة المحافظة على تقاليد الرقص القديمة". وبعد صمت عقب ضحكات عدد من روّاد المطعم الذين كانوا يسمعونه، أضاف ميجي من جانبه: "هناك تيّار يعجبه الرقص المائل نحو اليسار بشكل خفيف، فيما تيّار آخر لا يرتاح إلاّ إذا رأى الراقصة وهي تنعطف من جذعها كلّياً نحو اليسار. فريق من تيّار الرقص المائل والخفيف يتحالف مع تيّار آخر يدعو إلى بقاء قوام الراقصة منتصباً قبل التمايل. فيما يتحالف فريق من تيّار الجذعيين، المنادي بانعطاف الراقصة من جذعها كلّياً نحو اليسار، مع تيّار الانعطاف الكلّي لجسد الراقصة نحو اليسار. التحالف الأوّل يصف التحالف الثاني بالمغامرين والتحالف الثاني يرى المنتمين للتحالف الأول انتهازيين".

لم يتح المعلّم لشنكر أن يعاود الحديث، حين أراد أن يضيف شيئاً وسط الضحكات الصاخبة، وطلب من ميجي أن يواصل وحده الحديث: "هناك جماعة من كلّ التحالفات يعتبرونهم متخاذلين، لأنّهم لا يؤيدون بعض رقصات تحيّة كاريوكا وبالتالي لا يمثّلون التوجّه الكاريكوري أو حتى الكريستيني. يوصفون من قبل اليساريين الجذعيين بأصحاب النزعة اليمينية، فيما هم يعتبرون الجذعيين متطرّفين ولا يختلفون عن اليمينيين. فالراقصة برأيهم لا تستطيع أن

مكتبة الفكر الجديد

تميل كلّياً، من جذعها، نحو الجنب الأيسر، كما يقول الجذعيون، وهي إذ تضطر إلى الميل من وسطها نحو اليسار فإنّ جذعها المكتنز ينعطف كلّياً إلى عكس ذلك. ولهذا فإنّ هؤلاء المتشددين يجلسون بتطرّفهم في أقصى حافة اليسار، ليلتقيا هناك بمن يقابلهم في الحافة الأخرى من اليمين".

بدا المعلّم مندهشاً لما قاله ميجي، ولم يضحك كالآخرين، كأنّه كان يسمع كلاماً جاداً لا مزاحاً. "كلام مهمّ. هذا بالضبط ما يحصل" قال في عبارة توكيدية واضحة، الأرجح أنّها وصلت إلى من أمر باستضافته، مع المتكلّمين، بين جدران سجن خاص في التواهي لم يعرف وجودهم فيه إلاّ بعد أربعة أسابيع.

لم تكن ماما تودّع المغادرين وكأنّهم ما زالوا بالقرب منها، أو أنّهم راحوا في إجازة وسيعودون في أي لحظة.

لكن، هل يمكن أن يعود هاي أيضاً؟

بقي على حاله يغني في الشارع، منذ أوّل يوم تلقّى فيه العود الجديد. ظل يداعب أوتاره ليلا ونهاراً، كأنّه لم يكن قد استطاع أن ينطّق من قبل أغانيه بدون هذا العود. كان قد حصل عليه من فنان اسمه عباس الكردي. جاء من العراق إلى عدن ليعمل في الفرع الجديد لمطعم وفندق الحمراء، في خور مكسر عند جورج اللبناني، لكنّه اضطر للرحيل بعد أربعة أشهر فأهدى عوده إلى هاي الذي سمعه يغني في الشارع وتعرّف إليه. بقي هاي يغني ثلاثة أيام حتى سقط مغشياً عليه من العزف، وقيل من السُكر؟ حتى وإن لم يكن من السُكر، كما أنكر البعض، فإنّ هاي كان يبدو سكرانَ بلا سُكر، كلّ

مكتبة الفكر الجديد

أغنية منه مُسكرة. تسكره هو في أدائها وتسكر مستمعيه بإنصاتهم إليها. نقلوه إلى غرفته وتركوه هناك، ليرتاح. بعد خمسة أيّام فقدنا حضوره فذهبت مع ماما إليه. وجدناه في الغرفة مقلوباً على جنبه وهو يحتضن العود بلا حركة، فيما رائحة الموت تملأ المكان.

مكتبة الفكر الجديد

لتقتنع

ما الذي يدعك تكتسب قناعةً غير تلك القناعة التي صارت مالئةً أقوال وتصرّفات أكثر مَن تقابلهم؟

كلّما سألتَ عن عمارة مغلقة أو شركة خالية يقولون إنّها مؤممة، وإنّ أصحابها غادروا، بما فيها شركة عدن فون التي كنتَ تعمل فيها. ألا تذكر؟ ألستَ أنت هو؟

ها أنتَ ترغب في الذهاب لتناول وجبتك المفضّلة في مطعم إحسان بالميدان، حيث يتفنّن الطبّاخ الإيطالي في كيفية جذب بطون من يستطيعون مواكبته بتقبل أسعار الوجبات. هاأنت تقف أمام فندق ومطعم إحسان ولا يظهر لك سوى أطفال أعضاء الميليشيا الشعبية من الشبابيك الخشبيّة مشيرين بألسنتهم إليك، هازئين من ارتباكك العجيب أمام ما صار سكناً لعائلاتهم. ها هم يخرجون ألسنتهم دليلاً على انتصار الثورة عليك، باعتبارك عدوّاً. هل أنت كذلك؟ أو على الأقل صديقاً للأعداء وقريباً منهم؟ ألستَ كذلك أيّها العدني؟ ألم تعد عدنياً؟ أمّ أن عدنيّتك هي التي لم تعد تعني شيئاً في عدن العربيّة؟ ألا تسمع مقبل السمّار الواقف في قلب الظهيرة، بالقرب من مبنى

مكتبة الفكر الجديد

إحسان، يهتف بشعارات الثورة المجيدة، التي أعادت عدن إلى عروبتها وحرّرت العمّال والفلاّحين والفقراء من الاستغلال الطبقي والرأسمالي إلى الأبد؟ أنتَ هنا لا تستمع إلى فكاهة من فكاهات ميجي، بل تنصت إلى أحد رجالات الثورة وهو يخطب ناظراً إلى أعلى. هو ليس شنكر ذلك الذي يتحدّث عن أحزاب الرّاقصات الثلاث، وتميّز حزبه الوسطي، حزب سامية جمال، باعتداله عن الحزبين الآخرين. فالذي أمامك لا فسحة لديه لمزاح من صار السجن مأواهم؛ إنّه مقبل الذي لم يعد يجيء إلى الكازينو، بعد أن أغنته مشاغله الثورية عن أي جلسات ترفيهية، لا تؤدي ثمارها لصالح الشغيلة الكادحة.

ما الذي لا يقنعك في الأمر؟ أمس كنتَ قلقاً بعد ان رايت جورج اللبناني وهو تائه يبكي في الشوارع ولا يتوقّف عن المشي. لقد أمّموا مطعم وفندق الحمراء وفرعه، اللذين يملكهما في كريتر وخور مكسر، وحوّلوا أحدهما إلى مخزن لمنتجات مؤسسة الملح الوطنية فيما الثاني صار سكناً لأعضاء قيادة نقابة العمال. كان جورج يصيح نادباً عمره الذي ادّخر محصوله في هذا المشروع ليضيع في النهاية هباءً. وأنتَ تنصت إليه أكثر من إنصاتك إلى مقبل وهو يقول إنّ العمّال والفلاحين استرجعوا محصول عمرهم من أولئك الذين امتصوا عرقهم ودمهم طوال السنين. أليس عليك أن تعترف بما يقوله مقبل عن الاستغلال الطبقي، عن وجود نوع من الاستغلال؟ ألم تشارك أنتَ في تسجيل أسطوانة غنائية للأخدام ربحت منها الشركة الكثير، فيما لم يحصل سالم وعائلته من ذلك سوى مصاريف لم

مكتبة الفكر الجديد

تكفه لنصف شهر، أو أسبوع؟ ألا تذكر من كنتَ هو؟ كان سالم قد أخذَ منك مبلغاً من المال كدين على حساب التسجيل، ثمّ لم يأتِ في الموعد. هو كان يريد أن يخونك، يخون الشركة المستغلة لأغانيه ولا يأتي. لكنّك لم تسمح له وبحثت عنه حتى وضعته وعائلته أمام السيد أدموند مسؤول الإنتاج.

حين كان سالم يتحدث إليك في المقهى أو الكازينو، أو في بيت شمعة، لم تكن تهتم بما يقول، وهو كان يريد أن يقول، فقط، ولا يهمّه إن كنتَ تنصت إليه أو لا. عبد الله كان عكسه، فهو حين يتحدّث إليك يريد أن يقنعك في الوقت الذي يعرف فيه أنّ ذلك غير ممكن، كما حالك الآن وانت تحاول أن تقتنع بما يقوله مقبل أمام هذا الحشد الذي يصفّق لكلماته ويشعركَ بأنّك صرتَ بعيداً عنه؛ بعيداً عن عدن التي ظننتها أخرى. هل أنت الذي صرت بعيداً عن عدن الأخرى أم هم؟ ألم تبالغ في نظرتك إليها حين رأيتها الأخرى لكلّ شيء وأنّ كل عدني هو آخر الآخر؟ ألستَ أنتَ من قال هذا؟ لترجع إلى ما كنتَ قد دوّنته في مفكّرتك قبل سنوات طويلة، أو قل إنّك لستَ هو.

مكتبة الفكر الجديد

يا ليت عدن قريبة

لم أمكث في الغرفة أقلّ من ساعة حتى جاء عبد الله، حارس الكازينو، يصرخ هلعاً ويدق الباب بقوّة. "لقد فعلوها. فجّروا الكازينو" قال. "مَن هم. وماما اين هي؟" سالتُ. "لا أدري. رحتُ اشتري الحليب، مثل كلّ ليلة، من الدكّان. أفزعني الانفجار وأنا أدفع قيمة الحليب. ماما كانت في الداخل. إلاّ إذا كانت روّحت عندما خرجت أنا" أضاف. رحتُ أركض بملابس نومي ونسيت أن آخذ السيّارة.

كنتُ قد غادرتُ الكازينو حين شعرتُ بصداع لا يُحتمل. قلتُ لماما إنّني لا استطيع تحمّل شدّة الحرّ وصخب الأحاديث في الوقت نفسه. فقالت: "ارجع للغرفة. ارتح، وأنا سأتأخر الليلة".

لم تؤثر المبرّدات الهوائية في تهدئة الجو، كما لم يفد شراب الزعفران في ترويق البال ليتحمل الصخب العالي من قبل المتحاورين الذين يبدون وكأنّهم لم يدركوا ما وصلت إليه الأحوال، حيث صار علينا أن نستقبل مخبرين كلّ ليلة ونكرمهم بالمشروبات المجّانية لأنّهم، يقول عبد الله: "يقومون بتأدية الواجب الوطني؛ يبلّغون أمن الثورة باسم من يقوم بنشاط تخريبي يستهدف زعزعة أمن واستقرار الوطن".

مكتبة الفكر الجديد

في بداية الليل، وقبل حفلة الكازينو الأسبوعية المميزة، بمشاركة منْ تبقى من أعضاء فرقة شمعة، بدت بوادر لشجارات من قبل الشباب إلاّ أنَّ الأغاني كانت كفيلة بتهدئتهم، بل وبجرّهم إلى رقص صاخب أصرّوا على أن تشاركهم فيه عيشة عاملة الكازينو. إذْ لم تعد تتواجد أيّ فتاة غيرها. لقد تغيبن خلال الأسابيع الأخيرة بعد ازدياد الشجارات التي تنشب مع الحفلات، ومعظمها كانت حولهن، أو حول اختياراتهن لمن يرقص معهن. ولم يجد المخبران المداومان في الكازينو، بعد سماعهما إشاعة عن قيام شباب وشابات بممارسات خليعة أثناء الرقص، إلاّ أن يأمرا عبد الله بعدم السماح للفتيات بالدخول أيّام الحفلات، فبمجيئهن، كما قالا له، سينشرن علاقات الحب، وبالتالي سيلهين الشباب عن واجبهم الوطني. وهو ما نفذه الحارس دون أن يرجع إليّ أو إلى ماما، مع أنّنا نحن الذين نمنحه الأجر الشهري.

لم يعد المعلّم يجيء، مع ميجي وشنكر، وبدا أنّهم لزموا بيوتهم، بعد اكتشافهم كرم مضيفيهم في السجن الخاص. كان ميجي يأمل أن يزور قبر أمّه التي ماتت في غيابه، وقد وافق على تدريب فريق الوطن، بعد إدماج ثلاثة أندية تحت هذا الاسم، على أمل ان يدّخر مبلغاً، تصبح معه الفرصة سانحة لشراء قيمة تذكرة تأخذه إلى قبر أمّه وتعود به. لكن حلمه هذا لم يعد سهل التحقق، بعد أن صار ولاءه الوطني غير واضح، أو مشكوكاً فيه. ربّما هو مثلي، إذ لم أستطع، بتصرّفاتي المرتبكة وغير المحسوبة، أن احدّد وجهتي، أو مع من اقف. ماما وحدها كانت تبدو وكأنّ لا شيء يربكها، بل بدت كأنّها ذاهبة إلى

مكتبة الفكر الجديد

تحقّق رؤى تعرفها مسبقاً، كما قلت لها ذات ليلة. ذات ليلة ليست كمثل هذه الليلة التي صرتُ أسأل فيها الناس عنها ولا أحد يجيب. أسأل المارّين والمتفرّجين على ركام كازينو البندر، ولا أحد يعرف.

لقد تفجّر كلّ شيء. اختفى جسد ماما، ولم يُعثر حتى على أشلاء تدل إليها. صار الكازينو، بكلّ ما فيه، شظايا. لقد قُتلت عيشة ونجيب ومن تبقى من فرقة شمعة، مع أولئك الذين لم يكونوا قد أكملوا نقاشهم. ولكن هل كانت ماما فيه فعلاً. ألم تخرج في الدقائق التي ذهب فيها عبد الله لشراء حليبه. كمثل كلّ ليلة؟ يكرّر القول إنّه راح كمثل كلّ ليلة، فهل توقّع أنّ هناك من يتهمه بأمر ما، وهو الذي عاش في الكازينو سنوات طويلة. كان كبيته، لا يغادره إلاّ في مناسبات قليلة يذهب خلالها لزيارة أمّه وزوجته وبناته الأربع في القرية الرابضة خلف صحراء وجبال. وجود ثلاثة من الثوّار بين القتلى لم يلغِ التشكيك في جهات لها مصلحة في تفجير الكازينو، بما فيها جهة يتبعها مخبر قُتل في الانفجار نفسه. وقد بدا عبد الله مرتبكاً وهو يستمع إلى شكوك مشاهدي آثار الخراب. يحاول إقناعي أنّ المفجّرين لم يكونوا يستهدفون الكازينو أو ماما، وإنّما استهدفوا الساهرين في الكازينو. مذكّراً أنّ اثنين من السياسيين، غير المرغوب فيهم، كانا من بين القتلى؛ تواعدا ليقضيا في الكازينو آخر ليلة لهما في عدن قبل أن يرحلا، ولم يكونا يعرفان أنّها كانت الليلة الأخيرة لهما في الحياة.

"يا ليت عدن قريبة" كنتُ أغنّي لماما وأنا أتتبّع الصخب في أوّل الليل. قلتُ لها: غنّى المغنّي "يا طائرة طِيري على بندر عدن" وكأنّه بعيد عن عدن، فيما هو فيها. نظرتْ إلى وجهي وظلّت تتقلقل كأنّها

مكتبة الفكر الجديد

قُبيل بركان منتظر. قالت: "كأنَّ الحياة بركان، يهدأ حين نتوزَّع منه، لكنّه يصبح ثائراً متفجّراً ولا يخمد، وإن بدا لنا خامداً، إذا ما تلاقت براكيننا الخاصة في بركان واحد".

هل انفجر البركان؟ وأين ماما فيه؟

حتى الفقد لا يؤكّده افتقاد، كأنّها كانت ولم تكن، كأنّني أنا، أيضاً، كنت آخر في عدن أخرى؛ كما أولئك الذين اختفوا فجأةً، أو سافروا بعيداً عمّن كانت بالنسبة لهم الأخرى عن الوطن، الأخرى عن المنفى، الأخرى عن الأخرى.

لا أعرف هل أبقى أم أمضي. فما لي اذهب بدون عدن وما لي أبقى بدون ماما. سأتبع قولها إنّ "عدن ليست سجناً، له جدران وباب واحد". "عدن بحر" سأقول. "بوّابة من البحر وإلى البحر، لا يمكن لأحد أن يغلقها". لكنّني لم أعد أعرف من اكون أنا فيها. لم أعد أعرف من اكون. **مَنْ تكون أنتَ؟ هل ستعترف، في الأخير، بما لم تعترف به من قبل؟ مَن قال لك إنَّ الوطن كذبة كبيرة؛ هل كنتَ تحلم؟ هل صدّقت أنّ الوطن وهم وعبرت كلّ هذه المسافة لتبحث عن بديل عنه؟ أو قل إنّك لم تكن هو، أو لم تكن أنتَ. أليس اللاوطن هو وهم، أيضاً؟ بمَ تفكّر؟ ستقول إنّك قد أخذت حصّتك من الحياة وعليك أن ترحل. ترحل ولو إلى فوهة بركان أخرى، غير عدن. هل صرتَ الآن تعرف معنى كريتر، اسم عدن؟ ستتباهى بالقول إنّك عشت الأخرى عدن، وهذا يكفي؛ وإنّك كنت، في زمن ما، عَدَنيّاً. ستبقى تحاول أن تتذكّر كلّ ما في وسعك أن تذكره، كعزاء أخير لحياتك وتنام.**

مكتبة الفكر الجديد

هل هو ميشيل أم فرانسوا؟ إنه الفرنسيّ الذي هرب من الحرب الدائرة في بلده، ووصل عدن متخذاً "أي شيء" اسماً له.

في عدن التي تعيش حياةً غنيّة بتنوّعها سيسير خلف سحر ماما التي غدت بأحلامها ضمير المدينة ودليله إلى خفاياها، وصوت شمعة، المغنية اليهودية التي ترسم بصوتها حدود مدينة مترامية الأطراف. يمضي ليصبح جزءاً من تاريخ عدن الثائرة على الاحتلال، والتي راحت تفقد ذاكرتها، بما فيها دكان اليهودي الذي كان مخزن أسرارها وحافظ مشاعر أبنائها من الحب والشوق واللوعة.

رواية عن التاريخ والسحر والحب والثورة. تبحث عن معنى الوطن في مدينة كانت حتى وقت قريب وطناً لكل القادمين إليها، محروسين بصوت شمعة الدافئ وأحلام ماما التي لا تنتهي.

علي المقري روائي يمني. ترجمت أعماله إلى الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والكردية وغيرها. صدر له في الرواية عن دار الساقي "طعم أسود... رائحة سوداء" (القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية ٢٠٠٩) و"اليهودي الحالي" (القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية ٢٠١١) و"حرمة".

ISBN 978-6-14425-799-9

دار الساقي
DAR AL SAQI

www.daralsaqi.com

مكتبة الفكر الجديد